
Bibliotheca Alexandrina
0013815







دراسات في :

التراث العربي

سلسلة تصدرها وزارة الإعلام
في الكويت

الأسفار الخمسة
(بنجاتنترا)

ترجمة ودراسة : الدكتور عبد الحميد يونس

تقديم

ان نقل رائعة من روائع الادب العالمي الى اللغة العربية ودراستها دراسة مقارنة مع نظير لها من عيون الادب العربي ، هو اضافة علمية توضح الصلة بين التراث العربي وغيره من التراث العالمي .

وفى هذه الدراسة التي يقدمها الاستاذ الدكتور عبد الحميد يونس مع ترجمته للبنجاتنترا ـ الاسفار الخمسة ـ ، تحقيق أدبي هام يربط بين رائعة عبد الله بن المقفع ، كليلة ودمنه ، وبين البنجاتنترا .. كما تتضمن المقدمة والتعليق دراسة مقارنة توضح الصلة بين هذين الكتابين العظيمين .

ولاشك ان التراث العربي بحاجة الى دراسات علمية عديدة ومتنوعة تكشف عن جهود المفكرين العرب فى الابداع الانساني والاضافة الحضارية المستمرة ، بجانب جهودهم التاريخية المتواصلة فى الحفاظ على ما وصل اليهم من تراث عالمي او وصلوا هم اليه وكذلك ابراز الدور العلمي الذى قام به العلماء والمفكرون والرحالة العرب فى نقل عناصر ومقومات من الثقافة الى غيرهم من الشعوب .

احمد العدواني
الامين العام للمجلس الوطني
للثقافة والفنون والاداب

مقدمة

منذ بدأ الاهتمام بالفولكلور في القرن الماضى ، والأوساط العلمية مشغولة بقضايا أساسية تتصل بمفهوم الثقافة من ناحية ، وبانتشارها عبر الزمان والمكان من ناحية أخرى . ولقد تأثرت مناهج العلوم الانسانية ، ومنها علم الفولكلور بالنزعات العنصرية والمذاهب السياسية ، حتى ان فريقا من الدارسين ألح على أن الموطن الأول ، لكل ما يستحق التقدير من ثقافات الشعوب ، إنما هو «الهند» ، التى رأوا أنها المنطلق الأول – للشعوب الآرية أو الهند وأوروبية . ورأى فريق آخر أن الظروف التى تخلقها البيئات المحلية هى التى أثمرت الثقافات الشعبية ، وهى التى فرضت وجوه التماثل والاختلاف بين هذه الثقافات . وكانت هناك وثائق أدبية ، اذا صح هذا التعبير ، يؤكد ما انتهى اليه أولئك وهؤلاء ، وفي مكان الصدارة من هذه الوثائق كتاب يعد من معالم الأدب العربى والأدب العالمى في وقت معا ، وهذا الكتاب هو « كليلة ودمنة » الذى لا يمكن أن يذكر إلا مقترنا باسم رائد عظيم من رواد النثر العربى ، هو عبدالله بن المقفع .

وليس من غرضنا في هذه المقدمة أن نفصل القول في طبيعة هذا الكتاب ، فهو معروف مشهور ، ولا أن نعرض لقضية طال الجدل حولها دهرا ، وهى التساؤل حول نسبة الكتاب الى الأديب العربى أو الجزم بترجمته عن السنسكريتية عبر البهلوية ، وقصارانا أن نتتبع الرحلة المضنية التى قطعها هذا الكتاب ، وهى الرحلة التى تدل بذاتها على طبيعة الثقافة الشعبية وتواصلها ومرونتها ، على الرغم من طول التاريخ ، واتساع الرقعة المكانية ، واختلاف الأرومة بين الجماعات الانسانية ، مع تبلبل لغاتها ، وحوافز الصراع بينها . وكانت العقبة التى يواجهها المتتبع لهذه الرحلة الشاقة والفذة هى انقطاع التسلسل بين الوثيقة العربية ، وهى حكايات كليلة ودمنة ، وبين أصولها ، حتى اكتشفت وثيقة هندية ، دلت

بنفسها ، ولا نقول بدراستها ، على أنها الحلقة المفقودة والمنشودة ، وهذه الوثيقة هى مجموعة الحكايات المعروفة باسم « بنجاتنترا » أو خزائن الحكمة الخمسة ، أو الأسفار الخمسة .

ولم يكن من قبيل المصادفة أن تتحقق رغبتى في الحصول على ترجمة انجليزية دقيقة للنص السنسكريتى للأسفار الخمسة ، فقد رأى زملائى وأبنائى في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب بجامعة القاهرة أن يقدموا الى نسخة من هذه الترجمة على سبيل التذكار ، وكانوا على معرفة كاملة بحاجتى الى هذه الحلقة المفقودة في جانب من جوانب الدراسة الفولكلورية . وليس هناك ما يبدد الحواجز المصطنعة بين فروع ما اصطلحنا على تسميته بالعلوم الانسانية ، بل ليس هناك ما يقضى على الحاجز الوهمى بين الصقل والارتجال في التعبير ، أو الرسمى والشعبي في الآداب والفنون من انتشار هذا الضرب من موارد الأمثال ، الذى سيق على ألسنة البهائم والطير ، ليقوم بوظائف التهذيب والتعليم والسمر في وقت واحد .

وعندما هممت بترجمة « البنجاتنترا » عن النسخة الموثقة ، التى نقلها إلى الانجليزية نقلا يكاد يكون حرفيا الأستاذ فرانكلين ادجرتون ، أستاذ الأدب السنسكريتى وفقه اللغة المقارن بجامعة ييل ، أدركت أن الجهد يتجاوز الترجمة الى الدراسة المستأنية والى الأخذ بمناهج الأدب المقارن ، وكدت أحجم عن المضى في هذا الطريق الصعب ، ولكن طبيعة الوثيقة وأثرها في تبديد المخاوف التى يستشعرها الحريصون على فصاحة اللغة القومية ، ورفعة الأدب الرسمى حفزتنى الى النهوض بالتبعة واحتمال المسئولية واثراء اللغة العربية برائعة فذة من روائع الأدب العالمى ، وأن أسد في الوقت نفسه ثغرة في تاريخ الأدب العربى ، وأضع الحلقة المفقودة في مكانها من التسلسل التاريخى الجغرافي لكتاب كليلة ودمنة ، الذى أصبح جزءا لا يتجزأ من ثقافة الانسان في أقصى المشرق وأقصى المغرب على السواء .

ويذهب فرانكلين ادجرتون الى أن البنجاتنترا بين الآثار الأدبية الهندية هو الذى كان له شأن عظيم في الآداب العالمية، وهو يقول انه لا يعرف كتابا آخر قد حظى بالانتشار في أرجاء العالم مثل البنجاتنترا ، ولا يفضله في ذلك سوى « الكتاب المقدس » . وقد يرى البعض أن في هذه العبارة شيئاً من المبالغة، وقد يكون ذلك صحيحا ، ولكن هذه المبالغة تنطوى على التهوين من شأن الكتاب لا على تمجيده . وحسبنا أن نسجل أن هذا الكتاب قد ترجم عن غير لغته الأصلية أول الأمر الى أكثر من خمسين لغة . ومنذ القرن الحادى عشر الميلادى بلغ هذا الأثر الأدبى في رحلته الأقطار الأوروبية، وقبيل القرن السادس عشر عرفته اللغات اليونانية واللاتينية والاسبانية والايطالية والألمانية والانجليزية والتشيكية وغيرها من اللغات السلافية . وعرف منذ ذاك في مشارق الأرض ومغاربها من جاوه الى أيسلنده .

واحتل هذا الكتاب مكانة سامية في الهند ، موطنه الأصلى ، ولم يكن هناك أثر أدبى يدانيه في الذيوع . ومن الطبيعى أن يتسم بالمرونة ، وأن يساير أذواق الشعوب في القارة الهندية ، وأن يلخص ويشرح ، وأن يجد من الأدباء من يصوغه نظما ونثرا فنيا ، ومن ينقله الى اللغات واللهجات الشعبية والمحلية . وأكثر هذه الحكايات التى تضمنها الكتاب قد تحولت الى مأثور شعبى ، وأصبحت مادة أصيلة من مواد الفولكلور الهندى ، يجمعها الدارسون المتوسلون بمنهج العمل الميدانى في هذا العصر من أفواه الناس ، وتظهر وكأنها منفصلة عن أصلها في المجموعات القصصية المدونة من ألسنة الناس مباشرة .

والبنجاتنترا معناها — كما أشرنا — الأسفار الخمسة ، والملاحظ أن السفرين الأخيرين أقصر بكثير من الأسفار الثلاثة الأولى . ويستوعب كل سفر منها حكاية واحدة على الأقل ، وقد يستوعب أكثر من حكاية ، لها علاقة وثيقة بأحداث الحكاية الأصلية ، وهى التى نستطيع أن نطلق عليها مصطلح « الحكاية المحورية ».

وكثيرا ما يجد القارئ حكايات تعرض على سبيل الاستطراد من حكاية ثانوية . ومن الخصائص التى لها أهميتها أن المجموعة تستهل بمقدمة موجزة ، وكأنها العمود الفقرى لكل ما يستوعبه الكتاب من حكايات . وفي هذه المقدمة نجد

حكيما من البراهمة ينهض بتعليم ثلاثة من الأمراء ، غلب عليهم الجهل والتبلد، أصول تدبير الملك ، وذلك عن طريــق السرد القصصى . وهذا يرجـــح أن البنجاتنترا كان يستهدف غاية عملية ، وبذلك عد من كتب المبادئ والأصول الخاصة بالحكمة الدنيوية أو فن تدبير الملك ، الذى كان الهنود يعدونه واحــدا من الأهداف الثلاثة التى تتغياها رغبة الانسان ، والهدفان الآخران هما : الديانة أو الأخلاق الفاضلة والمحبة . وليس من شك في أن الغاية التعليمية العملية مـــن الأسفار الخمسة ظاهرة جلية في سياق الكتاب بأسره . وهو ينقل بين حين وحين عبارات من كتاب مشهور باللغة السنسكريتية هو كتاب« كَوْطلْيَه أرثاشاستره » الخاص بفن تدبير الملك . وهذا يدل على أن أسفارنا الخمسة تماثل هذا الكتاب في استهدافه الجانب العملى من الحياة ، ولا جنـــاح عليها من هذه الناحيـــة ، ما دامت متعلقة بالسياسة ، أن تتجاوز الفضائل وأن تُعنى بالوسائل ، وأن تُكبر من شأن السلوك اللا أخلاقى ، ونحن نجد ذلك واضحا في مغزى بعض الحكايات التى تدعو الى الدهاء وإعمال الحيلـــة ، لا الى الاعتصام بالمثل والقيم الإنسانية العليـــا .

والأصل الهندى للبنجاتنترا أو الأسفار الخمسة يجمع بين النثر والشـــعر . والحكايات تروى بالنثر غالبا ، أما المقطعات الشعرية فهى مقصورة على الأمثال والحكم وجوامع الكلم ، وقد يتوسل بها في تقديم حكاية محورية أو ثانويـــة ، وهى تلخص ما يعرف باسم « المغزى » أو الدرس المستفاد من الحكاية المروية، وتكرر عادة في ختام الحكاية بعد الصيغة التقليدية في هذا الكتاب« ولهذا أقول ... » وقد ترد تلك المقطعات في تضاعيف الحكاية ، ولكنها تظل معبرة عن المغزى أو الدرس المستفاد من الأحداث .

ويرجح العلماء المتخصصون أن البنجاتنترا في أصلهـــا السنسكريتى كانت موجودة في القرن الخامس الميلادى ، ذلك لأنها ترجمت الى البهْلوية، بتحريف يسير ، في القرن السادس . ووصل العلماء الى هذه النتيجة عندما وجدوا أنهـــا اعتمدت على كتاب « كَوْطلْيَه ارثاشاسترة » ، ونقلت فقرات متعددة منـــه ، وبذلك تكون الحكايات قد ظهرت بعد هذا الكتاب ، وان لم يقطعوا بتاريـــخ

محدد لظهوره . والأمر كله يعتمد على الظن والترجيح ، ومهما يكن من شيء فقد وضع ذلك الكتاب بين عامى ١٠٠ ق . م و ٥٠٠ م .

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا المقام أن العالم لم يعرف البنجاتنترا من نسخته السنسكريتية الأصلية ، انما عرفه عن الترجمة البهلوية التى ظهرت في القرن السادس الميلادى ، والبهلوية كما نعلم لغة فارسية قديمة ، والراجح أنها نقلت عن النص السنسكريتى مباشرة ، وقد ضاع هذا النص للأسف الشديد . ويقال ان الناقل طبيب فارسى اسمه برزويه ، كما ورد في كتاب «كليلة ودمنة» . ومما يؤسف له أيضا أن الترجمة البهلوية لم يعد لها وجود .

وهناك ترجمة سريانية نقلت عن البهلوية قام بتبعاتها رجل يدعى بود . عام ٥٧٠ م ، وهى أقرب الى النص البهلوى وتكاد تكون معاصرة له . وعُنى بها بعض الدارسين الأوربيين المحدثين وحققوها وترجموها الى الألمانية ، وذهبوا الى أنها أقرب الى الأصل السنسكريتى من سائر الترجمات والنقول ، وجاء ابن المقفع فنقل كتاب « كلية ودمنة » عن البهلوية أيضا الى اللغة العربية عام ٧٥٠ م ومن الواضح أنه استعار عنوان الكتاب من اسمى اثنين من بنات آوى، عرفا في الأصل السنسكريتى باسمى كرطاكه ودمنكه . وأخملت هذه الترجمة العربية ما عداها ، وهى التى يعود الفضل اليها في انتشار هذا الضرب من الحكايات شرقا وغربا على مدى التاريخ بعد ذلك .

وكل من يحاول تقويم الأدب العربى لا يستطيع أن يغفل كتاب كليلةودمنة، الذى اقترن باسم عبدالله بن المقفع ، وهذا الكتاب يتسم بفضيلتين :الأولى أنه من أوائل النصوص النثرية المطولة في تاريخ الأدب العربى ، لأنه انما ترجم في غضون القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ، والثانية أنه جنس أدبى يكاد يكون متفردا في عصره ، وهو جنس يختلف عن المألوف وقتذاك من الخطب والوصايا والرسائل . ومع التسليم بوجود الفن القصصى في الآداب العربية ، فان الأمثال التى ترتكز على موارد من حكايات الحيوان لم تجمع في صعيد واحد ، كما هو الحال في كتاب كليلة ودمنة . ومن أجل ذلك حظى الكتاب بشهرة واسعة في

العالم العربى ، وعـد من الأصول التى ينبغى أن يلم بهـا الأدبـاء والعلماء ، وتعددت مخطوطاته وانتشرت في أرجاء الوطن العربى الكبير . وعن هذا الكتاب عرف الأوربيون الجنس الأدبى ، الذى يستهدف التهذيب والتعليم وصقـل الموهبة الأدبية ، والذى يتوسل بحكايات الحيوان . ويستطيع الباحث أن يرجح بأن الغرب لم يتصل بالبنجاتنترا أو الأسفار الخمسة ابان القرون الوسـطى ، وفي عصر النهضة وما تلاها الا عن طريق الترجمة العربية . وكان تأثر الغربيـين بترجمة ابن المقفع أعظم من تأثرهم بالمعارف الفلسفية ، وذلك لأنهم اتصلـوا بفلسفة اليونان ، عن طريق العرب ، ثم اغترفوا من هذه الفلسفة ، معتمدين على أصولها اليونانية بعد ذلك . أما القصص الهندى الذى يشخص الحيوان لأهـداف عملية وأدبية فقد عرفـوه وتذوقوه وأفادوا منه بوسـاطة الوثيقة العربيـة ، ولم يتجاوزوها — فيما نرجح — الى الأصل السنسكريتى الا في هذا العصر الحديث. ومع أنهم نقلوا الأسفار الخمسة الى الألمانية عبر البهلوية ، فانهم لم يلتفتوا الى هذه الترجمة ، وانما عولوا في التذوق والدراسة على كتاب « كلية ودمنة » العربى .

ومن العسير أن يتتبع المرء الترجمات الكثيرة لهذا الكتاب ، وحسبه أن يذكر أن النص العربى قد ترجم في القرن الحادى عشر الميلادى الى اللغة اليونانية على يد رجل يدعى سيميون سيث ، وعن هذه الترجمة نقل في القرن الثـانى عشر أو الثالث عشر الميلاديين الى اللغة السلافية القديمة (البلغارية القديمة) . وعـن الترجمة اليونانية أيضا نقل هذا النص العربى الفذ الى اللاتينية والايطالية ، وتم ذلك في مراحل متأخرة ، ثم ترجم الى الألمانية في القرن الثامن عشر .

ومن المشهور أن كتاب كليلة ودمنة قد ترجم في القرن الثالث عشر الميلادى الى اللغة الاسبانية القديمة ، ونقل الى العبرية في القرن الثانى عشر أو الثالث عشر ، ونسبت هذه الترجمة الأخيرة الى حاخام يهودى يدعى جوئيل ، ولم يقطع العلماء بنسبة هذه الترجمة اليه . ولقد ذاعت هاتان الترجمتان ، ولما جاء عصر الطباعة كانا من أوائل الكتب التى اتسع مجال الافادة منها بطبعها ونشرها ، وهمـا متقاربتان ، في المضمون ، وتنطقان بأنهما ترجمة تكاد تكون أمينة للنص العربى.

وعن الترجمة العبرية نقل كتاب كليلة ودمنة الى اللغة اللاتينية ، ونهض بهذه الترجمة جون المنسوب الى مدينة كابوا (جون اف كابوا) ، ولقد حظيت هذه الترجمة بشهرة واسعة في القرون الوسطى ، وكانت من أوائل الكتب التى طبعت ونشرت عام ١٤٨٠ وأعيد طبعها مرارا في العصر الحديث . ونقلت الى لغات أوروبية متعددة منها الألمانية والإيطالية ، وعن الترجمة الإيطالية نقل الكتاب الى الانجليزية على يد سيرتوماس نورث ، ونشر عام ١٥٧٠ وأعيد طبعه عام ١٦٠١ . وهكذا يستطيع الباحث أن يقرر أن أول ترجمة انجليزية لكتاب كليلة ودمنة انما ظهرت لأول مرة مع فجر الأدب الانجليزى في عهد الملكة اليزابث الأولى . ومن الطريف أن نسجل هنا مشاق الرحلة التى يقطعها كتاب مثل البنجاتنترا عبر الزمان وعبر المكان ، فقد ترجم إلى الانجليزية عن ترجمة إيطالية ، عن ترجمة لاتينية ، عن ترجمة عبرية ، نقلت عن النسخة العربية ، التى نقلت بدورها عن نسخة بهلوية ، لم يعد لها وجود ، عن الأصل السنسكريتى للبنجاتنترا ، وهو الأصل الذى جد العلماء في سبيل البحث عنه . وثمة ظاهرة شغلت العلماء ، وهى انفصال حكاية أو عدد قليل من الحكايات عن ذلك الأصل الأدبى المتكامل . وحسبنا أن نسجل وجود حكايتين اثنتين لهما أهمية خاصة في التتبع والدراسة لأن لهما نظيرين في الخرافات المنسوبة الى ايسوب.

وأولى هاتين الحكاتين هى حكاية حمار في جلد نمر وهى الحكاية الأولى من السفر الثالث من البنجاتنترا . والثانية حكاية حمار بلا قلب وبلا أذنين وهى الحكاية الأولى من السفر الرابع من البنجاتنترا أيضا . والضحية في هاتين الحكايتين حمار . ومن المعروف أن هذا الحيوان يجسم في الحكاية الهندية الشهوة الجنسية وهذه الصفة استغلت ببراعة فائقة في هاتين الحكايتين . فهذا هو الحارس يرى الحمار وقد اكتسى جلد نمر في الظلام ، فظنه نمرا وبادر الى التسلل من المكان ، وأخفى نفسه في عباءته الرمادية . واختلط الأمر على الحمار فخال الحارس واحدة من بنات جنسه ، وانطلق يطاردها ، وكان سمينا يحترق بنيران الشهوة ، وما كان من الحارس الا أن أطلق ساقيه للريح . وعندئذ رأى الحمار أن يطمئن ابنة جنسه المزعومة بالنهيق الذى جعل الحارس يكتشف حقيقة أمره .

ونجد في السفر الرابع حكاية أخرى استغل فيها ما يعرف عن الحمار من الشبق الجنسي ، وقد وعد ابن آوى الحمار بأن يقدم له ثلاثا من اناث الحمير « لم تشاهد مثلهن من قبل ، ويتألقن بنضرة الشباب » . ويقفز الأسد على الحمار ولكنه يعجز عن اقتناصه . ويحاول ابن آوى من جديد الايقاع بالحمار ويقنعه بأن هذا الحيوان الكبير ، والذى بدا له غريبا ، ليس الا أنثى حمار « لم تشاهد مثلها من قبل » وأنها كانت جد مشوقة الى أحضانه فقفزت عليه ، « ولكنك كنت من الجبن بحيث فررت منها ولم تستطع أن تحتمل العيش بدونك ، ولما رأتك تفر من أمامها مدت يدها لكى توقفك » . ولم يستطع الحمار أن يقاوم هذا الاغراء الجديد وقفل راجعا الى مصيره المحتوم . وفي نسخة أخرى من البنجاتنترا نجد أن الحمار يرتدى جلد أسد لا جلد نمر . والحكاية في هذه النسخة أضعف منها في الأولى ، ذلك لأن الحمار يبادر الى النهيق فزعا عندما رأى جمعا من الناس يهاجمونه ، وقد ظنوه أسدا ، ويفطن قروى الى أنه حمار . وليست في هذه الحكاية اشارة الى ما عرف عن الحمار من الشبق الجنسي .

وليس من شك في أن هذه الحكاية هي التى شاعت في الخرافات اليونانية واللاتينية باسم حمار في جلد أسد ، وهناك حوالى ست حكايات من هذا القبيل لعل أقدمها ما رواه لوسيان (في القرن الثانى الميلادى) وهذا ما يجعلها معاصرة تقريبا للبنجاتنترا . وترد كذلك في نسخة بابريوس اليونانية (القرن الثالث الميلادى) وفي خرافات أفيان اللاتينية المتأخرة .

وفي خرافات ايسوب باليونانية واللاتينية لا نجد الا جلد الأسد ولعل اليونان استبدلوا بجلد النمر جلد الأسد لأنه أظهر .

ولا يجد الباحث في أية نسخة يونانية تفسيرا يُطمأن إليه لارتداء الحمار جلد الأسد . ونحن نذكر أن الغسالين اعتادوا أن يحملوا الملابس على ظهور الحمير . ولا نجد الا في نسخة يونانية متأخرة ، ما يشير إلى أن الحمار يفضح نفسه بالنهيق ، وهى سمة موجودة في جميع النسخ الهندية .

ويذهب الثقات في دراسة الخرافات إلى أن حكاية الحمار بلا قلب ولا أذنين لا توجد الا في خرافات ايسوب اليونانية لبابريوس (القرن الثالث الميلادى)، وهى مختصرة اختصارا مخلا، على الرغم من أنها مستقاة من الأصل نفسه. وفي هذه الحكاية أسد مريض تنازعه رغبة عارمة في الحصول على قلب غزال ولا ذكر للأذنين فيها، فيطلب من صديقه الثعلب (الذى يحل محل ابن آوى في الحكاية الهندية) أن يحضر له غزالا. ويحتال الثعلب على غزال ويزعم له أن الاسد يشرف على الموت وأنه سيجعل منه الخليفة بعده. ويستجيب الغزال، ويقدم على الأسد الذى لم يستطع افتراسه لضعفه، ويفر الغزال. ويعود الثعلب إلى الغزال ويقول له ان الأسد انما يريد أن يهمس في أذنه بوصيته الأخيرة. ويتابع الثعلب حديثه قائلا: « ان الأسد غاضب منك لفرارك، وفي نيته أن ينصب الذئب ملكا بدلا منك. » ويعود الغزال ويلقى مصرعه في هذه المرة.

ويطلب الأسد إلى الثعلب أن يمزق أوصال الفريسة. وبينما هو ماض فيما أمره الأسد به يلتهم قلب الغزال دون أن يحس به الأسد، ويفسر للأسد خلو الجسد من القلب بأن الغزال لو كان له قلب يعقل به لما عاد ثانية.

ولم توضح نسخة بابريوس الفائدة الطبية للقلب والراجح أن الأسد انما كان يرغب في الحصول عليه استجابة لنزوة طارئة فحسب، ولم يرد ذكر للأذنين في هذه النسخة على الاطلاق مع أن النسخة السنسكريتية الأصلية قد حرصت على ذكرهما.

والواقع أن الأصل الهندى كان أقرب إلى المنطق من الحكاية اليونانية لأن اغراء الحمار باشباع غريزة الجنس أقوى من التخييل للغزال بأن الأسد سوف يستخلفه على الملك وكل من يوازن بين منهج البنجاتنترا وبين منهج خرافات ايسوب يستطيع أن يلاحظ بوضوح أن الحيوان في البنجاتنترا يتصرف وكأنه بشر في صورة حيوان وقلما يلتفت إلى صفاته الحيوانية أما في خرافات ايسوب، فان الحيوان يتصرف باعتباره من عالم الحيوان فحسب.

***

وتبرز حكايات كليلة ودمنة ومدى تأثيرها في الآداب الأوروبية من تتبع عدد من القصص عبر الزمان والمكان ، وبخاصة في الآداب الأوروبية ، ومن الشواهد التى تنطق بذلك قصة الناسك وابن عرس . وهى في البنجاتنترا حكاية البرهمى والنمس . ولقد اتضح للباحثين أن الرحلة التى قطعتها هذه القصة متواصلــة بلا انقطاع ، وإن طرأ عليها بعض التعديل في الطريق بتأثير هذه البيئة الثقافية أو تلك ، وهى تصور المخاطر التى تنجم من السلوك المتعجل الطائش . وإذا كانت جميع اللغات تردد المثل القائل إن في العجلة الندامة ، فإن مورد هذا المثل يمكن أن يلخص على الوجه الآتــى :

حدث ذات يوم أن اضطرت زوجة أحد البراهمة الفقراء إلى مغادرة المنزل وعهدت لزوجها بطفلهما . وفي أثناء غيابها استدعى البرهمى إلى قصر الملك لأداء احدى الشعائر . وأذعن المسكين لهذه الدعوة لأنه لم يكن يستطيع رفضها ، إلى ما يمكن أن تدره عليه من صلة هو أحوج ما يكون اليها . وترك الطفل في حراسة نمس أليف وأنصرف ملبيا دعوة الملك . ومن المألوف في الحكايات الهندية استئناس النمس لأنه عدو الثعابين القادر على قتلها . وأقبلت حية من نوع الكوبرا إلى الدار التى خلت من رب الدار وزوجته وتقدمت نحو الطفل . فما كان من النمس الأمين إلا أن انقض عليها وقتلها . ولما عاد البرهمى قفز النمس مهرولا إليه ليلقاه مفاخرا بعمله المجيد ومظهرا إليه فكه ومخالبه الملطخة بدماء فريسته وأخذ يتقلب بين قدمى سيده . ولكن البرهمى ما أن رأى الدم يلطخ فم حيوانه الأليف ومخالبه حتى ظن أنه انتهز فرصة خلو الدار وفتك بالطفل الذى لا حول له ولا قوة ، وفي سورة غضب انقض على النمس وضربه بهراوة غليظة قضت عليه في الحال .

واندفع إلى داخل الدار فوجد الطفل يرقد آمنا مطمئنا ، وإلى جواره الحية وقد مزق جسمها إربا . وأفاق من سورة الغضب وأدرك الحقيقة وتملكه الندم وأخذ يشد شعر رأسه . ويلطم خديه وصدره على ما اقترف ، ولكن هذا كله لا يمكن أن يعيد الحياة إلى الحيوان الأمين .

وهذه الحكاية تماثل قصة الأمير لولين وكلبه جلرت كما رواها وليام سبنسر في منظومته الويلزية ، وفيها صرع الكلب ذئبا تعرض لابن الأمير في غيابه ثم استقبل الأمير عند عودته إلى الدار ودم الذئب يلطخ فمه ومخالبه . وما كان من الأمير الا أن يقتل الكلب في سورة غضبه تماما كما فعل البرهمى[١٦] مع النمس . ثم يكتشف الحقيقة آخر الأمر ويندم ، ولات ساعة مندم . وربما رأى بعض الدارسين أن هذه القصة الأخيرة المروية في أقصى الشمال الغربى من القارة الأوروبية تباين الحكاية الهندية ، وقد يرجح أن تكون تاريخية ، وقد يفترض أن يكون الحدث في القصة واقعيا ، مع الاختلاف بين الشخوص ، ففى الشرق برهمى فقير ونمس وحية ، وفي الغرب أمير غنى وكلب وذئب . ولم يعد هناك مجال للمناظرة التى اشتجرت فترة طويلة بين العلماء والتى اختلفوا فيها حول الأصل الواحد لأمثال تلك الحكايات ، وبين الأصول المتعددة لها ، بيد أن الأصل الواحد لها تثبته عدة حقائق ، أولاها أن الباحث يستطيع أن يتتبع رحلة الحكاية كتتبع قصاص الأثر ، وأن يتبين كل تغيير يطرأ عليها والسبب الذى دفع إليه . . ومن الملاحظ أن البيئة الهندية إنما انتخبت النمس لعداوته الفطرية للثعبان ووضعت الترجمة العربية ابن عرس مكان النمس[١٦]، الذى لم يكن معروفا عند العرب . ولما نقلت الترجمة العربية إلى العبرية على يد جوئيل وضع الكلب في مكان ابن عرس لأن المترجم رأى أن الكلب هو مضرب المثل في الوفاء للانسان . ونحن نجد في الحلقات كاهنا أو قسا وكلبا وثعبانا . ومن المعروف أن هناك ترجمات عربية أخرى مثل حكاية السندباد أو الحكماء السبعة ، غيرت الناسك أو القس وجعلته فارسا ، ذلك لأن من عادة الفرسان أن يجعلوا الكلب أليفا مدللا . وهكذا نجد محاربا أو فارسا وكلبا وثعبانا وقد ثبت من الدراسة أن حكاية السندباد أو الحكماء السبعة انتشرت في ربوع أوروبا ، أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ، وأصبحت تعرف باسم حكماء روما السبعة ، وراجت في كل إقليم من أقاليم أوروبا تقريبا ، بما في ذلك انجلترا وويلز . وتدور كل نسخة أوروبية من هذه الحكاية حول محارب أو فارس وكلب وثعبان . والنسخة الويلزية التى تعود إلى القرن الرابع عشر الميلادى تحتفظ

بالثعبان الذى قتله الكلب ولكن الشعب الويلزى أخذ يحور الحكاية في العصور الوسطى المتأخرة ووضع الذئب في مكان الثعبان ، والراجح أن الباعث على ذلك هو ما تصوره الشعب من أن الذئب هو العدو التقليدى للكلب . وهكذا أصبحت الحكاية حلقة من حلقات المأثور الشعبي في ويلز واختفى الثعبان وحل الذئب محله . ومن المقطوع به أن الشخصيات كانت نمطية لا تتعين اسماؤها . ولقد أوضح أحد المؤرخين كيف ومتى أصبح الأمير للوين بطلا لهذه الحكاية وأكد أنه كان شخصية تاريخية وكان له كلب صيد أسماه جلرت . ولكن الرواية التاريخية تذهب إلى أن هذا الكلب نفسه قد مات ميتة طبيعية بسبب الاجهاد المفرط في رحلة صيد . ويعود الخلط بين هذا الأمير وكلبه وبين الحكاية الشعبية إلى خطأ صاحب خان ، ومن اليسير أن يثمر تداعى الأحداث في الذاكرة مثل هذا الخطأ في الآداب المروية والشعبية . ويحدد الدارسون الخلط بأنه إنما حدث عام ١٧٩٣ أوعام ١٧٩٤ أى قبل أن ينشر وليام سبنسر منظومته بست أو سبع سنوات . ويضاف إلى ذلك أن وليام سبنسر زار صاحب الخان الذى ينسب الخلط إليه قبل أن يذيع منظومته مباشرة . وبذلك تتضح خطوات الحكاية من البنجاتنترا إلى ويلز في أقصى الشمال الغربى من أوروبا مارة بمعالم العربى والاسلامى والمسيحى في القرون الوسطى .ومن المقطوع به أن الترجمة العربية كليلة ودمنة هى صاحبة الفضل الأكبر في هذه العالمية التى حظيت بها موارد الأمثال وغيرها من الحكايات الشعبية الهندية .

ولقد كان المعنيون بالآداب المقارنة يعتمدون على وثائق أدبية مدونةومحققة ، وقلما اعتمدوا على الآداب الشعبية التى تعيش وتنتشر عن طريق الرواية الشفوية فحسب ، ولكنهم في العصر الأخير اقتنعوا بأن المرويات الشعبية الأصيلة والمسجلة من بيئاتها الاجتماعية والثقافية ترقى إلى مرتبة الوثائق التاريخية والأدبية . ومن أجل ذلك اتخذت الأسفار الخمسة السنسكريتية مكانة لها خطرها في مجال تاريخ الأدب المقارن ، إلى جانب أهميتها الكبرى في الفولكلور . إليها يعود الفضل في تبديد الفكرة القديمة ، والتى لاتزال تخيم على بعض العقول للأسف الشديد ، وهى أن الفولكلور محلى وجامد أو أثرى ، وأن كل قيمته

تنحصر في طرافته أو غرابته أو دلالته على ظاهرة منقرضة . ولم يعد هناك شك الآن في أن الآثار الأدبية والفنية التى تتسم بالعالمية كثيرا ما استمدت عناصرها من الفولكلور. والحياة الانسانية انما تتسم بالتواصل وتبادل التأثر والتأثير باستمرار وهذا كتاب كليلة ودمنة الذى يقترن باسم عبدالله بن المقفع ، والذى ترجم عن البهلوية ، يعد من الأدب الرفيع بين المتوسلين باللهجة العربية الفصحى . . أن أصله العريق يرتبط بالجماعة والشعب ، وقد تناثرت وحداته عبر العصور والبيئات متوسلة مختلف اللغات واللهجات . وما من ثقافة رسمية أو شعبية الا وهى تنتظم أكثر موارد الأمثال التى استوعبتها الأسفار الخمسة أو تضمنتها أبواب كليلة ودمنة مع التسليم بالتطور الذى يمليه ذوق العصر وثقافة البيئة وأسلوب الناقل .

وليس من غرضى أن أفيض في الحديث عن كليلة ودمنة ، وهو حلقة الاتصال ووسيلة الانتشار بين العصور والبيئات واللغات ، وحسبى أن أشير إلى وجوه الاتفاق والاختلاف بين الأصل الهندى وبين النص العربى ، وأن يجد الذين تزودوا بحكمة كليلة ودمنة وأسلوبه بين أيديهم الأصل الهندى ، الذى يعد في الوقت نفسه من روائع الأدب في العالم . ومما له دلالته الكبيرة ، ولا يستطيع الباحث أن يغفله بحال من الأحوال ، أن الأصل السنسكريتى انما كان موجها إلى أمراء يفتقرون إلى الفطنة ورجاحة العقل .

أما كليلة ودمنة فأحاديث موجهة إلى أحد الملوك ، لكى يعتصم بالوسط الذهبى في السلوك ، وألا يندفع إلى التهور والشطط ببساطة الحكايات والأمثال المستخلصة منها . وهذا التطور يشبه ، بل يطابق الحكاية المحورية في كتاب ألف ليلة وليلة ، وهى المجموعة القصصية العربية ، التى كانت بمثابة البؤرة ، تتجمع فيها حكايات العالم . ، ثم تنعكس بعد ذلك عن طريق الشعب العربى الى أوروبا متناثرة حينا ومجموعة بهذه اللغة أو تلك أحيانا . وكانت وظيفة الحكاية المحورية أن يعتصم أحد الملوك بالوسط الذهبى أيضا فيلتزم الاعتدال ، ويبرأ من التهور والشطط والظلم .

وخير ما أختم به هذه المقدمة الموجزة لكتاب البنجاتنترا أو الأسفار الخمسة أو خزائن الحكمة الخمسة هو أن هذه الوثيقة الأدبية النفسية ترد بذاتها على أولئك الذين لا يزالون عاجزين عن الاقتناع بتبادل التأثر والتأثير في الفكر والفن بين الأفراد والجماعات ، مهما اختلفت الطبقات والبيئات واللغات والعصور .

مدخل

إلى مانو . . إلى فاكسباتى . . إلى شكرا . . إلى براشرا وابنه وإلى كانيكيـــا الحكيم[1] . . إلى كل هؤلاء الذين صنفوا كتبا في علم تدبير الملك نقدم أصدق آيات الاخلاص والخشوع .

لقد أحاط فصنوشرمان بلباب كل الكتب التى تناولت علم تدبير الملك في العالم ، وألف بدوره رسالة تأخذ بالألباب ضمنها هذه الأسفار الخمسة .

وها هو ذا نصها :

يحكى أنه كانت هناك مدينــة تدعــى مهلاروبيا في الاقلــيم الجنــوبى وكان يقيم بها ملك يدعى أمارشكتى[2] . وكان كريما مثل شجرة الرغبــات لايرد سائلا . وكانت قدماه تتألقان بسيل من الأشعة المتلألئة الصادرة من مجوهرات تيجان الملوك النبلاء الذين ينحنون أمامه اجلالا له وكان بارعا في كل الفنــون متضلعا في علم تدبير الملك . وكان له ثلاثة أولاد ، هم فسوشــكتى وأجرشكتى وأنكاشكتى[3] وكانوا أغبياء لا يفقهون شيئا . وعندما رأى الملك أنهم يجهلون مبادئ علم السياسة استدعى وزراءه وتشاور معهم في هذا الأمر وقال : أيها السادة . . انكم تعلمون أن أولادى هؤلاء أغبياء لا يفقهون شيئا . فأى فائدة في

---

(١) مانو المؤلف المشهور لكتاب القانون الهندى ذائع الصيت وفاكسباتى « رب الكلام » وهو لقب أطلق على برهسباتى معلم الآلهة ، وشكرا ، معلم الشياطين أو الأسورا (أى الأسر الحاكمة فى الهند القديمة ، وبراشرا كان والد فياسه ، الذى اشتهر بأنه جامع أناشيد الفيدا والمهابهارته ، أما كانيكيا فهو وزير الامبراطور المشهور كندرجوبته والمؤلف ذائع الصيت لكتاب كوطليه ارثشاستره وهو كتاب يتناول أصول « علم تدبير الملك » .

(٢) قوة الالـــه

(٣) أى قوة الاله والقوة الرهيبة والقوة المتشعبة .

أن يرزق المرء ابنا إذا كان مجردا من الحكمة والفضيلة ؟ وماذا يستطيع انسان أن يصنع ببقرة لا تدر لبنا ولا تلد عجولا ؟

خير للحياة أن تجهض ، خير للمرء ألا يباضع امرأة في الفصول المناسبة ، وخير له أن يرزق با بن يولد ميتا ، أجل من الأفضل لو رزق المرء ابنة ، أو كانت امرأته عاقرا . أو أن يصبح شريدا يتسول قوت يومه ، من أن ينجب ولدا غبيا حتى لو كان وسيما غنيا قوى البنية . فبأي وسيلة اذن نشحذ ذكاء أولئك الأبناء الثلاثة ؟ فأنبرى بعض الوزراء يقول : من المعروف يا مولانا أن دراسة قواعد النحو في اللغة السنسكريتية تحتاج الى اثنى عشر عاما ، اذاتيسر للطالب أن يحيط بها الى حد ما ، ولابد له بعد ذلك من الدراسة المنهجية للدين وعلم تدبير الملك والحب[1] ومن ثم فان هذه مهمة تشق حتى على الأذكياء فكيف بالأغبياء ! وفي مثل هذه الأمور لا يوجد غير برهمي يدعى فصنوشرمان يحيط بكل صغيرة وكبيرة من علم تدبير الملك وقد طبقت شهرته الآفاق على يد تلاميذه العديدين . فهلا استدعيته وتركت له أمر تعليم الأمراء » . وحظيت هذه الفكرة بالقبول فاستدعى وزير فصنوشرمان ، فحضر وحيا الملك بالسلام المأثور عن البراهمة وجلس . وقال له الملك بعد أن اطمأن في مجلسه « أيها البرهمي هلا صنعت معي معروفا ولقنت هؤلاء الأمراء الجهلاء علم تدبير الملك حتى لا يبزهم فيه أحد وسوف أجزل لك العطاء وما فرغ الملك من كلامه حتى نهض فصنوشرمان وقال للملك : مولاى ، اسمع صوتى جهوريا كزئير الأسد[2] وأنا لا أقول هذا لأنى امرؤ يطمع في المال . لقد بلغت من العمر ثمانين عاما وتبلدت حواسي وفات الأوان الذى يستمتع فيه الانسان بالثروة . ولكننى سوف أضطلع بهذه المهمة لتكون بمثابة الامتحان لبراعة التفكير ولكى أقدم لك يد المساعدة وأرجو أن تأمر بتسجيل تاريخ يومنا هذا ،واذا لم أتمكن في خلال ستة شهور من أن أجعل أبناءك متضلعين في علم تدبير الملك فلك يا مولاى أن

---

(١) يرى الهنود أن هذه الموضوعات الثلاثة تضم كل مايتمناه الانسان وهم يدرجون تحت اسم ارثا النجاح فى الدنيا بكل انواعه .

(٢) تعبير دارج فى الهند يقوله الرجل المنتصر الواثق بنفسه .

تلقى بى من الباب[1] وأن تقصيني عن البلاد مسافة مائة هاستا[2] . وعندما سمع الملك ووزراؤه البرهمي يقطع على نفسه هذا العهد الذى لا يصدق تملكه شعور من الفرحة والدهشة معا وسلم الأمراء الى فصنوشرمان بكل رعاية . وشرع الأخير في تلقين أبناء الملك علم تدبير الملك في صورة حكايات ألّف من أجلها هذه الأسفار الخمسة وعناوينها : التفريق بين صديقين ، وكسب الأصدقاء، وحكاية الغربان والبوم (أو الحرب والسلام) والخسران ، والعمل الطائش .

[وهنا تنتهى المقدمة] .

---

(١) أو حرفيا الى عرض الطريق .

(٢) مقياس للطول يبلغ حوالى ١٨ بوصة . ويبدو أنه كان يجب ذكر مسافة أطول الا اذا كان يقصد بهذه الكلمة السخرية وهو أمر بعيد الاحتمال .

السفر الاول

التفريق بين صديقين او الاسد والثور

الآن يبدأ هذا السفر الأول وعنوانه : التفريق بين صديقين ، وها هى منظومة الاســتهلال .

يحكى أن أسدا وثورا في غابة نشأ بينهما حب عظيم أخذ ينمو على الأيــام ، فقضى عليه ابن آوى حقود طماع . فقال أبناء الملك : وكيف كان ذلك ؟ فروى فصنوشرمان هذه الحكاية :

كانت هناك مدينة تدعى مهيلاروبيا في الاقليم الجنوبى ، وكان يقيم بها تاجر يدعى فرذمانكه[1] ، كسب ثروة طائلة بوسائل مشروعة . وخطرت له يوما هذه الفكرة : لابد من أن أنمى ثروتى وان كانت ثروة طائلة ، فقد قيل : عندما يكون المرء صفر اليدين فعليه ، أن يسعى للحصول على الثروة ، فــاذا حصل عليها فلابد من أن يصونها ويحرص عليها ، وإذا صانها فعليه أن يعمــل دائما على تنميتها فاذا ما بلغ الغاية في تنميتها فعليه أن يهبها لمن يستحقها من الناس. عليك أن تحصل على الثروة عندما تكون صفر الدين ، وأن تصونها عندماتحصل عليها وأن تنمى ما صنته ، وأن تهب ما نميته لمن يستحق من الناس[2] . هــذا ما قيل لنا أن نفعله ، وهذا هو النهج الذى يجب أن يكون رائدنا في الحياة الدنيا. فالمرء إذا لم يحصل على الثروة يكون من المعدمين . بل إنه حتى لو حصل عليهــا فانها سرعان ما تتعرض للضياع اذا لم يصنها لأن الأخطار الكثيرة تكتنفها من كل جانب، واذا لم يعمل المرء على تنمية ثروته فانها سرعان ما تتبدد كما يتبددالكحل

(١) أوفرذمانه ومعنى الاسم على وجه التقريب « مقتصـــد »

(٢) هذه الفقرة منقولة من كتاب اسمه كوطيليه ارثشاستره وهو سفر عن « علم تدبير الملك » ينسب الى كانيكيـــا

من العين، ولو اقتصد في انفاقها، ومع هذا كله فإنها إذا لم تنفق في وقت الضرورة فالحصول عليها وعدم الحصول عليها سيان . ومن هنا وجب على المرء أن يصون ما حصل عليه وأن ينميه وينفقه . وقد قيل « ان توزيع المرء للسلع التى في حوزته هو الوسيلة الحقة الوحيدة لصيانتها . انه أشبه ما يكون ببالوعة لمياه حبيسة في جوف بركة .

وبعد أن فكر التاجر على هذا النحو ، جمع حملا من السلع ليبيعها في مثورا . وانطلق من المدينة في رحلة للتجارة ، في يوم مبارك سعيد ، بعد أن ودع كبار أفراد أسرته . وأمر بتسريج ثورين في عريش عربته ، وكان اسماهما نندكا وسمجيفكا[1] ومضى في طريقه حتى وصل الى موضع في غابة عظيمة ، فيه شلال جبلي تساقط مياهه ، وتنحدر من مسافة كبيرة فتكون بطيحة موحلة . وشاء الحظ العاثر أن يتوقف أحد هذين الثورين سمجيفكا عند البطيحة الموحلة لاصابته في ساقه . ولما كانت شحنة العربة ثقيلة جدا ، غاص في الوحل وحطم النير . ولما رآه التاجر فرذمانكه على هذه الحال تملكه ضيق شديد ولبث ينتظر ثلاثة أيام سويا ، الا أن الثور لم يسترد عافيته ، فما كان منه الا أن عين له الحراس واستأنف رحلته في بقاع غريبة عليه كما كان قد دبر من قبل ، اذ أدرك أن الغابة محفوفة بالأخطار ، وأراد أن ينقذ القافلة . وفي اليوم التالى اقتفى أثره الحراس الجبناء الذين كلفوا بالسهر على الثور وقالوا له كذبا : أيها السيد ، لقد مات سمجيفكا هناك وأحرقنا جثته وقمنا نحوه بطقوس الدفن الأخرى . وعندما سمع التاجر بالخبر قدم القرابين للميت اعترافا بالجميل (لما أداه الثور من خدمات) وتكريما له ، ثم استأنف رحلته . ولكن سمجيفكا كان لايزال على قيد الحياة ، ولم يكن أجله قد حان بعد فلقد أنعشت الرياح الباردة الممتزجة برذاذ الماء (المتساقط من الشلال) جسده ، فتحامل على نفسه للنهوض ، وشق طريقه على مهل الى ضفة نهر جوما وأكل هناك أطراف العشب الزمردية وهام على وجهه حرا طليقا . وما هى الا أيام قليلة حتى استعاد عافيته وأصبح جسمه

---

(١) ومعناها على وجه التقريب « المبتهج » و « الطروب » .

ربلا واسترد قوته وأضحى سنامه سمينا مثل سنام ثور شيفا . وظل هناك يفتح كل يوم قمم تلال النمل بضربات من قرنيه المدببين ويخور بصوت عال .

وكان في تلك الغابة ، وفي موضع لا يبعد كثيرا ، أسد يدعى بنجلكه[1] ، تقوم على خدمته جميع الوحوش ، وينعم في الغابة بثمار مملكته التى اكتسبها بجرأته ، ويرفع رأسه عاليا ، ولا يتطرق الخوف الى قلبه . وقد قيل :

يعيش ملك الوحوش وحيدا في الغابة ، لا يحمل شعارات السلطان ، ولا يعرف شيئا عن فن تدبير الملك . ومع ذلك فانه وهو ذو الهمة العالية يستحق عبارات المديح التى تكال له وتنادى به ملكا بحق .

ولم تتوج الوحوش الأسد ولم تقم له الطقوس المناسبة لذلك ، لأنه إنما حصل على سلطانه بفضل جرأته فحسب ، ومن الطبيعى أن يسعى إليه منصب ملك الوحوش حثيثا .

واتفق أن أحس الأسد يوما بالظمأ فانطلق الى شاطئ نهر جوما ليروى غلته . وبينما هو في موضع بعيد عن النهر سمع خوار سمجيفكا ، وكان يختلف عن جميع الأصوات التى سمعها من قبل ، وخيل اليه أنه أشبه ما يكون بصوت هزيم الرعد . . صوت غير معقول لا يصدر الا عند فناء العالم . وعندما سمعه تملك الرعب قلبه ووقف ساكنا لا يحير حراكا ولم يجرؤ على أن يطفئ ظمأه . بيد أنه حاول أن يخفى أى بادرة تنم عن خوفه ، ولبث بجوار شجرة التين القائمة في الدوائر ، واتخذ وضع الدوائر الأربعة[2] دون أن ينبس ببنت شفة . أما وضع الدوائر الأربعة فهو كما يلى : الدوائر الأربعة وهى الأسد وحاشيته

---

(١) أى الأصحم

(٢) لاشئ يعرف عن هذه « الدوائر الأربعة » اللهم الا مايظهر فى هذه الفقرة . والظاهر أنها تدل على طبقات اجتماعية بين سكان مملكة الأسد . ويتصور على الأرجح أنها تقابل بطريقة غامضة الطوائف الأربعة للمجتمع الهندى ، على الرغم من أن التطابق أبعد من أن يكون كاملا . والكلمتان كاكرفات وكفرتات (« له صوت غراب ») ولمرفة « ماهو المصير » وربما جماعات متعددة » فغامضتان تماما فى الاستعمال .

والكاكرفات والكمفرتات . والأسد وحده بين هؤلاء هو الحاكم على كل موضوع بالبلاد — من قرى وبلدان ومدن ومحلات ومزارع ودساكر جبلية ومتنزهات وقرى أقطعت لبراهمة وغابات وأحراج . وهناك عدد معين من حاشية الأسد من أصحاب المناصب وجماعات الكاكرفا هي الطبقات الوسطى أما الكمفرتات فهي بالطبع الطبقات التي تشغل مراكز أخرى . وكان لهذا (الأسد) وزيران من بنات آوى شغلا منصبيهما بالوراثة وهي كرطاكه ودمنكه[1] . وتشاور الاثنان معا وقال دمنكه اذ ذاك لكرطاكه : ياصديقي كرطاكه لقد انطلق مولانا بنجلكه ليشرب ، فلماذا توقف هنا ؟ فقال كرطاكه وما شأنك أنت بهذا ؟ لقد قيل : ان من يحاول أن يشغل نفسه بما لايعنيه يلقى مصرعه مثل القرد الذى انتزع الوتد . فقال دمنكه : وكيف كان ذلك ؟ : فقال الآخر :

الحكاية الاولى

القرد والوتد

يحكى أن أحد التجار كان قد شرع في بناء معبد بالقرب من مدينة في أحد الأقاليم . وانصرف البناءون وغيرهم من العمال الذين كان يستأجرهم في وقت الظهيرة لتناول طعام الغذاء . وفي غضون ذلك كان أحد العمال قد شق عرقا من خشب الأرجونا . وتركه مشقوقا ووضع فيه وتدا من خشب الخديرة ، دقه فيه بطريقة آلية . واتفق أن أقبل الى البقعة جمع كبير من القردة التي تسكن في الغابة وبدأت تلعب وترتع هنا وهناك، بين قنن الأشجار وأبراج المبانيوأكداس الخشب . وبينما القردة منهمكة في هذا اللعب تسلق أحدها ، فوق عرق الخشب ويبدو أن هذا القرد قد حانت منيته ، فأخذ يتصرف بطريقة تنم عن غبائه ، فوقف فوق الوتد وقد تدلت خصيتاه من الشق : وقال : من دفع هذا الوتد الى

---

(١) الاسم دمنكه يعني شيئا مثل « المنتصر » أما كرطاكه فلعل معناه « ذو العواء المخيف » .

مكان غريب عليه ؟ وأمسك به وبدأ يجذبه بيديه . أما ما حدث عندما تزحزح الوتد من مكانه ، فأنت تعرفه ولا داعي لأن أرويه لك .

[نهاية الحكاية الأولى]

ولهذا أقول : العاقل هو من يعرض عما لا يعنيه . وعاد يقول : إنك لا تستطيع أن تنكر أن لدينا ما يكفينا من الطعام من فضلات (الأسد) . فقال دمنكه : وكيف ترضى يا سيدى بالكفاية من الطعام فحسب ؟ انك تعرف أنه ما من أحد يلتحق بخدمة سيد معظم الا لكى يحصل على مغنم ، وهذا ما عبر عنه جيدا المثل القائل : انما يسعى العقلاء الى خدمة الملوك لمد يد العون الى أصدقائهم والحاق الأذى بأعدائهم . ومن ذا الذى يعجز عن اشباع بطنه ؟

لا يستحق العيش الامن تتوقف على حياته حياة الكثيرين . ألا يملأ طائر الكركى جوفه بمنقاره ؟ وقد قيل أيضا :

ان عظمة قذرة من عظام البقر يسيل لها لعاب الكلب ولو خلت من أثر اللحم ، ولم يبق عليها سوى فضلات من الأوتار والدهن ، وهى مع ذلك لا تكفى لاخماد سورات جوعه . وان الأسد ليترك ابن آوى وهو في متناول قبضته ويضرب الفيل ليصرعه . وما من انسان ، حتى في أشد أوقات الضيق الا هو يتطلع الى المغانم التى يرى أنها تكافئ اقدامه .

عندما يقذف أحدهم بكسرة الى كلب ، فانه يبصبص بذنبه ويتمرغ عند قدمى (من أعطاه اياها) ويتلوى على الأرض ويدير وجهه وبطنه نحوه . أما الفيل النبيل فانه يحتفظ بوقاره ولا يرضى أن يتناول علفه الا بعد أن يتملقه الغير .

لا ينعم في هذا العالم بالعيش سوى من يكسب قوته بالحيلة أو الجرأة . فالكلب يستطيع أن يحصل على كسرة عندما يبصبص بذنبه . والحكيم يقول ان الحياة حقا في هذا العالم انما هى التى يعيشها صاحب الفضل على أهله واخوانه ولو كان ذلك لأمد قصير ، يتمتع فيه بالشهرة ، ولا تعوزه الحكمة أو الجرأة أو المجد . ألا ترى أن الغراب يعيش عمرا مديدا ينعم فيه بالتهام ما يلقى اليه من طعام .

من اليسير ملء نهير صغير ومن السهل ملء مخالب فأر ومن الهين ارضاء رجل قنوع فمجرد شئ تافه يرضيه . انه لا يعرف كيف يميز بين الخير والشر ، ان على عقله غشاوة تحجبه عن معرفة كثير من الشعائر التي نصت عليها الكتب المقدسة . وهو لا هم له إلا ملء بطنه، انه من البهائم فأى فرق بين وحش بمعنى الكلمة ووحش في صورة انسان ؟

ان الثور النبيل ليجر عربات ثقيلة ولا يأكل الا العشب (ولا يأكل اللحم) وهو يسحب المحراث فوق الأرض الصلبة واللينة على السواء . وهو خير وبركة للناس وأصله طاهر وهذه المزايا تجعله يفضل وحشا في صورة انسان .

فقال كرطاكه : ولكننا كما ترى لسنا من أهل المنزلة فما شأننا بهذا ؟

فقال دمنكه : أيها الصديق ان المرء يستطيع أن يكون من أهل المنزلة في وقت قصير ، وقد قيل ان المرء لا يكون نبيلا أو خسيسا في هذا العالم بفضل سلطان أى (أمير) . ولا فضل لانسان على آخر في هذا العالم الا بعمله ، فهو كفيل بأن يرفعه الى منزلة عالية أو يخفضه الى منزلة وضيعة .

مثل الارتفاع الى المنزلة الرفيعة والانحطاط الى المنزلة الوضيعة مثل حجر يرفع بجهد عظيم الى قمة التل ويد حرج الى سفحه بلا جهد يذكر .

ولهذا تأكد يا صديقي ان كل امرئ بما كسب رهين . فقال كرطاكه : حسن ، ماذا انتويت أن تفعل في هذا الأمر ؟ فقال : من الواضح أن مولانا الأسد بنجلكه جبان وكذلك أتباعه وأنه ضعيف الرأى . فقال الآخر وما يدريك أنه كذلك يا سيدى ؟ فأجاب دمنكه : من اليسير أن أعرف هذا فقد قيل :

إن الحيوان الأعجم يدرك بالحس معنى ما يعبر عنه أمامه والجياد والفيلة تتحرك استجابة لفرقعة السوط والرجل ذو الرأى يتكهن بما في باطن صاحبه ، لأن ذكاء المرء يتجلى في ادراك ما يظهر له من هيئة غيره وشكله .

ولهذا سوف أمسك بتلابيبه وهو في هذه الحالة من الرعب وأضعه اليوم تحت سلطاني بفضل ما وهبت من ذكاء شديد .

فقال كرطاكه : وكيف تضعه تحت سلطانك أيها الصديق وأنت لا علم لك بخدمة الملوك ؟ » فاجاب دومنكه كيف تقول إني لا علم لي بخدمة الملوك أيها الصديق؟ إن باعي طويل في أصول الخدمة بالبلاط ، وقد قيل : أي حمل ثقيل يعجز الرجل الشديد القوي عن رفعه ؟ وأي مسافة تقصر همة صاحب العزيمة عن قطعها ؟ وأي أرض تعد غريبة بالنسبة للعالم ؟ ومن ذا الذي يعادي من يترفق في الحديث؟

فقال كرطاكه : من يدري ؟ لعل مولانا يسخط عليك لاقتحامك حضرته في لحظة غير مناسبة . فقال الآخر : هذا صحيح ومع ذلك فإن رجل الحاشية لا يرضى بالفشل في التقرب من (مولاه) . وقد قيل : إن الملك لا يؤثر برضاه إلا من يراه بقربه ولو كان غريبا جاهلا وضيع الأصل ، فالملوك والغانيات والكروم تحتضن كل ما يجاورها .

في وسع المقربين من الملك أن يعرفوا ما يثير سخطه وما يرضيه وشيئا فشيئا يمكنهم السيطرة عليه ولو قاومهم[1] ، فقال كرطاكه : وماذا أنت قائل يا سيدي عندما تجد نفسك في حضرته . ؟ فقال دمنكه : سوف ألبس لكل حالة لبوسها وأتصرف استجابة لما يمليه على الموقف ومن هذه الاستجابة ينشأ الرد ، مثل ذلك مثل حبة تنبت من حبة أخرى سقط عليها مطر غزير وأفاض عليها من بركته . وقيل أيضا : إن الكارثة التي تترتب على عرض خطط سيئة والتوفيق الذي يعقب عرض خطط بارعة ليرتبطان بأصول تدبير الملك ، أي تظهران سلفا بحيث يستطيع ذو الرأي أن يشير اليهما .

وأنا لن أتحدث إلا عندما يجيء الأوان .

إذا قال برهاسباتي[2] نفسه كلمة في غير أوانها فان رأيه سوف يقابل بالاحتقار ولن يلقى سوى الازدراء . » ان يتحدث باعتدال ولا يتفوه بعبارة إلا في الموضع المناسب والوقت المناسب ولن يتفوه بها أمام امرىء يفتقر الى الرشد أو رجل مجرد من الفضل ولهذا فانه لا يتفوه بهذه العبارات عبثا وقد قيل :

---

(١) تحتوى العبارة الأخيرة على تلاعب بالألفاظ وشيئا فشيئا يتسلقون كتفيه (مثل الشجرة) ولو كان يهتز (بفعل الرياح)

(٢) مرشد الآلهة ورب الحكمة .

إن المزية التي يتمتع بها المرء وتعينه على كسب عيشه والتي من أجلها يثني عليه الأخيار ، لابد أن يهتم بها صاحبها ويعمل على تنميتها .

فقال كرطاكه : ولكن من الصعب أن تظفر ، بالحظوة لدى الملوك فهم كالجبل صعاب المرتقى ، قساة القلوب غلاظ الأكباد دائما (تورية عن الجبال الوعرة) بفطرتهم ويحيط بهم رجال أراذل (مزدحمة بالحيوانات الضارية) وهم يتسقطون الزلات (يرتادها الناس من خلال الشقوق) ، ومن شيمتهم الغدر (تؤوى وحوشا غادرة) لأن الملوك مترفون مثل الثعابين (لها طيات) ومسربلون بعدة الحرب (جلود الثعابين) ومتوحشون ، ويعملون (يتحركون) بطريقة ملتوية ، ولهم مناخير (قرون الثعابين) ويمكن اكتساب قلوبهم بالكلمة الطيبة (مفاتن الثعابين) . فقال الآخر « هذا صحيح ومع ذلك يستطيع الرجال أن يخدموا الملوك ويشربوا السم ويغازلوا النساء اذا بلغوا درجة كافية من الدهاء . » وقد قيل ايضا : يستطيع العاقل ، أن يكسب قلب أى امرئ مهما كان مشربه ويطويه سريعا تحت جناحه .

فقال كرطاكه : فليحالفك الحظ . اعمل ما تراه خيرا . وودعه دمنكه ودنا في حذر من بنجلكه . ورأى بنجلكه دمنكه قادما من بعيد فقال لحراسه : اطرحوا هراواتكم بلا توان ، فالقادم هو دمنكه ، وزيرنا بالوراثة ، الذى خدمنا طويلا ، وله الحق في المثول بين يدى ، مادام ينتمى إلى الدائرة الثانية ، » اقترب دمنكه وانحنى محييا واتخذ مقعده في الموضع الذى عينه له بنجلكه ووضع الأسد عليه يده اليمنى المزينة بمخالب تشبه الصواعق[1] وقال له في بشاشة :

السلام عليك . أين كنت ؟ لقد مضى عهد طويل مذ رأيتك لآخر مرة . فقال دمنكه : كنت على يقين من ان جلالتكم ليس في حاجة إلى خدماتى ومع ذلك فليس للوزراء أن يحجموا عن ابداء الرأى والنصيحة . وقد جئت اليوم لأن عندى ما أقوله . وأعتقد أنه ليس هناك أحد لا يفيد منه الملوك بطريقة أو أخرى. وقد قيل :

---

(١) أو الفئوس الصغيرة

أيها الملك ما أكثر ما يستطيع أن يفعله رجل له لسان ويدان ! ألا ترى أن الأمراء قد يستخدمون نصلا من العشب لكى ينظفوا به أسنانهم أو يخمشوا بـه آذانهم ؟ وقد قيل أيضا: إن المروءة لا تمحى من رجل ولو خفضت منزلته. ألا ترى ان الشعلة من النار تأبى إلا أن ترتفع ولو أديرت إلى أسفل .

إذا وطئ رجل بقدمه، في وقت غير مناسب، ثعبانا له لون كالوقواق الأزرق الداكن أو لون كالعينين المرسومتين على ذيل الطاووس أو لون الكحل ولم يلدغه فهل يغره ذلك منه ويعتقـد أنه في أمان من لدغته القاتلة ؟ ومن ثم أيها الملك : عليك دائما أن تفرق في المعاملة بين رعاياك بمملكتك لأن النجاح يتوقف عـلى إدراك منازل الرجال . وقد قيل في ذلك :

قد يخلط المزارع البذور معا ويزرعها ومع ذلك فإنه يحكم على صلاحيـة البذور بنبتها وظهورها . ولهذا فإن على الملك في جميع الأوقات أن يعرف قدر الرجال وتبعا لذلك : عليه ألا يثق إلا بالأتباع المخلصين وألا يضع الحـلى إلا في مواضعها الحقيقية فالمرء لا يحلى قدمه بدرة لمجرد أن هذا في وسعه ، وإذا كانت هناك درة ، تستحق أن توضع في حلية من الذهب، ووضعت في حلية من القصدير فانها لن تشكو أبدا وسوف تظل تتلألأ أبدا . ولا لوم الا على من يتحلى بها على هذا النحو . إذا عرف ملك كيف يميز بين أتباعه بالحكـم عليهـم بأن هذا الرجل عاقل ، وهذا مخلص ، وهذا عاقل ومخلص في آن واحـد، وذلك أحمق — فانه يجد الكثير من الأتباع .

يستطيع التابع أن يهجر مولاه لأسباب ثلاثة : إذا سوى بينه وبين مرؤسيه ، واذا لم يعامل بالاحترام الذى يعامل به أقرانه ، واذا أسند اليه عمل تافه .

يضاف الى هذا أننا أتباع جلالتك بالوراثة ونحن لا نتخلى عنك حتى في وقت الشدة فليس لنا ملجأ آخر سواك ، وهذه هى شيمة الوزراء وقد قيل: أى رجل نبيل يبقى لحظة واحدة في موضع لا فرق فيه بين اليد اليمنى واليد اليسرى . اذا كان لديه موضع آخر يذهب اليه .

عندما لا يعرف سيد أقدار أتباعه ويعاملهم على قدم المساواة فان ذوى الهمة منهم تفتر همتهم، ما أعظم الفرق بين مختلف الخيول والفيلة والمعادن . . . بين الأخشاب والأحجار والثياب . . بين النساء والرجال والمياه .

ولنضرب الآن مثلا عن الفروق :

ليس من شك في أن الأبله الذى يطمع في أن يحمل ألف بهاراس[1] من الحجر على كتفيه لابد أن تخور قواه أو يموت ولو رفع الحمل .

عندما يحصل رجل فطن على ياقوته لا تزيد عن حجم ابهامه فمن السهل عليه أن يحملها ولكن أيستطيع لو فعل ذلك أن يجنى ربحا عظيما ؟ ولهذا فانى أرى أن الأتباع انما يتفاوتون في الطباع حسب ما يتحلى به سادتهم من سجايا . وكيف ذلك ؟ .

قد يكون بالجواد والسلاح والمعرفة العلمية والود والكلام والرجل والمرأة نفع وقد لا يكون ، فالأمر يتوقف على معدن الرجال .

إذا كنت تجدنى عندك صغير المنزلة لأنى من بنات آوى فهذا أيضا خطأ لأن «فشنو» اتخذ هيئة خنزير برىّ واضطر النبي العظيم (رسبارنجا) أن يبدو في صورة غزال واتخذ ذو الأوجه الستة (سكاندا إله الحرب) شكل عنزة ومع ذلك ألم يكرمهم الآله العادل ؟ وقيل أيضا :

ليس من الأصول السليمة الثابتة أن يفضل دائما الخادم الذى يولد في بيت الأسرة وتطول فيه خدمته عن غيره من الخدم بل ان الأفضل هو الناصح الأمين ولذا قيل

لابد من قتل الفأر على الرغم من أنه يولد في البيت لأنه موذ بفطرته في حين أن الهر يقبل على سبيل الهدية من غرباء لأنه نافع .

لاسبيل إلى الافادة من الحمقى . ألا ترى أنه لا يمكن تشكيل تحفة من الخشب من نبات الخروع أو من نبات بهنذا أو أركا أو من البوص ولو جمعت منها كميات كبيرة .

---

(١) وزن ثقيل معين ، ومعناها حرفيا « حمل »

ما الفائدة من امرئ مخلص إذا كان عاجزا ؟ وما الفائدة من امرئ قادر إذا كان قد جبل على الأذى وأنا أيها الملك مخلص وقادر فهلا عرفتني : من أجل ما أنا عليه من سجايا . وقيل أيضا :

إذا ساء حكم الملك على الرجال فلا غرو أن ضمت حاشيته أغبياء يحولون بسلطانهم بينه وبين أي رجل من ذوى الرأي في حاشيته وإذا خلت المملكة من ذوى الرأى انتهجت سياسة غير رشيدة تقود القبيلة بأسرها إلى خراب محقق وإلى هلاك الملك وحده معها .

فقال بنجلكه : لا تقل هذا ياصديقى دمنكه ، فأنت وزيرنا بالوراثة وقد خدمتنا طويلا . فقال دمنكه : ان لدى ما أقوله لك . فقال : هات ما عندك فقال دمنكه : لقد خرج مولاى ليشرب ثم توقف هنا وقفل راجعا دون أن يطفىء ظمأه كأنما أفزعه شيء فهل لى أن أعرف لماذا عاد مولاى ؟ فقال بنجلكه ليخفى ما يشغل ذهنه : لم يدفعنى لهذا سبب بالذات يا دمنكه . فقال : مولاى إذا كان ذلك لأمر لا يصح أن تفصح عنه فليكن . وعندما سمع بنجلكه منه هذا الكلام أخذ يفكر وقال في نفسه : لقد تبين ما أكتمها في صدرى ويبدو أنه تابع أمين فلماذا أخفى شيئا عن هذا التابع المخلص ؟ انى أرى أن أصارحه بما يدور في خلدى . وقال : ألا تسمع يا دمنكه هذا الضجيج المرتفع الذى يصدر من مكان بعيد ! فقال : بلى يامولاى ، انى أسمعه بوضوح تام فما هو ؟ فقال بنجلكه : أيها الصديق لقد خطر لى أن أغادر هذه الغابة لأن هذا الضجيج لابد أن يكون صادرا من مخلوق لم نسمع عنه قبل ، جاء إلى هذا الموضع وهو الذى نسمع الآن ضجيجه المرتفع الغريب . ولابد أن هذا المخلوق من نوع يكافئ هذا الضجيج ولابد أن جرأته تناسب خلقته[1] ولهذا لا أستطيع أن أبقى هنا بعد ذلك ، فقال دمنكه « أيمكن أن يكون مولاى قد فزع من مجرد صوت ؟ ولو صح هذا فإنه أيضا خطأ . وأضيف اليه :

---

(١) ان الكلمة السنسكريتية المترجمة بكلمة مخلوق تحوى نوعين من التلاعب بالألفاظ ، فهى تعنى « مخلوقا » وفطرة وأيضا شجاعة .

إن السد يحطمه الماء . والنصيحة الخالصة تضيع سدى إذا لم تبق في طيّ الكتمان ، والصداقة آفتها الغيبة ، والجبان قد يموت فزعا من صوت .

والرأى عندى أن من الخطأ أن يهجر مولاى هذه الغابة التى بسط عليها سلطانه منذ أمد طويل لمجرد سماعه صوتا ، ذلك لأن هناك أنواعا مختلفة من الأصوات تصل إلى أسماعنا هنا ولكنها ليست الا أصوات ، ولا داعى للفزع منها . فنحن مثلا نسمع هزيم الرعد من بين السحب وأصوات المزامير والأعواد ودقات الطبول والدفوف وصوت الأبواق ورنين النواقيس وصوت العجلات والأبواب والآلات وغيرها من الأشياء ولا داعى للخوف منها ، فقد قيل : لقد توهمت في مبدأ الأمر أنه محشو بأطيب أنواع الشحم واللحم ولكن ما أن اقتحمته حتّى تبينت أن ليس الا جلداً أو خشباً . فقال بنجلكه : وكيف كان ذلك ؟ فقال دمنكه :

الحكاية الثانية

ابن آوى والطبل

يحكى أن حيوانا من بنات آوى أضناه الجوع حتّى نحلت رقبته فأخذ يضرب في الغابة على غير هدى بحثا عن الطعام إلى أن بلغ ساحة كان قد اشتجر فيها القتال بين جيشين وهناك سمع ضجيجا عاليا فغاص قلبه هلعا لدى سماعه ذلك الصوت وأخذ يفكر ويقول لنفسه : ما عساه أن يكون ؟ لقد هلكت ! من أين يصدر هذا الضجيج ؟ وأى نوع من المخلوقات يصدر عنه؟ وأين هو ؟ وقام على أثر ذلك بالبحث عن ذلك المخلوق فوجد طبلة هائلة أشبه ما تكون بقنة جبل . ولما رآها قال في نفسه : أيمكن أن تصدر تلك الضجة العالية من هذا الشيء بالذات أم أنها تصدر عن شيء آخر ؟

وكانت الطبلة تصطدم بأغصان شجرة تتحرك جيئة وذهابا بفعل الريح فتصدر عنها ضجة مرتفعة وإذا سكنت الريح ظلت ساكنة . وصعد بالقرب منها ليكتشف أمرها وضربها على وجهيها ليرى ما يحدث وقال لنفسه : هأنذا أجد آخر الأمر وجبة شهية فى هذا الشيء ولا شك أنه محشو بأطيب

أنواع اللحم والشحم والدم ! وما كان منه إلا أن مزق وجه الطبلة بأظافره وزحف إلى داخلها وكان الجلدصلباجدا فكاد أن يحطم أسنانه . ولدهشته لم يجد فيها شيئا فقفل راجعا وقال لنفسه: « لقد توهمت فى مبدأ الأمر أنه محشو بأطيب أنواع الشحم واللحم ولكن ما أن اقتحمته حتى تبينت أنه ليس الا جلدا وخشبا».

[نهاية الحكاية ٢]

ولهذا أقول : ينبغى ألا تخشى شيئا لمجرد أنه يصدر صوتا مرتفعا ، وعلى أية حال فإنى استطيع إذا شئت أن أنطلق إلى حيث يصدر هذا الصوت المرتفع واكتشف حقيقة أمره . فقال بنجلكه : أتجرؤ حقا على الذهاب إليه ؟ فقال : بالتأكيد . فقال بنجلكه : إذا كان الأمر كذلك أيها الصديق فاذهب وليكن الحظ حليفك! فانحنى له دمنكه . وانطلق نحو الصوت المرتفع الصادر من سمجيفكا . وعندما انصرف دمنكه غاص قلب بنجلكه هلعا وقال لنفسه : يخيل إلى أنى لم أحسن صنعا بالثقة بهذا التابع ومصارحته بما يدور في ذهنى ، ومن يدرى ؟ لعل دمنكه هذا يتخذ منى موقف العداء وقد يحاول أن يمكر بى وقد قيل : [1]

يستطيع المرء أن يتقى بالخديعة والمكر شر من قرب ثم أبعد ومن نبذ من غير جرم والساخط والجشع ومن أصابه ضر وضيق ومن تطوع بخدماته يرجو بها خيرا ، أما الفقراء الذين أثقلت كواهلهم بالمكوس والذين قربوا أولا ثم أبعدوا والذين لم يقدروا حق قدرهم جزاء ما قدموا من أعمال مجيدة مثل غيرهم والذين أضناهم النفى عن الوطن ووضعوا في الظل بأيدى أقرانهم وجردوا من النعم وكذلك الذين أثقلت كواهلهم بأعمال كثيرة مضنية والطامحون (الى العرش) من الأسرة نفسها ، جميع هؤلاء لايسلمون في حقوقهم[2] حتى في الصحبة الدائمة ولابد من اختبارهم بكل وسيلة ممكنة .

ولعل دمنكه هذا يرى أنه جرد من النعم فيتخذ منى موقفا معاديا ومن يدرى! لعله يتخذ سبيله نحو الأقوى لأنه هو نفسه عاجز عن إلحاق الضرر بى ، وأنا في هذه

---

(١) ان الفقرة التالية ليست منقولة بدقة عن كتاب كوطليا ارثاشسترا المنسوب الى كانيكا .

(٢) أو « يتنكرون لفطرتهم »

الحالة هالك لا محالة . والرأى عندى أن أنطلق من هذه البقعة إلى موضع آخر حتّى أتبين ماهو صانع . وما أن وصل في تفكيره الى هذا الحد حتّى انتقل الى موضع آخر وظل هناك وحده يتطلع الى الطريق الذى سلكه دمنكه . وانطلق دمنكه الى حيث كان سمجيفكا وعندما وجد أنه ليس إلا ثورا غمره السرور وقفل راجعا الى بنجلكه ، وكان قد عاد الى موضعه السابق وحاول أن يخفى ما تنم عنه أساريره وقال لنفسه : لو لم أفعل ذلك فان دمنكه سوف يظن هو وأتباعى الآخرون أنى جبان . ولما وصل دمنكه الى حضرة بنجلكه انحنى له وجلس فقال بنجلكه: حسن يا سيدى هل رأيت ذلك المخلوق ؟ فرد دمنكه قائلا : نعم ، بفضل جلالتكم فقال : هل رأيته على حقيقته ؟ فقال دمنكه : « نعم » فقال بنجلكه: إنك لم تره كما هو في الحقيقة لأنك لاتشغل منصبا رفيعا وما دمت عاجزا فانه لن يعترضك ، لأن الاعصار لا يقتلع الحشائش الرخوة التى تنحنى أمامه في كل اتجاه وهو لايحطم الا الأشجار السامقة . والقوى لايستعرض جرأته الا أمام القوى . وقد قيل أيضا :

على الرغم من أن آذان الفيل الملوثة بالعصير تتعرض لغارات من أسراب النحل وهى تحوم حوله ، اشتياقا لسائل العصير فانه لا يستشيط منها غضبا ولا يبطش بها مع عظيم قوته . فالأقوياء لايغضبون الا ممن يعدلونهم في القوة .

فقال دمنكه : لقد عرفت سلفا أن مولاى سوف يقول هذا . والآن لكى اختصر في سرد حكاية طويلة أرى أن أحضره لك بشخصه للمثول أمام جلالتكم. وعندما سمع بنجلكه هذا سرّ وقال : افعل هذا فورا . وعاد دمنكه وقال لسمجيفكا بلهجة مهينة : هيا معى أيها الثور التعس ! إن مولانا بنجلكه يقول لك لماذا تتظاهر بالقوة وتستمر في الخوار بلا داع ؟ فقال سمجيفكا : أيها الصديق ، من هو بنجلكه هذا الذى يبعث لى بهذه الرسالة ؟ فضحك دمنكه وقال في دهشة : ماذا ؟ هل من الممكن ألا تعرف مولانا بنجلكه ؟ إذا كنت لا تعرف فهذه هى آثاره تدل عليه ! وأردف ساخرا : إن مولانا بنجلكه هو ذلك الأسد القوى ملك الوحوش الذى تخدمه كل الوحوش بالقرب من شجرة

التين القائمة في الدوائر وهوعالى الهمة . وعندما سمع سمجيفكا منه هذا القول أيقن أنه هالك لا محالة وتملكه يأس عظيم وقال : اذا كان لا بد من حضوري فامنحني جواز الأمان . فوافق دمنكه وقال : حسن جدا . وعاد الى الأسد وأبلغه بالأمر وحصل على موافقته واقتاد سمجيفكا الى حضرة بنجلكه كما اتفقا. وحيّا سمجيفكا الأسد في احترام ووقف أمامه في تواضع . فوضع يده اليمنى المكتنزة المستديرة الطويلة المزينة بمخالب مثل الصواعق[1] بدلا من الحلى وقال له في بشاشة : السلام عليك من أين أقبلت والى أين في هذه الغابة التي لايطرقها أحد . فأجاب سمجيفكا على هذا السؤال وأبلغه بكل ما حدث له وكيف افترق عن التاجر فرذمانكه. وعندما سمع بنجلكه منه هذا قال له : لاتثريب عليك أيها الصديق . أقم حيث يحلو لك في هذه الغابة التي تحميها ذراعي ومع ذلك فاني أرى أن تبقى دائما بالقرب مني لأن هذه الغابة محفوفة بالأخطار وفيها كل أنـــواع الوحوش المفترسة . فرد سمجيفكا قائلا : الأمر لكـــم يا صاحب الجـــلالة . وما أن قال هذا حتى انطلق بنجلكه ، وتبعته جميع الوحوش الى ضفة نهر جوما وشرب حتى ارتوى وعاد ثانية الى مقره الملكي في تلك الغابة نفسها وأخذ يطوف في أنحائها لا يزعجه أحد . وأصبح الاثنان بنجلكه وسمجيفكا مذ ذاك يمضيان الوقت معا كل يوم تربطهما مودة متبادلة . ولما كان سمجيفكا قد أحاط بالكثير من العلوم فانه لقـــن بنجلكه الحكمة في وقت قصير على الرغم من أنه كان من قبل جهولا بسبب ملازمته للغابة . وقصارى القول كان بنجلكه وسمجيفكا يتداولان وحدهما في أمور سرية وكانت الوحوش كلها تقف على بعد منهما . وندر الطعام الذى يتخلف من فرائس الأسد وكان من الطبيعى أن يتضور كرطاكه ودمنكه جوعا وتشاورا معا وقال دمنكه : اننـــا هالكان لا محالة يا صديقى كرطاكه فماذا عسانا نصنع في هذه الظروف . إني أعد نفسى مسؤولا عن هذا الضنك لأني أحضرت سمجيفكا لبنجلكه وقد قيل :

هلك ابن آوى من تناطح كبشين. وقضى أسادهابهوتى على . ومكرت القوادة بالنساج . ووقعت هذه الأحداث الثلاثـــة لأسباب خارجة عـــن الارادة . فقال كرطاكه . وكيف كان ذلك ؟ فقال :

(١) أو الفؤوس الصغيرة

الحكاية الثالثة

(أ) الناسك والمحتال

يحكى أنه كان في أحد الأقاليم ناسك يدعى دفاسرمان ، كسب ثروة طائلةعلى الأيام من بيع ما حصل عليه من ثياب جميلة فاخرة ، خلعها عليه نفر من الأتقياء. وكان لا يثق بأحد . واتفق أن لاحظ لص يدعى أسادهابهوتى هذه الثروة التى كان يحملها في جيب صديريته فقال في نفسه : كيف أستطيع أن أسلبه هذه الثروة ؟ وقدم نفسه للناسك على أنه تلميذ به شوق الى مجاورته ، وماهى إلا أيام حتّى استطاع أن يكسب ثقته . وانطلق الناسك يوما ومعه هذا الرجـــل أسادهابهوتى في رحلة للحج الى مكان مقدس وفي أثناء الرحلة وفي منطقة معينة بالغابة ترك الناسك أسادهابهوتى ومعه الثروة بالقرب من ضفة نهر وانطلـــق يسعى للحصول على بعض الماء .

(ب) الكباش وابن آوى

وهناك قرب حافة الماء شهد معركة كبيرة بين بعض الكباش وفيما هى تتقاتل بكل ما في طاقتها من قوة بلا هوادة ولا كلل تفجرت دماؤها أنهارا من بـــين قرونها المتفرعة وسالت على الأرض . وشاهد أحمق من بنات آوى هذه الدماء وراودته رغبة عارمة في أن يلتهمها وفي غمرة هذه اللهفة على اللحم ومن أجل الحصول على الدم هرع يجرى بين كبشين كانا قد افترقا وابتعدا عن بعضهمـــا حينا . وما كادا يعاودان الهجوم ويتصادمان ملتحمين حتّى لقى مصرعه وعندئذ غلبت الدهشة على الناسك وقال : هلك ابن آوى من تناطح كبشين .

[نهاية الحكاية ب]

وبعد أن تطهر قفل راجعا الى الموضع الذى ترك فيه أسادهابهوتى فوجد أنه قد استولى على ما اكتنزه من المال وفر هاربا . ولم يستطع دفاسرمان أن يعثر عليه ولم يجد سوى عصا ثلاثية مطروحة وحزمة من الحطب وجرة ماء وغربال ومسواك[1] فقال في نفسه : ترى أين ذهب ذلك الرجل الذى يدعى أسادهابهوتى ؟ لابد أنه سرقنى . واستولى عليه هم عظيم وقال : وأنا قضى علي أسادها بهوتى . . .

[نهاية الحكاية (أ)]

(ج) النساج الديوث والقوادة

ولم يبق لذلك الناسك سوى نصف جمجمة (تستخدم وعاء للشرب) وعقدة خالية في ثوبه (كان يصر فيها المال) وانطلق يقتفى آثار المحتال، ودخل احدى القرى والشمس توشك على الغروب . وعندما دخل فيها التقى بنساج يعيش في طرف القرية وطلب منه أن يؤويه تلك الليلة . فقاده الى جناح في جانب من البيت وقال لزوجته : انى ذاهب الى المدينة لأجرع بعض الشراب مع أصدقائى والى أن أعود أرجو أن تحرسى البيت بعين ساهرة .

وانصرف بعد أن أصدر اليها هذه التعليمات . ولم تكن زوجته ممن يتمسكن بالعفة . وجاءت امرأة قوادة واستحثتها على الخروج ، فاتخذت زينتها وتأهبت للقاء عشيقها . واذا بزوجها يعود الى البيت في تلك اللحظة وهو في ثياب زرية، وكان يترنح في مشيته من أثر السكر وساءت حالته فعجز عن الكلام بوضوح وكانت المرأة حاضرة البديهة فما أن رأته حتى تخلصت من زينتها ببراعةوارتدت ثوبها العادى وظهرت أمامه كما كانت من قبل وأخذت تغسل قدمى الضيف ، وتعد فراشه وما الى ذلك بسبيل . ودخل النساج البيت وبدأ يعنفها قائلا : ياعاهرة ! لقد روى لى أصدقائى طرفا من فعالك الأثيمة . حسنا سوف أجعلك

---

(١) جميع هذه الأشياء يحملها المريد البرهمى وقد حملها المحتال ليخدع الناسك وبعد أن قضى غرضه طرحها .

تدفعين الثمن غاليا ! وما أن انتهى من مقاله حتى انهال عليها ضربا بالعصا الى أن اسود جسمها وازرق وشد وثاقها بحبل متين الى عمود في وسط البيت ثم ذهب أليتام . وفي غضون ذلك عادت القـوادة ، وكانت زوجـة حلاق ، وما أن استوثقت من أن النساج يغط في نوم عميق حتى قالت : إن ذلك الرجـل الوسيم يتحرق شوقا اليك . ولست أشك في أنه سيموت وجدا وصبابة، ومـن أجل ذلك سأحتال وأطلق سراحك وأشد وثاقي مكانك فهلا بادرت بالذهـاب اليه ومواساته ـ أنت تعرفين من أقصـد ـ ثم عـودى بسرعة . وان هى الا لحظات حتى كانت زوجة الحلاق قد أطلقت زوجة النساج من وثاقهـا وأرسلتها الى عشيقها . واستيقظ النساج بعد فترة وأفاق وأخذ يعنفها كمـا كان يفعل من قبل، وهلع قلب القوادة ولم تجروْ على الكلام بصوتها لئلا يتعرف عليها من صوتها الغريب على أذنيه ولاذت بالصمت . ومهما يكن من أمر فانه ظـل يردد العبارات نفسها فلم تحر جوابا فصـرخ في غضب : هـل بلـغ بك الاعتزاز بنفسك حـدا يسمح لك بألا تردى عـلى ما أقـول ؟ . ونهض وقطع أنفها بمدية حادة وقال : اليك هذا لتزدادى حسنا ، وبودى أن أعرف من يهتم بك بعد الآن ؟ ولما فرغ من كلامه ذهب لينام مرة أخـرى ، وعادت زوجـة النساج وسألت المرأة القـوادة : مـاذا وراءك ! فبادرت القوادة ، وقد نالت جزاء صنيعها ، وأرتها أنفها الدامى وقالت بسخرية مريرة: في وسـعك أن ترى ما ورائى ! هيا أطلقى سراحى ودعينى أنصرف الى حال سبيلى . وما أن تحررت من وثاقها حتى انصرفت وأخذت معها أنفها . ومهما يكن من أمر فإن زوجة النساج أصلحت من شأنها وشدت وثاق نفسها بأربطـة مماثلة . واستيقظ النساج وبدأ يعنفها بالطريقة نفسها كما حدث من قبل فانـبرت تؤنبه وتقول له بلهجة غاضبة ! تبالك أيها الشرير ! كيف تجروْ على أن تشوه صورتي وأنا زوجة طاهرة مخلصة ؟ اسمعوني ياحكام أقاليم العالم[1] اني لاأعرف حتى في الخيال رجلا عزبا ، ولا أعرف سوى زوج شبابى ، واذا كانت هذه

---

(١) لوكابالاس ، نعت لكبار الآلهة الأربعة (أو الثمانية) حراس الجهات الأربعة الرئيسية (والفرعية) للبوصلـة .

هي الحقيقة فليعد وجهي غير مشوه كما كان ! . ولما فرغت من كلامهاقالت لزوجها مرة أخرى ! . انظر الى وجهي ! لقد عاد كما كان من قبل ! ياأخبث الرجال طرا ! وتبلبل فكر الرجل الغبي وحار في تفسير كلماتها المخادعة وأوقد شعلة واقترب من زوجته فرأى وجهها سليما خاليا من أى تشويه . وجحظت عيناه وامتلأ قلبه فرحا وقبلها وفك وثاقها وخر عند قدميها يطلب منها الصفح واحتضنها في حماسة . وحملها الى الفراش . وكان الناسك قد رأى كل ما حدث منذ بدايته ولبث في موضعه وذهبت تلك المرأة القوادة وهي تحمل أنفها وأخذت تفكر وتقول لنفسها : ماذا عساى صانعة الآن ؟ كيف أستطيع أن أخفي هذا العار العظيم ؟ وعاد زوجها الحلاق الى البيت عند الفجر وقال لزوجته : هاتي حافظة أمواسي ، يا عزيزتي ، إذ على أن أذهب الى قصر الملك . فلازمت مكانها داخل البيت وقذفت له موسى واحدة فحسب . ولم تسلم للحلاق حافظة الأمواس كلها كما طلب ، فامتلأ قلبه غيظا وقذفها بالموسى نفسهم فأطلقت صرخة عالية تنم عن الألم وحكت منخريها بيدها وألقت بأنفها والدم يقطر منه على الأرض وقالت : النجدة ! النجدة ! إن هذا الرجل الشرير قد جدع أنفي ، على الرغم من أنه لم يجد في عوجا !

وجاء رجال الشرطة وشاهدوا أنفها المجدوع فانهالوا على الحلاق ضربا بالعصى وأحكموا وثاقه واقتادوه وإياها الى دار القضاء . وهناك سأله القضاة ! لماذا عاملت زوجتك بهذه القسوة الشديدة ؟ فلم يحر جوابا ولاذ بالصمت على الرغم من تكرار سؤاله ، فأمر القضاة بقتله على السفود . وسيق الى موضع التنفيذ ، فانبرى الناسك الذى كان قد شهد كل ما حدث من أوله وهرع الى المحكمة وقال للقضاة ان هذا الحلاق برىء لم يقترف ذنبا ، لا تقتلوه على السفود واسمعوا ثلاثة أمور غريبة :

هلك ابن آوى من تناطح كبشين ، وأنا قضى عليّ أسادهابهوتي ، ومكرت القوادة بالنساج ، ووقعت هذه الأحداث الثلاثة لأسباب خارجة عن الارادة .

وعندما عرف القضاة الوقائع الصحيحة للقضية أبقوا على حياة الحلاق .

[نهاية الحكاية (جـ) والحكاية الثالثة بأسرها]

ولهذا أقول : هلك ابن آوى من تناطح كبشين ،وأنا قضى عليّ أسادهابهوتى ، ومكرت القوادة بالنساج ،وقد وقعت هذه الأحداث الثلاثة لأسباب خارجة عن الارادة .

فقال كرطاكه : اذن فأى عمل في رأيك أنسب لهذه القضية ؟ فقال دمنكة : في وسع العاقل أيها الصديق حتى في مثل هذه الحالة ، أن ينجو بنفسه . وقد قيل :

أغلى نصيحة هى التى تسدى لكسب قضية خاسرة أو الحصول على مزية في المستقبل أو توقي شر عمل ضار . وإنى أرى أن بنجلكه الآن في ورطة خطيرة ولابد من التفريق بينه وبين سمجيفكا لأنه عندما يضل أحد الملوك ضلالا شديدا ويرتبط بالشر فلابد لأتباعه من أن يبذلوا كل ما في طاقتهم من جهد لانقاذه من هذا الموقف بانتهاج الوسائل التى نص عليها علم السياسة . فقال كرطاكه : ولكن أى شر يتعرض له مولانا بنجلكه ؟ لأن هناك سبعة شرور يتعرض لها الملوك وهى : النساء والنرد والصيد والشراب والغلظة في القول والقسوة في إنزال العقاب والاعتداء على أملاك الغير . فقال دمنكه : يا صديقى إن ما ذكرت ليس الا شرا واحدا يمكن أن يطلق عليه التورط وله ستة أشكال ، فقال كرطاكه : وكيف يكون هذا شرا واحدا ؟، فقال دمنكه: لابد أنك تعرف أن هذا العالم خمسة شرور أساسية هى : العجز والفتنة والتورط والغم وسوء التدبير [1] فقال كرطاكه : حدثنى عن الفرق بينها فقال دمنكه : الأول بينها وهو العجز يحدث عندما يصاب به واحد من المذكورين فيما بعد

---

(١) ان ما يلى صفحة ، بحث أصولى في العلم السياسى يقوم على المادة نفسها التى وردت فى الجزء الأول من الكتاب الثامن لكوطليا ارثاشسترا المنسوب الى كانيكا .

وهم: الحاكم أو الوزير أو الأمة أو الحصن أو الخزانـــة أو الجيش أو الحليـــف ولكن عندما تكون العناصر الداخلية أو العناصر الخارجية[1] فرادى أو مجتمعة، في حالة استياء من الملك فان هذا الشر يعرف باسم الفتنة . أما التورط فقد سبق أن شرحتـــه في بيت الشعر النساء والنرد والصيد . . الخ . ومن هذه الرذائل نجد أن النساء والنرد والصيد والشرب هى مجموعة تدفع الى التورط ، مردها اللذة ، في حين أن الغلظة في القول وبقية الرذائل مردها الغضب . وان المرء الذى يتحرر من الرذائل التى مردها اللذة قد يتـــورط في الرذائل التى مردهـــا الغضب . ومن اليسير ادراك الرذائل الناجمة عن اللذة بيد أنى سوف أذكر لك الآن ثلاثة ضروب منها مردها الغضب . اذا فطر المرء على كراهة الآخرين، وجبل عـــلى تسقط زلاتهم واحصاء أخطائهم بلا روية يكون مصابا برذيلة الغلظة في القول . وتنفيذ أحكام الاعدام والسجن والتشويه بلا رحمة وبلا داع يعد قسوة في انزال العقـــاب .

والتشبث بأملاك الغير يعد اعتداء على ملك الغير . وتلك هى رذيلة التـــورط مضاعفة سبع مرات . ومهما يكن من أمر فان الغم رذيلة مضاعفة ثمانى مرات . وهو يحدث نتيجة للحـــادث العـــارض القـــدر أو النار أو الماء أو المرض أو الطاعون أو الكوليرا أو المجاعة أو المطر الشيطانى ، وهو المطر الغزير ، أو نقص المطر . وهذا هو مفهوم رذيلة الغم . أما سوء التدبير فيحدث من التطبيق الخاطئ

---

(١) يرى هرقل أن العناصر (بر كرتى) تشير الى القائمة التى ذكرت فيما سبق (حاكم ، وزير ، الخ . .) ومهما يكن من أمر فان هؤلاء ماعدا « الحليف » يمثلـــون العناصر الداخليـــة للدولة . وهناك الى جانب هذه العناصر الخارجية ، وهى العناصر المقابلة للدولة المعاديـــة والوسيطة (ندياما) والمحايدة (اوداسينا) والحليف (مترا) و «حليف الحليف» ولكل واحد من هؤلاء اثنان وسبعون عنصرا أو بركرتى وهى مبينة فى كوطيليا ارثاشسترا ، الكتاب السادس ، الفصل الثانى (الطبعة الأولى ، ص ٢٥٩) وكذلك نجد أن الدولة المعادية متضمنة بين العناصر وهذا موضح بصورة تدعو للاعجاب فى المصنف المسمى السفر السابع (الفصل السابع) ، الجملة الافتتاحية (الطبعة الأولى ، ص ٢٨١) حيث يطلق على العدو اســـم « العنصر الثانى » (دفتيابر كرتى) . وأرى انه لافائدة من مصطلحى « عناصـــر داخليـــة » وعناصر خارجية فى المصنف المذكور ويبدو بوضوح أن التفرقة يجب أن تكون حسب ما أوضحت .

لضروب السياسة الستة ، وهى السلم والحـــرب والزحـــف وسياسة الانتظار والتحالف مع سند قوى والمعاملة ذات الوجهين . ومن سوء التدبير شن حرب في وقت موائم للسلام او الالتجاء للسلم في وقت يحسن فيه شن الحرب أو انتهـــاج ضرب من ضروب السياسة الستة في وقت غير ملائم . والرأى عندى أنه لابد من التفريق بين بنجلكه وسمجيفكا بكل وسيلة ممكنة . ألا ترى أنه لا ضوء بـــلا مصباح ؟ فقال كرطاكة : ولكنك لا سلطان لك فكيف تفرق بينهما فقـــال دمنكه: بالحيلة أيها الصديق فقد قيل : يستطيع المرء بالحيلة أن يحقق ما يعجز عنه بالعنف ، فهذه هى أنثى الغراب قضت على الحية بسلسلة من الذهب . فقـــال كرطاكـــه : وكيف كان ذلك؟ فقال :

الحكاية الرابعــة

الغربان والحية

كانت في احدى البلاد شجرة يسكن فيها زوج من الغربان كانا كلما أنجبا صغارا تسللت حية من نوع الكوبرا اتخذت جحرها في جذع الشجرة لتلتهم صغـــار الغربان قبل أن ينبت ريشها وتتعلم الطيران . وتملكهما اليأس فذهبا لى صديق حميم من بنات آوى ، كان يعيش عند سفح شجرة أخرى وقالا له : أيها الصديق ، بم تشير علينا أن نفعل في هذه الحالة ؟ إن الحياة والموت بالنسبة لنا سيان مادامت صغارنا تنتزعها منا تلك الحية وتلتهمها . فقال : لا تيأسا من رحمة الله . والرأى عندى أن هذه المخلوقة الشرهة لا يمكن القضاء عليها الا بالحيلة :

فبعد أن التهم طائر البلشون أسماكا كثيرة من أجود الأنواع وأوسطها وأسوئها ازداد شرها ولقى حتفه على يد سرطان بحرى !

فسأله الغرابان وكيف كان ذلك؟ فقال :

الحكاية الخامسة

طائر البلشون والسرطان البحرى

يحكى أنه كان في أحد الأقاليم بحيرة مملوءة بكل أنواع السمك وكان هناك بلشون اتخذ مسكنه بالقرب منها . وتقدمت به السن وأصبح عاجزا عن صيد الأسماك . فذهب إلى حافة البحيرة وتظاهر بالحـــزن والهم ولبث ينتظر . واتفق أن رآه سرطان بحرى حوله سمك كثير فقال : عماه ، لماذا لا! تحاول اليوم أن تحصل على طعام كما كنت تفعل من قبل . فقال طائر البلشون : أنا كما تعلم يابنى أقتات بالسمك وسوف أتحدث اليك بلاموار بة . لقد عرفت أنى لن أجد القوت بعد اليوم ولذا فأنا كما ترانى حزين مغموم . فقال : وكيف ذلك يا عماه ؟ فقال طائر البلشون :

لقد مر اليوم بعض الصيادين بهذه البحيرة وقالوا :لاشك أن في هذه البحيرة سمكا كثيرا وغدا نلقى فيها بالشباك ونصيب صيدا وفيرا . فقال أحدهم : ولكن هناك بحيرات أخرى بالقرب من البلدة لم نتردد عليها بعد ، والرأى عندى أن نبدأ فيها بالصيد ثم نكر راجعين الى هذه البحيرة . ولهذا فأنتم أيها الصديق هالكون جميعا لا محالة وأنا بدورى لن أجد ما أتقوت به وسوف أموت جوعا ، ولهذا فأنا جد حزين وقد امتنعت اليوم عن الطعام . وما أن سمع السرطان البحرى منه هذا القول حتى انطلق إلى السمك وأبلغهم بهذا النبأ ، وأقبلت الأسماك جميعا وقالت لطائر البلشون : قد يلتمس المرء وسيلة للنجاة عند من تعارف الأحياء على أنه مبعث الخطر . ومن أجل ذلك جئنا اليك نلتمس منك أن تنقذنا . فقال طائر البلشون : أنا طائر ولا طاقة لى بمكابرة الرجال ، ومهما يكن من أمر فانى أعدكم بأن أحملكم واحدا واحدا في كل مرة من هذه البحيرة إلى بركة أخرى غير ضحلة . ولما كان الفزع قد دب في قلوب الأسماك فقد تصايحوا فرادى ؟ أيها الأب الصغير ! أيها الأخ !

أيها العم ! خذنى أولا ! وبدأ الوغد يحمل الأسماك واحدة واحدة وكان يلقيها على صخرة كبرى لا تبعد كثيرا ويلتهمها واحدة اثر الأخرى . ووجد في ذلك متعة وأى متعة ! وكان السرطان البحرى بدوره في فزع شديد على حياته من الصيادين فأخذ يتوسل إلى طائر البلشون أن يحمله وقال له : عماه ، هلا تكرمت بانقاذى أنا أيضا من براثن الموت . وعندئذ أخذ ذلك المخلوق الشرير يفكر وقال لنفسه : لقد سئمت لحم هذا السمك الذى لا يتغير طعمه وبودى أن أتذوق طعم لحم السرطان البحرى ولا شك أنه من أطيب أنواع اللحم وأن طعمه لذيذ . » والتقط السرطان البحرى وحلق به في الفضاء ولم يحاول أن يتجه صوب بركة ماء واحدة ، ووصل إلى الصخرة التى كان يقتل عليها الأسماك وهم بأن يلقيه فوقها . ووقع بصر السرطان البحرى على كوم كبير من عظام السمك ، التى التهم طائر البلشون لحومها وقال لنفسه : تبا لهذا الشرير لقد مكر بالسمك والتهمه فماذا عساى أصنع الآن ؟ على أية حال : إذا هوجم عاقل ورأى أنه لا مهرب له من الموت فخير له أن يلقى حتفه وهو يقاتل عدوه . وأمسك السرطان البحرى برقبة البلشون الأحمق وضغط عليها بكلبتيه القويتيين ففصل رأسه عن جسده . وأخذ السرطان البحرى عنق البلشون التى تشبه ساق زهرة اللوتس وزحف في بطء شديد إلى البحيرة التى كان يعيش فيها مع السمك . وقالت له الأسماك عندما رأته : أيها الأخ أين عمنا ؟ فقال . لقد لقى الشرير حتفه وهاهى ذي رأسه .

انه خدعنا والتهم الكثير من رفاقكم بيد أنى اكتشفت أخيرا أمره ولقى مصرعه على يدى .

[نهاية الحكايـــة ٥]

ولهذا أقول : بعد أن التهم طائر البلشون أسماكا كثيرة من أجود الأنواع وأوسطها وأسوئها ازداد شرها ولقى حتفه على يد سرطان بحرى .

فقال ذكر الغراب لابن آوى : وبم تشير علينا أن نفعل ؟ فقال : حاول أن تظفر بسلسلة ذهبية لأحد الأغنياء وليكن ملكا أو وزيرا أو ما أشبه ، وضعها

في جحر الحية وسوف يتكفل من يأتون لأخذها بقتل الحية . وانصرف ابن آوى بعد أن انتهى من حديثه وطار الغرابان بعد أن سمعا ما قال . وأخذا يحلقان في الفضاء هنا وهناك سعيا وراء سلسلة ذهبية . وسرعان ما وصلت أنثى الغراب إلى احدى البحيرات وتطلعت حولها فرأت حريم ملك من الملوك وهن يسبحن ويلعبن في البحيرة بعد أن خلعن ثيابهن وسلاسلهن الذهبية وعقودهن اللؤلؤية وغيرها من الحلى وانقضت أنثى الغراب على احدى السلاسل الذهبية واختطفتها وانطلقت بها تحلق في الفضاء متجهة نحو بيتها في بطء وحرصت على ألا تغيب عن الأنظار . وتنبه الياوران والخصيان إلى سرقة السلسلة فتناولوا عصيهم وانطلقوا يتعقبونها أينما ذهبت.ووصلت أنثى الغراب إلى جحر الحيّة ووضعت فيه السلسلة الذهبية وأخذت ترقب ما يحدث وهى على مبعدة . وتسلق أتباع الملك الشجرة فوجدوا في جذعها الحية ، وقد مدت قرنها ، فانهالوا عليها ضربا بالعصى حتّى قتلوها وأخذوا السلسلة الذهبية وقفلوا راجعين إلى حيث كانوا . وعاش زوج الغربان منذ ذاك في هدوء وسلام .

[نهاية الحكاية ٤]

ولهذا أقول: يستطيع المرء بالحيلة أن يحقق ما يعجز عنه بالعنف ، وليس في هذا العالم ما يعجز عنه صاحب الحيلة . وقد قيل :

العاقل قوى أما الأحمق فأنى له أن يكون قويا ؟ ألا ترى كيف صرع الأرنب الأسد معتزّ ؟ فقال كرطاكه : وكيف كان ذلك ؟ فقال ؛ :

الحكاية السادسة

الأسد والارنب

يحكى أنه كان هناك أسد يدعى (معتز)يعيش في احدى الغابات . وكان شديد البطش لا تسلم الوحوش أبدا من أذاه . وعندئذ أقبلت الوحوش جميعا إلى الأسد وقالت له في تواضع : أى فائدة تجنيها يامولانا من هذا القتل بالجملة لجميع الوحوش واعدامهم بلا رحمة ولا هدف ، ان هذا إثم كبير يطيح

بآمال جلالتك في نعيم العالم الآخر . وإذا لم تكف عن هذا العمل فاننا جميعا هالكون لا محالة ، وسوف تستيقظ يوما فلا تجد ما تتقوت به ومن هذا ترى ان الخطة التي تنتهجها سوف تؤدى الى هلاكك والقضاء علينا . فهلا تفضلت وصنعت فينا معروفا ، لقد اتفقنا على أن نرسل لك كل يوم دابة من كل قبيلة على التوالى تكون طعاما لك . فقال الأسد : لا مانع لدى وأخذت الوحوش منذ ذاك ترسل اليه كل يوم دابة واحدة كان يلتهمها واتفق يوما أن أصابت القرعة أرنبا من احدى القبائل فبعثت به جماعة الوحوش إلى الأسد ليكون له طعاما فقال الأرنب لنفسه : كيف أضع نفسى بين براثن الموت ؟ إن هذا معناه أن أودع اليوم الحياة . ترى ماذا أفعل ؟ ولكن هل هناك شيء يعجز عنه صاحب الحيلة ؟ أبدا وسوف أصرع الأسد بالحيلة . وانطلق يسير في بطء شديد فوصل بعد الموعد الذى اعتاد فيه الأسد أن يتناول غذاءه . وتميز الأسد غيظا وعضه الجوع بنابه فقال للأرنب وهو يحتدم غضبا : ما جدوى الغضب؟ أن أسوأ ما يمكن أن أعاقبك به هو القتل وانت اليوم هالك لامحالة ولكن هلاقلت لى لماذا تأخرت على ؟ فانحنى الأرنب للأسد وقال له متلطفا : مولاى إذا كنت قد تأخرت فقد حدث هذا لأسباب خارجة عن إرادتى . فبينما أنا في طريقى اليك اعترضنى أسد آخر وهم بأن يلتهمنى فبادرته بقولى : إنى ذاهب لمولانا الأسد معتز . فقد وقع على الاختيار لأكون له طعاما . فقال ، ومن يكون هذا الأسد معتز ؟ انه لص . اذهب اليه وعد معه إلى سريعا . وسوف أنازله وكل من يتغلب على خصمه يكون من حقه أن يكون ملكا لجميع الوحوش ويستطيع أن ينعم وحده بأكلها . وهذا ما حدث يامولاى وها أنذا أقصه عليك وما على الا البلاغ . وما أن سمع الأسد معتز هذا القول حتى انتفض غضبا وقال : كيف يكون هناك أسد غيرى في هذه الغابة التى أحكمها بذراعى اليمنى ! هيا بنا وأرنى هذا المحتال ! فقال الأرنب : مادامت هذه رغبتك فهيا معى يامولاى لأريه لك ؟ وأخذه الأرنب إلى بئر عميقة زاخرة بالماء الصافي وأشار اليها قائلا : انظر هناك !

ها هو ذا ! ورأى الأسد الأحمــق خياله في المــاء فقال في نفسه : اذن فهذا غريمى ! وتميز حنقا وأطلق زئيره المعروف فارتد صداه على أثر ذلك من البئر مضاعفا ، وصك سمع الأسد فقال في نفسه : لا بد أنه قوى جدا ! ووثب واندفع اليه فلقى حتفه في البئر غرقا . ورقص قلب الأرنب من الفرح وعاد إلى الوحوش يبلغها نبأ مصرع الأسد فهللت فرحا وقدمت اليه شكرها الجزيل وعاش الأرنب في تلك الغابة في سلام .

[نهاية الحكاية ٦]

ولهذا أقول العــاقل قوى ، أما الأحمق فأنى له أن يكون قويا . ولما سمع كرطاكه هذا قال : إذا كان الأمر كذلك فاذهب وليحالفك الحظ . افعل ما تراه خيرا .

وانطلق دمنكه إلى بنجلكه وحياه وجلس فقال له : من أين[1] أقبلت ؟ لم أرك منذ عهد طويل . فقال : لقد أتيت يامولاى لأبلغك بأمر أعتقد أنه يعرضك لخطر داهم . وأظن أن هذا البلاغ لن يسر بعض التابعين . والحق أن الجميع لا يبلغون عن مثل هذه الأمور الا عند ما يرون أن تقاعسهم عن التصدى للخطر (بعد فوات الأوان للاستعداد له بسبب إعراضهم عن الحديث) يؤدى إلى إحباط المشروعات المستقبلة لمولاهم . وقد قيل : عندما يقدم العقلاء ، وان لم يكونوا وزراء مشورتهم ، فانهم خير أرض تنبت فيها المحبة التى ترويها المودة .

فقــال له بنجلكــه متلطفا إذ خيل اليه أن لديه كلاما جديرا بأن يحظى منه بالانتباه ماذا تريد أن تقول ياسيدى ؟ فقال : هذا ما أريد أن أقوله بالضبط ؛ إن هذا الثور سمجيفكا يفكر في أن يلحق بك الأذى وقد كاشفنى بهذا السر في لحظة وثق فيها بى فقال لى : لقد اكتشفت مدى ما يملك هذا الأسد بنجلكه من قوة

(١) أو لمــاذا

مضاعفة ثلاثا [1] وعزمت على أن أقتله واستولى على الملك . وعندما سمع بنجلكه منه هذا القول وقع على نفسه وقع الصاعقة وخفق قلبه بشدة وتملكته الحيرة ولم يستطع أن ينبس ببنت شفة وعندما رأى دمنكه تغير ملامح وجهه قال : من الواضح أن ما أصاب هيبتك من نقص انما نشأ بسبب انفراد وزير واحد بالحكم معك وفي هذا قيل بحق : عندما يرقى وزير أمير إلى منصب رفيع جدا فان ربة الحظ تحاول أن ترفعهما وتثبت قدميها على الأرض باحكام ولكنها تعجز عن تحمل ثقلهما معا ، لأنها أنثى ، فتترك أحدهما يسقط على الأرض ، وعندما يخول ملك وزيرا واحدا السلطة المطلقة في مملكته فان الوزير يغتر بنفسه ويشمخ بأنفه ، ويتطور بفعل البلادة التي يولدها الكبر ، الى عزوف عن النهوض بتبعات منصبه ، وتنشأ بسبب هذا العزوف رغبة في الاستقلال بالحكم ، تجد لها مكانا في قلبه ، وبدافع من هذه الرغبة في الاستقلال بالحكم يتآمر على حياة الملك . عندما يتناول المرء طعاما ساما أو يعانى من سن مخلخلة أو يتعرض للأذى من وزير ظالم فلا نجاة له الا بالخلاص منهم جميعا [2] . وها هو الآن مطلق اليد ، لا يكبح جماحه أحد ويتصرف في كل الأمور كما يشاء ويهوى . فماذا يجب عمله في هذه الحالة ؟

الرأى عندى أنه حتى إذا كان هناك وزير مخلص لا يشك أحد في اخلاصه ، يدير أمور الدولة بطريقة تضر بمصالح الملك فمن الواجب على الملك ألا يتركه وشأنه لأنه اذا أطلق له العنان قضى عليه .

وعندما سمع الأسد منه هذا قال : ولكنه تابع أمين لم أرقط له مثيلا ! فكيف يتخذ مني هذا الموقف المعادي ؟ فقال : مولاي سواء أكان تابعا مخلصا لك أم لم يكن ، فانه لا يمكن من ذلك استخلاص نتيجة يطمأن اليها . وقد قيل :

---

(١) مصطلح في علم السياسة وتتكون القوة المضاعفة ثلاثا من برجهوتفا « الرفعة » ومنترا « النصيحة الخالصة » وأتصاها « الاقدام » .

(٢) حرفيا اقتلاعهم من جذورهم .

ليس هناك من لا يتطلع الى جلال الملك وأبهة السلطان ولا يقوم بخدمة أمير الا من تكسر شوكته ويجرد من السلطة .

فقال الأسد : ومع ذلك أيها الصديق فان قلبي لن يتحول ضده لأن : من ذا الذى لا يكون جسده عزيزا عليه ولو كان مشوها ، مصابا بكثير من العيوب؟ إن المحبوب يحتفظ بمكانته في القلب مهما اقترف من آثام . فقال دمنكـــه : هذا بالضبط سبب محنتك ، لقد نبذت يا مولاى جميع الوحوش ولم تقرب اليك أحدا سواه ، وها هو ذا الآن يتحرق شوقا الى أن يكون ملكا . وقد قيل أيضا : إذا بالغ ملك في تقدير شخص واحد ، ولو كان ابنه أو قريبا له ، فلا يلومـــن إلا نفسه اذا سرق منه قلب ربة الحظ .

واذا ظننت أنه سيكون عونا لك لما وهبه الله من بسطة في الجسم فهذا أيضا خطأ إذ قيل ؟ ما فائدة فيل هائج يسيل من أذنيه سائل العصير ومن لا يقوم بعمل فيل ؟ إن خير من يدب على الأرض ، عاليها وأسفلها ، هو من يؤدى عملـــه باخلاص .

ومن ثم يا مولاى أرى أنك لا تنتهج سبيل النجـــاح اذا تجاهل امرؤ رأى الأخيار وتشبث برأى الأشرار فان مصيره الى الهلاك ، ومثله مثل رجل مريض يلتهم كل شيء .

إن أسمى مراتب الحكمة أن يستشير المرء اخوانه ، واذا انفرد برأيه ســـقط عن مكانته ووجد نفسه في براثن أعدائه .

ان الرأى يؤتى ثمرته ، حيث يعطى امرؤ ويأخذ آخر ، ولو كان ذلك الرأى ثقيلا على السمع بغيضا للنفس — فهناك تحب ربة الحظ أن تقيم .

على المرء ألا يقرب القادمين الجدد على حساب أتباعه الذين خدموه طويلا ، فليست هناك آفة أشد وأخطر على الملك من هذه المعاملة .

فقال الأسد : عندما يجمع الناس على أن شخصا يتمتع بصفات نبيلة فـــإن من يحفظ عهده لا يستطيع أن يقول إن ذلك الشخص يفتقر الى هذه الصفات .

يضاف الى ذلك انى منحته جواز الأمان وبعث في طلبه وجاءنى يطلب الوسيلة فأطعمته فكيف يصل به الجحود الى حد التآمر على حياتى ؟

فقال دمنكه : ان الخبيث شرير بفطرته ، ويتصرف بوحى منها على الرغم من الاهتمام به ورعايته ومثله مثل ذنب الكلب الذى يحاول أحدهم أن يقومه بوساطة الربت عليه ودهنه بالزيت . وقد قيل أيضا : على المرء ألا يتردد في مصارحة صديقه برأيه دون أن يدعوه أحد ليجنبه الأذى . فهذه هى شيمة الأخيار . ومن لا يفعل ذلك يكون من الأشرار .

وقيل أيضا :

على المرء أن يحاول كبح جماح القريب أو الصديق ، والملك أو الشخص الجليل ، عندما يضل عن الطريق المستقيم . واذا تعذر كبح جماح المخطىء فانه سوف يفعل بعد ذلك ما يحلو له .

وليس من شك في أنه خائن . وعلى النقيض من ذلك ، على من يتمنون الخير لأصدقائهم الذين يهمون بارتكاب إثم أن يكبحوا جماحهم ويجنبوهم التعرض للألم . فهذا هو سلوك الأخيار ، وأى شىء سواه هو سلوك الأشرار :

إن من يمنع أحدا من اقتراف إثم لمخلص حقا وخير الأعمال ما خلا من الاثم وخير زوجة هى المطيعة لزوجها والعاقل حقا هو من يرضى عنه الأخيار وما لا يؤذى ثروة حقة والسعيد حقا هو من لا ينساق وراء رغباته ، والصديق حقا من يمنح صداقته بلا تحفظ ، والرجل حقا هو من لا تعذبه حواسه .

لأن يجرب المرء صديقا يفترش جمرات من نار أو يتوسد ثعبانا خير له من أن يصاحب رجلا ينصرف الى الرذيلة .

والرأى عندى أن صحبتك لسمجيفكا سوف تؤدى الى أن تفقد جلالتك أهداف الرغبة البشرية [1] واذا تجاهلت جلالتك ما قلت على الرغم من تكرار تحذيرى لك وفعلت ما يتراءى لك ، فلا لوم ولا تثريب على خادمك اذا حلت بك بعد هذا كارثة . وقد قيل :

---

(١) الدين أو الاخلاق ، والغنم الدنيوى والحب

إن الملك الذى ينساق لأهوائه لايقيم وزنا للواجب أو يهمه النفع ، ومثل من ينساق وراء شهواته بلا وازع ، مثل فيل هائج ، ولهذا فانه ، عندما تنتفخ أوداجه بالكبرياء ، يتردى في هوة الحزن وثم يلقى اللوم على خادمه ، ويتجاهل أن ما أصابه كان بسبب سوء تصرفه . فقال الأسد : اذا كان الأمر كذلك ، أفلا يجدر بنا أن ننصحه ؟ فقال دمنكه : وكيف يخطر لك أن نصحه مستطاع ؟ وأى ضرب من السياسة هذا ؟

ان العدو الذى تنصحه اما أن يبادر بالتآمر عليك أو يهاجمك بالقوة . ومن الحكمة أن تنصح عدوك بالأفعال لا بالأقوال .

فقال الأسد : ولكن كيف يستطيع أن يؤذيني وهو آكل للعشب وأنا آكل للحم ؟ فقال دمنكه : صحيح انه آكل للعشب وجلالتك آكل للحم وهو طعامك الطبيعى وأنت بفطرتك من الوحوش التى تتغذى به ومع ذلك فانه اذا لم يؤذك بنفسه فسوف يكون سببا في الحاق الأذى بك على يدى غيره . فقال الأسد : ولكن كيف يستطيع أن يؤذيني بنفسه أو على يدى غيره ؟ فقال : انك تعرف أن جسدك مثخن بالجراح التى نشأت من الضربات التى تلقيتها من الفيلة الهائجة والثيران والجواميس والخنازير البرية والنمور والفهود بمخالبها وأنيابها في المعارك التى نشبت بينك وبينها . وهو دائما يسير بالقرب منك ، يبعثر روثه وبوله في كل ناحية ، وهذا يؤدى الى توالد الديدان ، وبما أن جسدك في متناول هذه الديدان فانها سوف تتسلل اليه من خلال القروح التى نتجت من الجروح . وبهذا سوف يقضى عليك حتما . وقد قيل:

يجب ألا تؤوى قط من لاتعرف خلته والا أصابك ما أصاب القملة الزاحفة البطيئة عندما لقيت مصرعها بسبب خطأ البرغوث اللادغ [1] . فقال بنجلكه : وكيف كان ذلك ؟ فقال :

---

(١) هكذا ترجم الاسم الشاعرى تنطية ، الذى تضم النسخ أشكالا كثيرة له .

الحكاية السابعة

القملة والبرغوث

يحكى أنه كان لملك فراش لانظير له في قصره ، تتوافر فيه كل وسائل الراحة. وكانت هناك قملة تدعى الزاحفة البطيئة تعيش في جانب من الغطاء . وظلت هناك وقتا طويلا تنعم بامتصاص دم الملك وتمضى وقتها في بهجة وطرب. واتفق يوما أن برغوثا يدعى اللادغ ، دفعته الرياح الى الفراش الجميل ووسائده المزدوجة . ووجد أن الفراش عريض مثل ضفة نهر الكنج الرملية وأنه ناعم له شذى عاطر ، فسر سرورا عظيما وأخذ يطفر هنا وهناك وقد فتنه ملمس الغطاء. فرأته الزاحفة البطيئة وبادرته قائلة : من أين جئت لهذا القصر ؟ إنه ليس بالمسكن الملائم لك . اذهب من هنا فورا . فقال : سيدتى ، لقد تذوقت أنواعا كثيرة من دماء أناس من جميع الطوائف : براهمة وكصترية وفيشية وشودرية. بيدأن كل هذه الدماء كانت متخثرة غروية وطعمها غير مستساغ ، لاتسمن ولاتغنى من جوع . ولست أشك في أن دم النائم على هذا الفراش لذيذ له طعم الرحيق . ولا بد أنه خلو من أى مرض لأن نسبة الهواء والصفراء والبلغم [1] (في جسده) لا تتغير أبدا بفضل رعاية الأطباء له ومعالجته بالأعشاب وغيرها من الأدوية . ولاشك أن دمه غنى بغذاء يحتوى على عصير دسم رقيق . . غذاء مطيب بسكر النبات والعسل والرمان والتوابل الثلاثة (الفلفل الأسود والفلفل الطويل والزنجبيل المجفف) ولاشك أن جسده تفوح منه رائحة أطيب لحوم البهائم والأسماك والطير . ولابد أن دمه — كما اعتقد — مثل أكسير الحياة . وبودى أن أتذوق هذا الدم المغذى العاطر . فقالت الزاحفة البطيئة : لامجال للحديث في هذا مع أمثالك ، ولا أمل لك في تذوق دمه فلدغة من فمك لجسده مثل كى النار وأنت تعض بوحشية . فهيا انصرف عن هذا الفراش .

---

(١) هذه ثلاثة امزجة أساسية في جسم الانسان طبقا للطب الهندى . والاخلال وتغير النسبة الصحيحة لها فى الجسم يسبب المرض .

وعندئذ خر عند قدميها وأخذ يتوسل اليها مكررا العبارات السابقة نفسها فأخذتها الشفقة عليه ووافقت على بقائه قائلة : حسنا . ولكن يجب ، ألا تلدغه في وقت غير مناسب أو في موضع حساس من جسده . فقال : وأى وقت هو الأنسب في نظرك ؟ انى لا أعرف هذا لأنى لم أمر بمثل هذه التجربة من قبل ، فقالت : عندما يستغرق في نوم عميق بعد أن يهده التعب ، وبعد أن يثمل من الشراب أو عندما ينعم بنوم هادئ مريح بعد الاستمتاع بمباهج الحب عليك أن تشرع في العمل ولكن ببطء وفي رفق . انه عندما يستغرق في النوم بعد أن يتخدر احساسه بفعل الشراب فلن يكون من اليسير إيقاظه . فوافق البرغوث على ان يصدع بما أمرته به . ولكن البرغوث نقض هذا الاتفاق وتجاهل خصائص الوقت المناسب عندما أمضه الجوع ، فعض الملك في ظهره في باكورة هذا المساء وهو نائم أو يكاد . فقفز الملك مهتاجا وكأنما لسعته جمرة نار وصرخ قائلا : انظروا هنا . لقد قرصني شيء ما فابحثوا عنه . وفزع البرغوث عندما سمع كلمات الملك وغادر الفراش واختبأ في أحد الشقوق . وأقبل الحراس الى غرفة النوم ومعهم المشاعل وقلبوا أغطية الفراش تنفيذا لأوامر مولاهم وفتشوها تفتيشا دقيقا أسفر عن العثور على القملة « الزاحفة البطيئة » مختبئة داخل الغطاء فقتلوها .

[نهاية الحكاية ٧]

ولهذا أقول : يجب ألا تؤوى من لا تعرف خلته والا أصابك ما أصاب القملة « الزاحفة البطيئة » عندما لقيت مصرعها بسبب خطأ البرغوث « اللادغ » .

وعندما انتهى دمنكه من رواية الحكاية قال له بنجلكه : أيها الصديق ، كيف أستطيع أن أكون على يقين من أنه يقصد إيذائى ، وما هو الأسلوب الذى سوف ينتهجه في النزال ؟ فقال دمنكه : لقد اعتاد يامولاى أن يمثل في حضرة جلالتك ، وأساريره تنطق بالبراءة وخلو البال . فاذا اقترب منك اليوم وقرناه مشرعتان كمن يهم بالنطاح ، ورأيته يتطلع هنا وهناك في هلع كمن يتأهب للقتال ، فاعلم يا مولاى أنه ينوى إلحاق الأذى بك . وما أن قال دمنكه هذا وأيقن أنه

نجح في تحويل قلب الأسد ضد الثور حتى انطلق ليرى سمجيفكا . وسار اليه في تردد وتظاهر بالجزع . فسأله سمجيفكا متلطفا : ما بالك أيها الصديق ؟ أرجو أن تكون على ما يرام . فقال دمنكة : وكيف يكون التابع على ما يرام ؟ ألا ترى أن حظوظهم رهن بمشيئة شخص آخر ، وأذهانهم مشغولة دائما بما سوف يقع لهم ؟ ان من يعتمدون على الملوك لا يستطيعون أن يأمنوا حتى على حياتهم . وقد قيل : المعلمـــون والملوك متماثلون في الفطرة لا يدوم لهم ود ولاصداقة . والطاعة العمياء لهم– مهما طال بها العهد – تزول ، كما تبدد السحب الممطرة الغبار.

وقيل أيضا :

أى رجل على ظهر البسيطة يحصل على ثروة ولا تنتفخ أوداجـــه كبرياء ؟ ومن ذا الذى تنتهى محنه أبدا ؟ من ذا الذى لم تسحق قلبه النساء في هذا العالم ؟ قل لى بربك من يضمن صداقة الملوك ؟ ومن ذا الذى لايشرب كأس الحمام ؟ وأى شحاذ وصل الى مكانة علية ؟ وأى رجل خرج سليما بعد أن سقط في براثن الأشرار ؟ ولهذا قيل بحق : على الرجل أن يفكر في كل لحظة في الاجابة على هذه الأسئلة: متى [1] أتخذ أصدقاء، وأى نوع منهم أختار، وأين أجدهم، وما مقدار مواردى ونفقاتى ؟ من أنا وما مدى قوتى ؟ وعندما سمع سمجيفكا كلمات دمنكه ، الذى أخفى غرضه الحقيقى في قلبه قال : أيها الصديق ، ماذا تريد أن تقول ؟ فقال دمنكه : ان الواجب يحتم على عدم إهدار ثقة الملك بى ، ولكنى لا أستطيع أن أنسى أنك جئت الى هنا وبقيت معنا لثقتك بى .

وأرى أن الواجب يقتضينى أن أتحدث اليك بلا مواربة . لقد عرفت أن مولانا بنجلكه ينوى إلحاق الأذى بك فقد قال اليوم : لسوف أقتل سمجيفكا وأوزع لحمه على أتباعى . ولما سمع سمجيفكا منه هذا القول غاض قلبه بين ضلوعه، وتملكه يأس عميق : فقال له دمنكه : عليك أن تفكر بلا إهمال فيما يجب أن في هذه الحالة . ولما كان سمجيفكا قد اختبر دمنكة قبل ذلك ووجد أنه صادق في كلامه ، غاض قلبه أسى وفزع وفزعا عظيما وقال : لقد قيل:

---

(١) أى لأى عمل تصلح اللحظة الحالية ويكون المكان مناسبا .

النساء يحظى بهن اللئام والملك ، وهذه قاعدة عامة ، يختص بصداقته مـــن لا يستحقونها ، والمال يجرى وراء البخلاء . واله المطر يسقط المطر على الجبال وفوق البحر وقال لنفسه : وا أسفاه ! ماذا أصابنى ؟ لقد قيل أيضا :

ان المرء ليفكر باخلاص كيف يرضى الملك وينجح في ارضائه، فأى غرابة في ذلك ؟ ان أحدا لم يسمع من قبل أن إنسانا خدم صنما فجازاه بالعداوة !

ومن المؤكد أنه ليس هناك ما يمكن عمله في هذا الموقف .

لأن من يغضب لسبب ما سوف يزول غضبه ولا شك بزوال السبب . ولكن اذا كان قلبه ينطوى على ضغينة لا أساس لها فكيف يتأتى لآخر أن يطفئ نارها ؟ وفي هذا قيل بحق :

عندما تسعى بجعة حمقاء وراء زهرة لوتس بيضاء ليلا وتعض خيال كوكب منعكس على ماء البركة مرارا وتكرارا ثم تجد أنها كانت على خطأ فانها تعتقد أن زهرة اللوتس البيضاء كوكب ولا تعضها حتى أثناء النهار ،والذين وقعوا في براثن المحتالين (أصبحوا منهم على حذر يبحثون عن العيب حتى في الشخص المستقيم) . ومع ذلك: ليس من شك في أن الاساءات قد تحدث بلا سبب منطقى ، وسورات الغضب قد تثور بدون مبرر . ولكن الرجل الذى عرف بصواب الرأى واختبر قلبه كما اختبرت فعاله جميعا دهرا طويلا يجب ألا يهجر دون تدبـــــر لحقائق الموقف . وقد قيل أيضا : ان الملك الذى لا يسمع من أطبائه وحكمائه ووزرائه إلا ما يسره سرعان ما يخسر صحته وفضيلته وثروته . ثم قال : أى ذنب اقترفته في حق مولانا بنجلكه ؟ فقال دمنكه : أيها الصـــديق ، إن الملوك ، كما تعرف ، لا يلتمسون سببا لإظهار عداوتهم وهم دائما يفتشون عن العيوب في الآخرين . فقال سمجيفكا : هذا صحيح ، وفي هذا قيل :

لا يسلم من السخط والانتقام حتى الرجال الاوفياء المعاونون، الذين يخلصون الود ويقومون بأعمال نافعة ويعرفون كل شيء عن طبيعة الخدمة والمبرءون من كل خيانة ، إذا ما أقدموا مرة على خطوة خاطئة ، وقد يظفر هؤلاء بالنجاح

أولا يظفرون . ومن هنا فإن خدمة سيد الأرض (الملك) محفوفة دائمابالمخاطر ولوكان سيد المياه (المحيط) . تلك هي شيمة الملوك .

إن الكثير من العواطف الكريمة التي يبديها رجال لهم قلوب رقيقة تؤدى، مع ذلك ، الى البغضاء ، في حين أن الأذى الذى يلحقه آخرون بغيرهم غدرا لا يؤدى إلا إلى الحظوة . فمن الصعب إدراك ما يدور في أذهان الملوك ، ومن المعروف أن أمزجتهم متقلبة ، ولهذا فان أحوال الوزارة لغز يستعصى حله ، وبحر عميق لا يستطيع حتى السحرة أن يسبروا غوره .

الفضائل لا تعد كذلك إلا عند من يقدرونها . وعندما تمس إنسانا يفتقر الى الفضيلة تصبح أخطاء . فالأنهار يصبح ماؤها العذب غير مستساغ عندما تصل الى المحيط . ان الفضائل الصغيرة تصبح عظيمة مع الرجال الذين ارتفع شأنهم بسبب ما عرفوا به من فضيلة ، مثلها في ذلك مثل أشعة القمر عندما تلمس قنة الجبل الأبيض . ومئات الفضائل الانسانية تضيع بين رجال يفتقرون الى الفضيلة ، مثلها في ذلك مثل أشعة القمر التي تسقط ليلا على قمة الجبل الأسود . ومائة فضل يضيع بين اللئام ومائة حكمة تضيع بين الحمقى ، ومائة نصيحة خالصة تضيع عند امرئ لا يتقبل النصيحة ، ومائة قول مأثور يضيع بين الأغبياء .

وهبة تقدم لمن لا يستحقها تضيع ، والخير يضيع عند رجل لا يطوى قلبه على الخير ، والفضل يضيع عند الجحود ، والشفقة تضيع عند من لا يقدر الفضيلة.

مثل الخدمة لدى رجل غبي مثل الصياح في العراء ، أو تدليك جسد ميت ، أوزراعة نبات النيلوفر في أرض قاحلة ، أو الهمس في أذن أصم أو تقويم ذيل كلب ، أو هطول مطر على أرض ملحة أو تزيين وجه كفيف .

في أشجار الصندل تعيش الأفاعى ، وفي المياه تنمو أزهار النيلوفر وتعيش التماسيح ، والأوغاد ، كما نعلم ، بمثابة القضاء الداهم للأخلاق الطيبة ، فقل

لى بربك أين يجد المرء السعادة ، وأنى له بمتع لا تشوبها شائبة تنغص عليه حياته وتقض مضجعه ؟

وأزهار الكيتاكى تحيط بها الأشواك ، وأزهار النيلوفر تنمو في الطين ، والقوادون يرعون الفاجرات ، وأين الجوهرة التى لا عيب فيها ؟

فقال دمنكه : صحيح ان مولانا بنجلكه كانت كلماته في بداية الأمر تقطر حلاوة ولكن قلبه في النهاية أصبح لا ينطوى إلا على بغضاء كالسم الزعاف

فقال سمجيفكا : هذا صحيح أيها الصديق ، وقد خبرت هذا منه لأنه :

يرفع لك يده من بعيد ، وتبرق عيناه ، ويعرض عليك مشاركته في مقعده، ويبادرك بالأحضان الحارة ، ولديه جواب حاضر لكل سؤال ولكنه يخفى بين جوانحه سما ناقعا ، وكل ما فيه حلو ، وهو بارع للغاية في الخداع ، فأى أسلوب تخييلى مريع يلجأ اليه المحتالون !

كانت في البداية تتزين بحلى لامعة من الأدب والكلمات الرقيقة والبشاشة ، وفي منتصف الطريق كانت تقابل أيضا بالكثير من الاجلال بسبب كلماتها الجميلة التى تشبه أزهارا لا تحمل ثمارا ، بيد أنها في النهاية تبدو كريهة تفوح منها رائحة الحقد والفظاظة والخزى . وعلى المرء أن يبتعد عن صحبة الأخساء فهى لا تحقق أى هدف نبيل .

وا أسفاه! أى أساس مشترك يجمع بينى وأنا آكل للعشب وبين أسد يأكل اللحم ؟ لقد قيل : عندما ترسل الشمس أشعتها الرائعة على جبل الغروب تدخل النحلة زهرة اللوتس ، وهى تتحرق شوقا لتنهل الرحيق من أوراقها ، ولا تقيم وزنا للخروج من سجنها الذى يغلق عليها عند حلول الشفق . والرجل الطماع لا يفكر في الخطر ، في غمرة تعطشه للمتعة . والنحل الغادر يكف عن ارتشاف العسل من ورد الماء ويهجر زهرة اللوتس ولما تزل برعما ، وينبذ الياسمين ذا الشذى العاطر والسحر الأصيل لا لشىءالا ليسعى وراء العصير الذى يسيل من

آذان الفيلة [1] . والرجال يديرون ظهورهم لما هو ملك خالص لهم ويسعون بجنون وراء الحظ السعيد برمى النرد . وأسراب النحل تسعى حثيثا وراء السائل المنحدر على حواف وأصداغ الفيلة الهائجة ، وتتحرق شوقا الى تذوق العصير الحلو الطازج ، ولكن عندما تسقط كلها على الأرض وتسحقها لفحات الريح الشديدة المندفعة من حركة آذان الفيلة التى تشبه المراوح فانها وقتذاك تتحسرعلى العهد الذى كانت تلهو فيه وتلعب في كئوس أزهار اللوتس .

ولكن هذا ضعف ينتاب من يتمتعون بصفات رفيعة وقد قيل :

ان كثرة الثمار تحطم فروع الشجرة ، وغزارة ريش الطاووس تجعله بطيء الحركة ، والجواد الأصيل يستخدم كالثور في جر الأعمال ، والصفات الرفيعة في رجل ، كما ترى ، قد تحسب عليه لا له .

وكثيرا ما يشيح الملوك بوجوههم معرضين عن رجل يتمتع بصفات طيبة ، والنساء يؤثرن عادة بعطفهن الأشرار والحمقى من الرجال بسبب الطمع وحده ، ومن الثناء الزائف أن يقال إن علو مكانة الرجال تتوقف على صفاتهم النبيلة . والقاعدة العامة في هذا العالم أن الناس لا تهتم بما يتحلى به الانسان من سجايا فطر عليها . إن القدر يلهو بالناس كما يلهو الطفل بالدمى ، وهو يتقاذفهم هناوهناك كما يشاء ويهوى . . تستوى في ذلك الأسود الحبيسة في أقفاصها ووجوهها الشقية نحيلة من وطأة الاذلال ، والفيلة التى مزقت جوانب رءوسها أنياب منافسيها ، والثعابين المسحورة الساكنة ، والعقلاء الذين ترددوا في وهده البؤس ، والشجعان الذين قضى عليهم سوء الطالع . ومادمت الآن أعد من زمرة المخلوقات الدنيا فان حياتى مضيعة لا محالة . وقد قيل :

اذا توسلت مخلوقات ضعيفة بالحيلة ، وعمدت الى المكر والخديعة فقد تنجح في إلحاق الأذى بغيرها أو تنجو هي من الأذى كما فعل الغراب وصديقاه بالجمل . فقال دمنكه : وكيف كان ذلك ؟ فقال سمجيفكا :

(١) كلمة فيها لعب بالألفاظ وردت فى هذه الموشحة والكلمة السنسكريتيه معناها «أذن الفيل» و« سعيد فى رمى الزهر » .

الحكاية الثامنة

حاشية الأسد والجمل

يحكى أن أسدا يدعى « معتز » كان يعيش في إحدى الآجام . وكان له ثلاثة أصدقاء ، فهد وغراب وابن آوى . وبينما كانوا يضربون في الأجمة التقوا بجمل تخلف عن قافلة . وعندما رأى الأسد هذا المخلوق الذى لم ير له مثيلا من قبل ، أطلق ضحكة وقال لهم : سلوا هذا المخلوق من يكون ومن أين أتى ، فهو لا يشبه أى شيء رأيته في هذه الأجمة من قبل ! وتصدى الغراب لهذه المهمة ، وعاد بعد أن عرف الحقيقة وقال : هذا جمل يدعى « الخرافي » وأعطوه مواثيق الأمان وأحضروه للأسد . وروى لهم الجمل ما حدث له وكيف تخلف عن القافلة . وأسبغ عليه الأسد الحماية ومنحه جواز الأمان . واتفق أن أصبح جسد الأسد مثخنا بالجراح بسبب أنياب فيل اشتبك معه في معركة ضارية واضطر الأسد الى ملازمة مغارته . وانقضت خمسة أو ستة أو سبعة أيام، دون أن يغادر الأسد عرينه، فتعرض أصحاب الأسد الثلاثة للجوع الشديد بسبب نقص الطعام . ولما اشتدت بهم المحنة قال لهم الأسد : إنى ، كما ترون ، عاجز عن الحصول لكم على طعام ، كما كنت أفعل من قبل ، بسبب ما أعانيه من جراح فما الذى يحول بينكم وبين بذل جهد من جانبكم للحصول على الطعام ! فأجابوا : أى فائدة تعود علينا من الطعام ونحن نرى جلالتك في هذه الحالة ؟ فقال الأسد : أيها السادة إن مسلككم هذا خليق بالأصحاب الأوفياء : إخلاصكم لى يضرب به المثل . وحديثكم هذا ينبض بالصدق . ولكنكم غير عاجزين عن العمل في حين أنى مريض . ومادمت في هذه الحالة فعليكم أن تأتونى بشيء أتبلغ به . ولاذوا بالصمت فقال لهم : لماذا أراكم مرتبكين الى هذا الحد ؟ هيا اسعوا وراء أى مخلوق فأنا حتى في حالتى هذه سأمدكم وأمد نفسى بالقوت الضرورى للحفاظ على حياتنا . وعندما خاطبهم بهذا القول نهضوا وانطلقوا الى وسط الأجمة وأخذوا يضربون فيها على غير هدى فلم يجدوا

حيوانا واحدا يقتنصونه، فأبعدوا الجمل «الخرافي» من زمرتهم وبدأوا يحيكون خيوط مؤامرة خبيثة وقال الغراب : اننا هالكون لا محالة على الرغم من أن وسائل خلاصنا بين يدى مولانا . فقال الآخران : وكيف ذلك ؟ فقال : ما علينا الا أن نصرع هذا الجمل «الخرافي» وننقذ بلحمه حياتنا . ولم لا ؟ فقالا : ولكنه أقبل الينا لاجئا، ووثق بنا، وقبلناه زميلا لنا . فقال : إن الشركة بين أكلة العشب وأكلة اللحم غير متكافئة . ثم قالا : يضاف الى ذلك أن مولانا منحه جواز الأمان ومن ثم فان قتله لا يليق وعمل يستحيل أن نقدم عليه . بيد أن الغراب قال لصاحبيه : امكثا هنا وانتظرا الى أن أهيىء سبل النجاح لهذا الأمر . وما أن قال هذا حتى انطلق ليرى الأسد فقال له : هل وجدتم سيدا ؟ فقال الغراب : انما يجد الصيد من عنده البصر والقوة، نحن جميعا عميان عاجزون بسبب افتقارنا الى الطعام . ومهما يكن من أمر فان لدى اقتراحا لا أستطيع أن أحجم عن تقديمه لمولاى . إن الطعام متوفر بين يديك ومع ذلك فأنت لا تمد اليه يدا وتقضى على نفسك وهذا خطأ . فقال الأسد : وكيف السبيل الى ذلك ؟ فقال الغراب : أمامك هذا الجمل «الخرافي» فقال الأسد غاضبا : تبا لك ! لو قتلته لكان هذا عملا وحشيا . لقد أسبغت عليه الحماية وأعطيته العهد بأنه سيكون بيننا آمنا فكيف أقتله، وعلاوة على ذلك فان :

هبة الأمان أعظم الهبات جميعا في هذا العالم وهى أعظم من هبة بقرة أو أرض أو طعام . فقال الغراب : آه ! ما أعظم فهم مولاى لمبادئ الحق ! بيد أن هناك أمرا مهما آخر قاله حكيم عظيم وهو أن من الممكن أن تلجأ الى عمل الشر إذا كان فيه مصلحة للأخيار وقيل كذلك :

يمكن التضحية بفرد لصالح أسرة، وبأسرة لصالح قرية وبقرية لصالح أمة، ويمكن التضحية بالعالم بأسره لصالح النفس .

وأقول علاوة على ذلك : لا داعى لأن يقتله مولانا بنفسه . فقد أدركت كيف يمكن قتله بالحيلة . فسأل الأسد : بأى طريقة ؟ فقال الغراب : عندما يرانا ويرى مولانا في هذه الحالة السيئة يعرض نفسه ليكون طعاما لنا حتى ينال النعيم وتفيد منه المخلوقات الأخرى، وليس في هذا إثم . وعندما سمع الاسد

هذا الكلام من الغراب حار عقله ولم ينبس ببنت شفة : وعاد ذلك الغراب إلى صاحبيه وتكلم مع كل منهما على انفراد بألفاظ معسولة وقال : ألا ترى أن مولانا في حالة خطيرة وأن حياته معلقة بخيط [1] أوهى من نسيج العنكبوت . فلو أنه قضى فمن ذا الذى يحمينا في هذا العالم ؟ وبما أن الجوع [2] قد عضه بنابه وجعله يشرف على الهلاك فهيا نذهب اليه طائعين ونعرض عليه أنفسنا حتى نوفي بالدين الذى له في أعناقنا وننقذ حياة مولانا الذى طالما غمرنا باحسانه . واتفقوا على ذلك وذهبوا لزيارة الأسد وبينهم الجمل « الخرافى » وقال الغـراب : مولاى ، إننا لم نجد طعاما ولاشك أن سيدى قد أضناه طول الصيام ، ولـذا جئت اليك أتوسل أن تأكل لحمى . فقال الأسد على الفور : إن جسـدك يا سيدى جد ضئيل . ولو أكلت لحمك فلن أشبع . فانسحب وتقدم ابن آوى قائلا : مولاى ، انى أكبر منه جسدا ، وقد جئت أتوسل اليك أن تنقذ حياتك بأكل لحمى . فأجابه الأسد بمـا أجاب به الغراب وقال له : جسـدك يا سيدى جـد ضئيل ولو أكلت لحمك فلـن أشبع . وعندما سمع الجمـل « الخرافى » هذا القول من الأسد قال في نفسه : إنى لن أفقد حياتى على الاطلاق لو عرضت عليه نفسى . وسوف أردد ما قاله صاحباى . ونهض واقترب من الأسد وقال : مولاى إنى أكبر منهما حجما وها أنذا أضرع اليك أن تنقـذ حياتك بأكل لحمى . وقبل أن ينتهى الجمل من كلامه انقض عليه الفهد وابن آوى ومزقا جنبيه فهلك في الحال والتهم الجميع جسده .

[نهاية الحكايـة ٨]

ولهذا أقول : اذا توسلت مخلوقات ضعيفة بالحيـلة وعمدت الى المكـر والخديعة فقد تنجح في إلحاق الأذى بغيرها أو تنجو هى من الأذى كمـا فعل الغراب وصديقاه بالجمل . وعندما انتهى سمجيفكا من سرد هذه الحكاية عاد يقول للدمنكه : أيها الصديق ، يبدو أن هذا الملك تخدمه مخلوقات خسيسـة

---

(١) حرفيا « روحه » وصلت الى طرف أنفه .

(٢) لعل العبارة « الجوع والمرض » بدلا من الجوع .

تضمر الشر لأولئك الذين يعتمدون عليه وقد قيل ؟ إن نسرا يخدمه بجع يتنـــازع العيش في الماء أحسن حالا من بجعة تقوم على خدمتها طيور الجيفة المتوحشة التى تأكل اللحم . ولا شك أن الصديق الخسيس يقضى حتى على الرجل ذى الخلق القويم ، في حين أن الرجل الذى تعوزه فضيلة واحدة من الفضائل يتحول الى رجل فاضل اذا كان أتباعه لا يهبطون الى مستوى الخسة .

وهذا الملك قد انقلب ضدى بتحريض واحد أو آخر من الحاشية . وقد قيل :

إن جوانب كاملة لتزول من الجبل اذا قوضها سيل من الماء يتدفق ، برفق فكيف لا تتحول قلوب رقيقة بفعل رجال من ذوى الحيلة يسعون بين أصحابها بالنميمة . ترى ماذا أفعل في هذه الحالة ؟ الرأى عندى أنه ليس هناك شيء أفضل من القتال . وأرى ألا أنتظر وأمسك بزمام المبادرة . فقد قيل :

عندما يكون أب (أو شخص كبير) فظا متعجرفاً ، لا يفرق بين ما ينبغى وما لا ينبغى عمله ويضل في متاهات خبيثة فلا مفرّ من انزال العقاب به . إن العوالم التى يظفر بها من ينشدون الخلود بتقديم قرابين لا حصر لها ، وبالتعفف والجد وكثرة الصدقات ، يستطيع أن يظفر بها في لحظة واحدة الشجعان مـــن ذوى الاقدام الذين يستشهدون في قتال شريف . لابد من الدفاع عن الــروح والشرف والثروة بالقتال ، فالموت في ساحة القتال أعظم ما يطمح اليه الرجال من مجد ، وكل من يعيش تحت رحمة عدوه يكتب عليه الموت .

إنه إما أن يموت ويحصل على النعيم المقيم وإما أن يقضى على أعدائه ويظفـــر بنعيم الأرض . وليس من شك في أنه من الصعب على الرجال ذوى الاقـــدام أن يجمعوا بين هذين النعيمين . فقال دمنكه : أيها الصديق ، ليس هذا هــــــو السبيل الصحيح لأن :

من لا يقيم وزنا لقوة عدوه ويدخل معه في معركة لابد أن تحل به كارثة كما حدث للبحر من طائر البحر (السباق) فقال سمجيفكا : وكيف كان ذلك ؟ فقال دمنكه :

الحكاية التاسعة

طائر البحر والبحر

يحكى أنه كان هناك زوج من طيور البحر يعيشان في موضع من الشاطيء ، وعندما أوشكت أنثى الطائر على وضع بيضها قالت لزوجها : سيدى : هلا وجدت مكانا مناسبا لأضع فيه بيضى؟ . فقال : لماذا ؟ إن هذا الموضع الذى نعيش فيه رائع جداً ، فضعى بيضك هنا ولا تخشى شيئا . فقالت : لا تحدثنى عن هذا المكان . . إنه محفوف بالخطر وربما يجرفه البحر بأمواجه ويحمل معه صغارى . فقال : يا عزيزتى ، إن البحر لا يجرؤ على الاشتباك معى في هذه المعركة . فردت عليه ضاحكة : حقا ! إن هناك فارقا كبيرا بين قوتك وقوة البحر ! فكيف لا تدرك مدى قوته وضعفك ؟ وقد قيل :

من الصعب أن تعرف قدر نفسك ، وأن تشيد بقدرة أحد أو تندد بعجزه بالقياس الى أمر معين . ومن يتمتع بهذا النوع من التمييز لا يصيبه هم ولو تعرض لموقف عصيب . وقيل أيضا :

إذا لم يبال امرؤ بنصيحة أصدقائه وأصحابه ذوى النوايا الطيبة أصابه ما أصاب السلحفاة الحمقاء عندما سقطت بعد أن تركت العصا . فقال ذكر الطائر : وكيف كان ذلك ؟ فقالت :

الحكاية العاشرة

الاوز والسلحفاة

يحكى أن سلحفاة تدعى « الصدفية » كانت تعيش في إحدى البحيرات . وكان لها صديقتان من الأوز اسماهما الرشيقة والقبيحة . وتعرضت البحيرة بعد اثنى عشر عاما لجفاف . فقالت الأوزتان : لقد فقدت هذه البحيرة ماءها وحان الوقت لأن نذهب إلى بحيرة أخرى . فلنودع أولا صديقتنا العزيزة السلحفاة « الصدفية » التى عرفناها منذ أمد طويل . وقاما بتوديع السلحفاة فقالت لهما : لماذا تودعانى ؟ إذا كنتما تحبانى فعليكما بانقاذى أنا أيضا من براثن الموت . فمن الواضح أنكما لن تعانيا مثلى من ندرة الطعام في هذه البحيرة الضحلة ، أما أنا فالبقاء هنا لا يعنى بالنسبة لى سوى الموت الزؤام . فأيهما أخطر في رأيكما :

فقد الطعام أم فقد الحياة ؟ فأجابت الأوزتان : لقد قلت الحق . ومهما يكن من أمر فأنت تعرفين ما تقتضيه المناسبة . لسوف نأخذك معنا بلا توان وعليك ألا تفقدى رشدك وتتفوهي بشيء ونحن نحلق بك في الفضاء . فقالت السلحفاة : حسنا جداً ، لن أفتح فمي بكلمة . وأحضرت الأوزتان عصا وقالتا : والآن أمسكي هذه العصا بأسنانك بشدة ونحن سوف نمسك بها من طرفيها ونحملك بعيدا في الهواء إلى بحيرة كبيرة . وتم ما اتفقوا عليه . بيد أن الناس عندما شاهدوا السلحفاة محمولة فوق احدى المدن بالقرب من تلك البحيرة صاحوا قائلين : ترى ما هو ذلك الشيء الذى يشبه عجلة العربة ويحمله في الهواء طائران ؟ وعندما سمعت السلحفاة هذا فتحت فمها لتلقّى حتفها وتركت العصا لتقول : علام هذه الضجة كلها ؟ ولم تكد تفتح فمها بهذا الكلام حتّى وجدت نفسها تسقط . وهوت إلى الأرض فانقض عليها الناس وكل منهم يتحرق شوقا إلى تذوق لحمها ومزقوها إربا بالمدى الحادة في اللحظة التي وقعت فيها على الأرض ؟

[نهاية الحكاية ١٠]

ولهذا أقول : إذا لم يبال امرؤ بنصيحة أصدقائه وأصحابه ذوى النوايا الطيبة أصابه ما أصاب السلحفاة الحمقاء عندما سقطت بعد أن تركت العصا. وقيل أيضا :

نجت «بصيرة» و «بديهة» وفازتا بالحياة في هدوء وسلام وهلكت «توكل» .
فقال ذكر الطائر : وكيف كان ذلك ؟ فقالت :

الحكاية الحادية عشرة

بصيرة وبديهة وتوكل

يحكى أنه كانت هناك ثلاث سمكات كبيرات يعشن في بركة واسعة وكانت أسماؤهن: بصيرة وبديهة وتوكل . واتفق يوما أن سمعت بصيرة وهى تسبح في الماء بعض الصيادين الذين تصادف مرورهم بالقرب من البركة يقولون : هذه البركة مملوءة بالسمك وغدا نلقى فيها الشباك ونصطاد ما فيها من الأسماك . وعندما سمعت بصيرة هذا قالت في نفسها : لا شك أنهم عائدون غدا ولذلك علىّ أن آخذ بديهة وتوكل ونذهب الى بركة أخرى يكون ماؤها غير حبيس . ونادت صديقتيها توًّا وطلبت منهما أن يذهبا معها فقالت بديهة : لو جاء الصيادون فسوف أنجو بنفسى بوسيلة أو بأخرى تبعا للظروف . ولم تعبأ توكل بهذه الكلمات ، فقد كانت منيّتها قد حانت ، ولم تتخذ أى خطوة للذهاب . وعندما رأت بصيرة أن كلتيهما مصممة على البقاء دخلت مجرى النهر (منفذ البحيرة) وانتقلت الى بحيرة أخرى . وفي اليوم التالى جاء الصيادون بعد رحيلها وسدوا بمعاونة أتباعهم النهر من الداخل وألقوا بشبكة كبيرة واصطادوا الأسماك جميعا . فتظاهرت بديهة بالموت وبذلت قصارى جهدها لكى تبدو كذلك وهى في الشبكة . فقال الصيادون : إن هذه السمكة الكبيرة ميتة . وأخذوها من الشبكة ووضعوها بالقرب من الماء فقفزت توًّا وهربت بسرعة فائقة الى بحيرة أخرى . أما توكل فلم تعرف ماذا تصنع وأخذت تتحرك بلا هدف في هذا الطريق وذاك الى أن وقعت في الشبكة ولقيت حتفها ضربا بالهراوات .

[نهاية الحكاية ١١]

ولهذا أقول : نجت بصيرة وبديهة وفازتا بالحياة في هدوء وسلام وهلكت توكل . فقال طير البحر : هل تعتقدين ياعزيزتى انى مثل توكل ؟ لا تخافي . من ذا الذى يستطيع أن يؤذيك ما دمت أحميك بذراعى اليمنى ؟ ووضعت أنثى الطائر بيضها في الموضع نفسه ولكن البحر المحيط سمع خلسة

زهو طائر البحر أمام أنثاه وأراد أن يعرف جلية الأمر. وحمل البيض وهو يقول في نفسه : سوف أرى ما هو صانع . وعندما رأت أنثى الطائر أن العش قد قد خلا من البيض امتلأ قلبها غما وقالت لزوجها : انظر ألا ترى هذه الكارثة التى حلت بى لفرط شقائى ؟ ها قد حدث ما سبق أن قلته لك بالحرف الواحد . ففقدنا صغارنا لأننا اخترنا مكانا غير مناسب . فقال ذكر الطير : ياعزيزتى سوف ترين ما أصنع ! ونادى جمعا من الطير وأبلغهم بالكارثة التى حلت بهما بسبب فقد صغارهما . فقالت إحدى الطيور : لا طاقة لنا بقتال البحر المحيط . والرأى عندى أن خير ما نفعله هو أن نشكوه كلنا إلى الجاروضا[1] وبهذا نثيره ضده ، ولا شك أنه سوف يفرج كربنا . وما أن استقر رأى الطيور على هذا حتى انطلقت لترى الجاروضا . ولكن الرب نارباينه (فشنو) كان قد استدعاه للاشتراك في معركة نشبت بين الآلهة والشياطين . وفي تلك اللحظة أبلغ الطائران الملك العظيم ما أصابهما به البحر المحيط من ثكل بأخذ صغارهما وقالا : في الوقت الذى تشع فيه بالضياء يا مولانا ، إذا بالبحر يصيبنا بالضر نحن الذين لا نعتمد الا على مناقير للحصول على القوت الضرورى ولا نجد الا الكفاف فقد سرق صغارنا وحرمنا من أولادنا . فاستشاط الجاروضا غضبا عندما علم بما لحق رعاياه من بلاء ، ولكن الاله نارباينه (فشنو) علم بما يدور في ذهنه بفضل قدرته على معرفة الماضى والحاضر والمستقبل . وذهب ليراه وعندما شاهد الجاروضا الاله قال له بقلب مثقل بالهم ! : أيليق أن أتعرض للاذلال من المحيط اللعين وأنت ربى ؟ وعندما سمع الاله حقيقة ما حدث ابتسم وقال للمحيط : أعد لطائر البحر بيضه والا فانى سوف ألسعك بشواظ من ألسنة اللهب وأجفف أمواجك بألوف لا تعد من ألسنة النيران تحت الماء[2] وأحولك إلى أرض جافة . وعندما سمع المحيط أمر الاله فزع وصدع للأمر وأعاد لتوه بيض طائر البحر .

[نهاية الحكاية ٩]

---

(١) طائر أسطورى يمتطيه الاله فشنو ، ويعد ملك الطيور ، وهو فى الأصل الشمس فى صورة طائر
(٢) يعتقد الهنود بوجود نار تحت المحيط

ولذا أقول : مـــن لا يقيم وزنا لقوة عدوه ويدخل معه في معركة لابد أن تحل به كارثة كما حدث للبحر من طائر البحر (السباق) .

وعندما سمع سمجيفكا هذا من دمنكه قال له : قل لى أيها الصديق ، ماهو الدليل على أنه سوف يشتبك معى في قتـــال ؟ فقال : لقد اعتاد في الأوقات السالفةِ أن يجلس على صخرة مسطحة ، ويتطلع اليك وأطرافه مسترخية ، ينظر اليك بلا مبالاة . أما اليوم فسوف تراه يحملق في اتجاهك وأنت لا تزال بعيدا عنه ، وذيله مرتفع ، وأقدامه الأربعة مشدودة متوترة ، وهو فاغر فاه ، مرهف أذنيه ، وعندئذ تستطيع أن تدرك أنه يضمر لك الشر وتستطيع أنت أيضا أن تتأهب للقائه . ومـــا أن قال دمنكه هذا حتّى انطلق ليرى كرطاكه فقال له الأخير : مـــاذا فعلت ؟ فقال دمنكه : لقد بذرت بينهما بذور العداوة وسوف ترى النتيجة قريبا . فما الذي يدهشك في هذا ؟ لقد قيل :

إن الشقاق الذى يدبر باحكام قد يفرق بين ذوى القلوب الخالصة ، كما يفرق مجرى ماء متدفق بين جبال من الصخر الصلد . ؟

وعندما انتهى دمنكه من حديثه هذا انطلق مع كرطاكه إلى حيث كان بنجلكه وأقبل سمجيفكا يسير في بطء ، وقلبه مفعم بالهم ، تبدو عليه سمات القلق ، ورأى أن الأسد كما وصفه دمنكه فانسل إلى حضرته وهو يردد بينه وبين نفسه : لقد قيل في هذا بحـــق : مثل عقل الملك مثل بيت يختبىء فيه ثعبان أو غابة زاخرة بوحوش الصيد . وبركة ينمو فيها النيلوفر ببريقه الساحر ولكنها موبوءة بالتماسيح ، والرجال الأخساء الكذابون السفلة يسمون عقله ويعكرون صفوه دائما . ومن الصعب على الأتباع الجبناء في هذا العالم أن ينفذوا الى عقله . واتخذ سمجيفكا أهبته كما أشار عليه دمنكه وكذلك فعل بنجلكه فعندما رأى سمجيفكا في هذه الهيئة صدق ما قاله دمنكه ووثب عليه في اهتياج ومزق ظهر سمجيفكا بأطراف مخالبه التى تشبه الفؤوس ونطح سمجيفكا الأسد بطرفي قرنيه فمزق بطنه وابتعد ليتخلص منه . ونشبت معركة رهيبة بين المخلوقين المهتاجين. وعندما رأى كرطاكه أن جسدى الثور والأسد قد تلونا بلون أشجار بلاشه الاحمر

القانى في موسم الازهار أنحى باللوم على دمنكة وقال له : تبا لك أيها الشرير لقد نشبت هذه المعركة بسبب حماقتك . ان الوزراء حقا هم الذين يستطيعون ببراعتهم السياسية أن يحسموا بالمفاوضة السلمية مالا يقدر عليه غيرهم الا باجراءات عنيفة تستخدم فيها القوة الهائلة والعنف الشديد . والذين ينشدون مغانم صغيرة تافهة ويشيرون باستخدام القوة فانهم بنصيحتهم المضللة التى تفتقر إلى الفطنة انما يقامرون بمصير الملك . ألا تبالك أيها الأحمق ليس من شك في أن واجب من يعرف عمله حق المعرفة أن يجرب المصالحة لأن السياسة التى تنتهج المصالحة وحدها لا تنتهى قط بكارثة .

إن ظلام العداوة لا يتبدد بجوهرة لامعة ولا بالشمس ولا بالنار بل يتبدد بالمصالحة وحدها .

هناك أربعة مناهج سياسية مضاعفة أربع مرات تبدأ بالمصالحة وتنتهى بالعنف، والعنف أسوأها جميعا ولهذا يجب تجنبه . وقد قيل أيضا :

المصالحة والرشوة وبذر الشقاق ثلاثة أبواب مفتوحة توصل دائما للحكمة . أما الباب الرابع والأخير كما يقول أصحاب المروءة فهو العمل البطولى .

ان قوة الأقوياء – من الفيلة والحيات والأسود والنار والماء والريح والشمس – تصبح بلا جدوى إذا قورنت بالمناهج السياسية . ان كثيرا من الأبطال لاقوا حتفهم على الرغم من أنهم طوال عراض الأكتاف، ولم يهلكوا لأنهم حمقى، بل كانوا على بينه من أمرهم، فلماذا ساروا وراء القائد ؟ يضاف إلى هذا كله أنك قد أسرفت في اعتمادك المتعجرف على أنك وزير بالوراثة، وهذا سوف يؤدى بك إلى التهلكة .

إذا اكتسب المرء علما ولم يتحكم في حواسه بكل روحه، واذا لم يكن لهذا العلم فائدة في تدريب العقل على الحكم الصحيح، واذا لم يعتصم هذا العلم بالاستقامة، واذا كانت الخطابة أمام الناس مجرد ترديد للمحسنات اللفظية، واذا لم يكن العلم في خدمة السلام أو لم يحقق المجد، فأى فائدة في مثل هذا العلم ؟

يقال في علم السياسة ان للنصيحة خمسة عناصر هى : فكرة الأمر المطلوب الاضطلاع به، والمدد من الرجال والمال،واختيار الزمان المناسب والمكان المناسب، ومنع وقــوع الكوارث الداهمة ، وانجاز المشروع المنشود بنجاح . ومولانا الآن في خطر عظيم ولابد لنا أن نتدبر وسيلة لمنع وقوع الكارثة . وقد قيل أيضا: ان البراعة تظهر عند العمل ، وبراعة الوزراء تظهر في رأب ما تصدع ،وبراعة الأطباء في علاج المرض العضال، وعندما تكون كل الأمور على ما يرام فمن ذا الذى لا يستطيع أن يكون حكيما ؟

وأنت أيها الأحمق منحرف العقل وتتوهم أنك بارع ،وهذا يدفعك الى تدبير مافيه هلاكك .

وقد قيل في هذا بحق :

ان العلم الذى يقضى على الغرور، يولد الغرور في الحمقى،مثله في ذلك مثل، النور ، به تبصر العين وبه تعشى البومة .

وعندما رأى كرطاكه مولاه في تلك الحالة المحزنة غمره الحزن والأسى وقال: إن هذه الكارثة قد حلت بمولاى بسبب نصيحة غير حكيمة . وقد قيل في هذا بحق . إن الملوك الذين يصغون إلى رأى الأخساء ولا يسيرون في الطريق الذى رسمه الحكماء تحل بهم المصائب التى تملأ قلوبهم حسرة وأسى ويصعب عليهم الخلاص .

والآن أيها الأحمق ألا ترى أن كل عاقل يحاول جاهدا أن يخدم مولاه رجال من ذوى الفضل، ولكنك بذرت الشقاق بعباراتك المسمومة وقذفك في حق الآخرين، وفرقت بين مولاى وصديقه،فكيف يتأتى لمولانا ومثلك الى جانبه أن يظفر بخدمة ذوى الفضل ؟ لقد قيل: لن يقرب امرؤ من أحد الملوك ، ولو كان نبيل الصفات ، اذا كان له وزير حقود، ومثله في ذلك مثل بركة ماؤها صاف عذب ، تسكنها تماسيح ، تمتلئ جوانحها بالحقد . وانك بنزعتك الى تضخيم شخصيتك تود أن تجعل الملك منعزلا عن الناس أيها الأحمق . أفلا تعرف أن

الملك لايمجد إلا إذا كثر أتباعه أما الملك الذى يعتزل الناس فلا يمجد أبدا . والذين يودون له هذه العزلة ليسوا الا أعداءه . أفلا تدرك هذا أيضا ؟ وهكذا أرى أن الخـــالق قد جعل منك حالة فريدة يكذب فيها الشكل (الفطرة) . لأن على المرء أن ينشد الخير فيما يكره ، واذا وجد فسوف يكون طعمه سائغا . وعلى المرء أن يتوقع الزيف فيما يسره ، واذا وجد فانه يكون سما ناقعا .

وأضيف إلى هذا أن الغيرة كانت تنهش فؤادك كلما رأيت غيرك في نعمة . وانه لأمر خبيث أن تكره هذا لأصدقائك المخلصين . لأنه :

لاريب في أن الحمقى هم أولئك الذين ينشدون الظفر بصديق متوسلين بالخيانة أو طلب الاستقامة بالخداع أو الحصول على الثراء بظلم غيرهم أو تحصيل العلم بلا مشقة أو كسب حب المرأة بقساوة القلب .

وقد قيل أيضا :

إن ما يصيبه وزير من خير لابد أن يعود بالخير على الملك أيضا .

هل يكون للمحيط وجود بغير أمواجه التى ترتفع عالية وتتلألأ كالأحجار الكريمة ؟ على من ينال حظوة مولاه أن ينتهج السلوك الأقوم بصفة خاصة وقد قيل :

بقدر ما يمنح السيد خادمه من ثقة ، بقدر ما يضىء أمامه الطريق فيسير فيـــه بخطوات ثابتة مهما كان الضوء خافتا .

وإنى أرى أن شخصيتك متهافتة وقد قيل :

الرجل العظيم لاتتزعزع ثقته بنفسه إذا أصابته محنة ، والمحيط لايصير موحلا بتآكل شواطئه ، والرجل الإمعة ينزعج لسبب تافه واعشاب «دربها» تتأرجح ولو مر بها نسيم عليل .

ومع ذلك فاللوم كله يقع على مولانا ، لأنه قبل النصح من أمثالك ، وهو يجهل كل الجهل مناهج السياسة الستة[1] ولم يكثر بتحقيق أهداف الرغبة الانسانية الثلاثة [2] وقد قيل في هذا : ان الملوك الذين تسرهم كلمات الأتباع المنمقة المعسولة ولا يتأهبون لأعدائهم بالأقواس والسهام يخسرون أملاكهم .

ولاشك أنك بهذه الفعال قد برهنت على أن سياستك موروثة ، وأن أبـــاك كان مثلك تماما . ولكن أنى لأحد أن يعرف ذلك ؟ لأنه :

لابد أن يسير الابن على نهج أبيه ، فثمار المربلان لاتنمو على شجرة كتاكا . اذا كان الرجل عاقـــلا وخلقه قويما فعبثا يحاول العدو أن يجد صدعا في خطوط دفاعه يقتحم منه طريقه مهما طال به الانتظار ، اللهم الا اذا كشف هو بنفسه عن ثغرة في هذه الخطوط . وقد قيل :

من ذا الذى يستطيع أن يكتشف ، ولو حاول جاهدا ، المكان الذى يتبرز فيه الطاووس .[3] ألا تصف بالحماقة من رقصوا فرحا عند سماع هزيم الرعد ؟ . وعلى أية حال أى فائدة ترجى من توجيه نصيحة لشقى مثلك ؟ لقد قيل :

انك لا تستطيع أن تثنى خشبا شديد الصلابة ولا تستطيع ان تقطع حجرا بسكين ، واعلم أنك لاتستطيع أن تعلم أحدا لايريد أن يتعلـــم . والا أصابك ما أصاب العصفور ذى المنقار الابرى من القـــرد . فقـــال دمنكه : وكيف كان ذلك ! فقال كرطاكه :

---

(۱) أوردنا بها قائمة في صفحة ٤٢

(۲) انظـــر صفحة ٢٠

(۳) هذه عادة مزعومة للطواويس كثيرا ما تتردد فى الشعر الهندى

الحكاية الثانية عشرة

القرد واليراعة والعصفور

يحكى أنه كان في أحد الأقاليم قطيع من القردة . وأقبل فصل الشتاء فقاست القردة من البرد الشديد وتعرضت لكرب عظيم . واتفق أن رأت يراعةوحسبتها نارا فغطتها ببعض الأعواد الجافة والأعشاب وأوراق الأشجار ومدت أذرعها ودلت آباطها وبطونها وصدورها وأحست فعلا بالراحة بعد أن استشعرت دفئا وهميا . وبرز من بينها أحد القردة ، وكان مقرورا بصفة خاصة ، وظل ينفخ فيها بفمه طوال الوقت وهو منتبه اليها بكل جوارحه . ورأى عصفور يسمى ذا المنقار الابرى القرد وهو ينفخ في اليراعة فهبط من الشجرة وقال : لاتتعب نفسك أيها الصديق . ان هذه يراعة وليست نارا . ولم يعبأ القرد بكلماته واستمر ينفخ . وحاول العصفور مرارا وتكرارا أن يجعل القرد يكف عن هذا الصنيع ولكنه لم يتوقف. وللايجاز في سرد حكاية طويلة ظل العصفور يقترب من أذن القرد ويهمس فيها بعبارته في اصرار ، فاستشاط القرد غضبا آخر الأمر وأمسك بالعصفور بعنف وقذف به على حجر فقتله .

[نهاية الحكاية ١٢]

ولهذا أقول : أنك لا تستطيع أن تثني خشبا شديد الصلابة ولاتستطيع أن تقطع حجرا بسكين واعلم أنك لا تستطيع أن تعلم أحدا لا يريد أن يتعلم وألا أصابك ما أصاب العصفور ذى المنقار الابرى من القرد . وأقول بعد كل هذا : بم يفيد العلم ، اذا لقن لمن هو غير جدير به ؟ ان مثله مثل نور في قنديل مغطى بأحد البيوت . ولهذا فأنت ولاشك وليد سفاح . وقد قيل :

إن الذين تقوم آراؤهم على حكم سليم يجب أن يتعرفوا علىالابن المولود الذى يعقبه ، والمولود الخارق ووليد سفاح .

واعلم أن المولود يأخذ صفات أمه ، والوليد الذى يعقبه يأخذ صفات أبيه والوليد الخارق يتفوق على الأخير أما وليد السفاح فأدنى الأدنياء .

وقد قيل :

إن من يحمل عبء الأسرة ويضع تحت تصرفها ذكاءه وثروته وقوته التي لا تتوافر في شخص آخر هو الابن الحقيقى الوحيد لأمه . وقيل أيضا : أنى لك بفضل لا يتألق الا للحظة عابرة ؟ ألا ترى أن من الصعب أن تجد رجلا يتحلى بمقدرة لا تنتهى على انجاز ما يتصدى له من أعمال ؟

ها أنت ذا أيها الأحمق لاتحير جوابا ! وقد قيل : اذا أردت أن تعرف المجرم فاعلم أن صوته مبحوح وملامح وجهه متغيرة ولونه شاحب ونظراته زائغة تنم عن الفزع وجسده يرتجف فرقا من نتائج فعلته . وقد قيل :

الخب والمغفل لايقل أحدهما سوءا عن الآخر فالابن تسبب في اختناق أبيه بالدخان لأنه اشتط في الاحتيال .

فقال دمنكه : وكيف كان ذلك ؟ فقال كرطاكه :

الحكاية الثالثة عشرة

الخب والمغفل

يحكى أنه كان هناك ولدان من أبناء التجار يعيشان في إحدى المدن وكانا صديقين حميمين ، اسماهما الخب والمغفل . وضاقت بهما الأحوال فرحلا الى بلدة أخرى ليجربا حظهما ، وبينما هما في الطريق عثر ابن التاجر المسمى « المغفل » جزاء له على ما قدم من الطيبات ، على ألف دينار فضى في كيس كان قد خبأه أحد المرابين فتشاور مع الخب وانتهيا الى قرار اتفقا عليه وقالا : سوف نحصل بهذا المال على كل ما نحتاج اليه فلنأخذه ونعود الى بلدتنا . وقفلا راجعين .

وعندما اقتربا من موطنهما قال المغفل : لنقتسم الدنانير ويأخذ كل منـا نصفها وندخل بيوتنا ونعيش في أبهة بين أصدقائنا وأقاربنا وسائر الناس. فقال له الخب ، وأضمر في نفسه أن يخدع صاحبه ، حتى يدبر خطة يغنم بها المـال لنفسه : أيها الصديق مادام لدينا ما نقتسمه فان المودة بيننا سوف تظل وثيقة لا تنفصم عراها . وأرى أن يأخذ كل منا مائة دينار وندفن الباقي في الأرض في هذه البقعة ونعود الى بيوتنا ونأتي فيما بعد عندما تسنح الفرصة ونأخذ منه مانحتاج اليه . فـرد الآخـر : كما تشاء . ونفذا ما اتفقا عليه وأخفيا باقي المال بعناية في باطن الأرض عند سفح شجرة وعادا الى بيتيهما . وفي خلال ذلك العـام أنفق الخب نصيبه كله من المال اذ بدده في أغراضه الدنيئة وذلك لضآلة مآثـره (التي اكتسبها بفعاله الماضية) . وأخذ هو والمغفل دفعة أخرى من المال المدفون عند الشجرة وأصاب كل منهما مائة دينار . وفي نهاية العام الثاني أنفق هذا المال أيضا في الأغراض نفسها . وقال الخب في نفسه : لو اقتسمت معه الدفعـة الثالثة من المال (وأخذ كل منا) مائة دينار فسوف يتبقى اربعمائة دينار وهـو مبلغ ضئيل جدا لا يستحق السرقة . ولهذا أرى أن استولى على الستمائة دينـار الباقية واستأثر بها وحدى . وبعد أن استقر على هذا الرأى ذهب بنفسـه الى الشجرة وأخذ ما تبقى من المال وسوى الأرض فوق الموضع الذى كان مخبأ فيه . ولم يمض على ذلك شهر واحد حتى ذهب للمغفل وقال له دون أن ينتظر منه أن أن يدلى برأيه :

أيها الصديق ، ان على دينا لابد من سداده ، فتعال معى ، لنقتسم المبلغ الباقي بالتساوى . فوافق المغفل وذهب معه الى ذلك الموضع وشرعا يحفران . وعندما أتما الحفر ولم يجدا المال ، اذا بالخب يلتفت الى زميله في وقاحة ويضرب رأسه بحجر ويقول له في غضب شديد : أيها المغفل ! لابد أنك سرقت المـال، ولم يختلسه أحد غيرك . وعليك الآن أن تدفع لى نصفه ! فقال الآخر : لسـت بالرجل الذى يقدم على مثل هذه السرقة . ولست أشك في أنك أنت الذى سرق المال . وتشاجرا وذهبا الى المحكمة . وعند نظـر القضية استمع القضـاة الى أقوالهما وأمروا بالقبض عليهما معا لأن الأمر كان من الغموض بحيث يصعب

معه الوصول الى حكم قاطع . وانقضت خمسة أيام ، فقال الخب للقضاة : ان لدى شاهدا في أمر الدنانير ، فاسألوه . وراودهم الأمل في أن يفصلوا في القضية ، فسألوه : من هو شاهدك ؟ قدمه لنا ! فقال : إن شاهدى هو الشجرة نفسها التى كان المبلغ مدفونا عند جذورها . فاندهش القضاة وقالوا : كيف يتأتى لشجرة أن تقدم الدليل ؟ حسنا عليه أن يثبت قوله غدا . وسمحوا لكل مَنهما بالذهاب الى بيته بعد دفع كفالة معلومة . ولما ذهب الخب الى بيته توسل الى أبيه قائلا : أبتاه ، ان الدنانير بين يدى ولكن بقاءها في حوزتي يتوقف على كلمة واحدة منك . فقال أبوه : وماذا تريد مني أن أفعل ؟ فأجاب : عليك أن تختبىء في داخل جذع الشجرة الليلة ، وأن تظل مختبئا هناك . وعندما يسألك القضاة غدا عليك أن تقول : ان المغفل هو الذى أخذ المال . فقال أبوه على الفور : يا بنى ، هذا لن يفيد ولا شك أن أمرنا سوف يكتشف ويقضى علينا لامحالة وقد قيل :

على العاقل أن يفكر فيما يناسب ومالا يناسب الموقف وإلا أصابه ما أصاب البلشون الأحمق عندما أكلت النموس صغاره وهو يسعى على رزقه .

فقال الابن : وكيف كان ذلك ؟ فأجاب أبوه :

الحكاية الرابعة عشرة

طائر البلشون والثعبان والنمس

يحكى أنه كان هناك زوج من طيور البلشون يعيشان فوق احدى أشجار الأرجونا . وكانا كلما ولدا صغارا أكلها ثعبان متوحش يتسلل من جذع الشجرة المجوف قبل أن ينبت ريش أجنحتها ، وفقد ذكر البنشون صوابه من الحزن وامتنع عن تناول الطعام وذهب الى شاطىء بركة وجلس هناك وهو خائر العزيمة يندب حظه . فرآه سرطان بحرى وقال له : عماه ، لماذا أراك اليوم حزينا يائسا ؟ فأخبره بما حدث له وكيف التهم الثعبان صغاره . فواساه السرطان البحرى بقوله : سيدى سوف أدلك على وسيلة تقتله بها، انك تعرف جحر هذا

النمس فابدأ منه وبعثر لحم سمك في خط متعرج حتى تصل الى جحر الثعبان . ولاشك أن النموس سوف تنقض في شراهة على هذا الطعام ويأتون الى هنـــا ويجدونه . ولما كانت بينها وبين الثعبان عداوة طبيعية فانها سوف تقتله لا محالة . ونفذت هذه الخطة بحذافيرها وسارت النموس في الطريق الذى انتثر فيه لحـــم السمك وعندما عثرت على الثعبان لم تنس عداوتها التقليدية له فقتلته . بيد أنهـــا عرفت الطريق الى عش طائر البلشون فوق الشجرة والتهمت صغاره .

[نهاية الحكاية ١٤]

ولهذا أقول : على العاقل أن يفكر فيما يناسب وما لا يناسب الموقف والاأصابه ما أصاب البلشون الأحمق عندما أكلت النموس صغاره وهو يسعى على رزقه .

غير أن الخب تغلب عليـــه الجشع ، حتى بعد أن ســـمع هذه الحكايــة ، واصطحب أباه رغم ارادته ، ووضعه في جوف الشجرة . وفي الصباح تليـــت نصوص من مجموعة القوانين أمام الشجرة في حضور قضاة المحكمة فسمع صوت من الشجرة يقول : ان المغفل هو الذى أخذ المال . وعندما سمع المغفل هذه العبارة قال في نفسه : كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ ان ما حدث أمر مريـــع ومستحيل . ومن ثم سوف أتسلق الشجرة وأفحصها بنفسى . ونفذ عزمه بـــلا تردد ثم هبط من الشجرة وجمع أكواما من الحطب والأوراق الجافة وملأ بهـــا جوف الشجرة وأضرم فيها النار . وعندما أحرقت النار بلهبها والد الخب وكاد جسده يحترق ، جحظت عيناه وصرخ في صوت يفتت الأكباد وخرج مـــن جوف الشجرة وهو يكاد يشرف على الموت وهوى على الأرض . فدهـــــش الجميع وحملقوا فيه وبادروه بالسؤال : ما معنى هذا ؟

فأجاب : إن ابنى الخب ، هذا الشرير ، هو الذى زج بي في هذا المأزق . وما كاد يفرغ من قوله هذا حتى مات . وأدرك قضاة الملك الحقيقة وأمـــروا باعطاء المال للمغفل وقتلوا الخب على السفود .

[نهاية الحكاية ١٣]

ولهذا أقول : الخب والمغفل لا يقل أحدهما سوءا عن الآخر فالابن تسبب في اختناق أبيه بالدخان لأنه اشتط في الاحتيال .

وبعد أن فرغ دمنكه من رواية هذه الحكاية قال له كرطاكه : تبا لك أيها الأحمق . لكم أظهرت براعتك وقضيت على أسرتك .

وقد قيـــل :

ان الأنهار تنتهى بأن تصب في بحار ماؤها ملح أجاج والقلوب المتحابـــــة تتباغض بسبب النزاع على النساء والسر يفضحه واش ، والأسر يقضى عليهـــا الأبناء الأشرار .

يضاف إلى هذا أنه إذا كان لرجل لسانان في فم واحد فمن ذا الذى يثق به ؟ وقد قيـــل : مثل فم الأفاق ، مثل فم ثعبان به لسانان ترتجف من معولـــــه الأفئدة انه قاس لا يرحم ، ولاهم له إلا الحاق الأذى بغيره .

والرأى عندى أن العمل الذى قمت به يعرضني أنا أيضا للخطر . فقال دمنكه: وكيف ذلك ؟ فقال كرطاكه :

لا تثق بحقود لمجرد أنك كنت له صديقا حميما منذ وقت طويل . ألا ترى أن الثعبان يعض صاحبه على الرغم من رعايته له وعطفه عليه دهرا طويـــــــلا. الرجل الأمين لا غنى له عن التهذيب ، وعلى المرء أن يحترس من العاقل الماكر ، ومهما يكن من أثر فان الأحمق الأمين يجب أن يعامل بالرفق أما الأحمق الماكر فيجب الاعراض عنه تماما .

إنك بما قمت به من فعال لم تقض على أسرتك فحسب بل اقترفت اســاءة في حق مولاك أيضا . وما دمت قد زججت بمولاك في هذا المأزق فان أى انسان آخر سيكون قذى في عينيك . وقد قيل : اذا أكلت الجرذان ميزانا مصنوعا من ألف رطل من الحديد فلا عجب أن يحمل الصقر فيلا ، فلم تدهشـــون إذا حمل صبيا ؟ فقال دمنكه : وكيف كان ذلك ؟ فقال الآخر :

الحكاية الخامسة عشرة

الجرذان آكلة الحديد

يحكى أنه كان لتاجر ابن عاش في إحدى المدن وخسر كل أمواله فانطلق الى بلدة بعيدة ليجرب حظه . وكان له في بيته ميزان مصنوع من ألف بالا [1] من الحديد ورثه عن أجداده . فأودع هذا الميزان عند ابن لتاجر آخر ورحل الى البلدة البعيدة ليجرب حظه . ولازمه سوء الطالع فلم يكسب فلسا واحدا على الرغم من تكرار محاولاته فعاد أدراجه وطلب من ابن التاجر الآخر الميزان الذى كان قد أودعه عنده ولكن هذا الرجل كان جشعا فقال له : لقد أكلت الجرذان هذا الميزان . فقال الآخر في نفسه : هذا غريب كيف تأكل الجرذان ميزانا مصنوعا من ألف رطل من الحديد ؟ وابتسم وقال : هذا طبيعى جدا لأن الحديد حلو شهى ولين فلم لا تأكله الجرذان ؟

وهكذا أذعن للأمر الواقع ، فابتهج صاحبه وملأ السرور قلبه وعرض عليه الضيافة وأمر بغسل قدميه ومنكبيه ودعاه لتناول طعام الغذاء . وكان هناك نهر لا يبعد عن بيته كثيرا ذهب اليه الضيف وشرع في الاستحمام فبعث وراءه مضيفه بابنه الوحيد ومعه ثمار الماروبلان ورداء استحمام .

فبادر الضيف وأخذ الصبي وأخفاه في مكان آمن في بيت صديق ثالث وعاد وحده الى بيت مضيفه فسأله التاجر : أين ابنى الذى بعثت به وراءك ؟ انه لم يعد إلى البيت . فأجابه : وا أسفاه لقد اختطفه صقر وما ان سمع الرجل منه هذه العبارة حتى غاص قلبه بين ضلوعه وقبض على ذراع صديقه بشدة واقتاده إلى المحكمة وصاح : النجدة ! ! النجدة ! . إن هذا الرجل الشرير أخفى ابنى في مكان ما . فسأله القضاة : ما قولك في هذا ؟ فأجاب وهو يبتسم : لقد اختطفه صقر ! فدهش القضاة وقالوا له : هذا أمر لم يسمع به أحد

(١) وحدة الوزن لاتحددها معظم النسخ

من قبل . أنى لصقر أن يختطف صبيا . فقال : وما وجه الغرابة في ذلك ؟ اذا أكلت الجرذان ميزانا مصنوعا من ألف رطل من الحديد فلا عجب أن يحمل الصقر فيلا ، فلم تدهشون اذا حمل صبيا ؟

وعندما سمع القضاة منه ذلك وعرفوا الحقيقة قالوا لوالد الصبي : أعطه ميزانه المصنوع من ألف رطل من الحديد وهو من جانبه يعيد لك الصبي . فصدع الطرفان لهذا الأمر .

[نهاية الحكاية ١٥]

ومن ثم أقول : اذا أكلت الجرذان ميزانا مصنوعا من ألف رطل من الحديد فلا عجب أن يحمل الصقر فيلا ، فلم تدهشون اذا حمل صبيا ؟

ولكن ما جدوى تعليمك ما دمت عديم الادراك مثل أى بهيمة ؟ ألا ترى أن الحكمة تذيع بين المتعلمين وأن الزيت ينتشر على صفحة الماء وأن السم يسرى في الدم والود يدوم بين الأخيار والمودة تتوثق أواصرها بين النساء المغرمات والسر يفشى بين الأخساء والنبل يتأصل في عالم ذوى المروءة لأن : نبل الانسان لا يكمن في القواعد المقررة بين طائفته . وسمعة الخلق تضرب بجذورها في سلوكهم ، وهوان الذكر الذى يجلب معه سلسلة متصلة من المصائب ، تعذبالمثات ، يطارد الجحود في هذه الحياة الدنيا وفي العالم الآخر . وأن عداوتك الدائمة لكل من يتحلى بالصفات الجميلة فهذه آيضا راجعة الى مزاجك الذى فطرت عليه فقال دمنكه : وكيف هذا ؟ فقال كرطاكه :

القاعدة العامة في هذا العالم أن الخسيس لا يكف عن حسد نبيلى المحتد ، وأن سيئ الحظ في الحب يحسدون من يتمتع بالحظوة لدى النساء ، والبخلاء يحسدون الأسخياء والفقراء يحسدون الأغنياء والحمق دائما يحسدون الضليع في العلوم ، وقد قيل أيضا : لا تعلم انسانا الا اذا كان يفهم ما يقال له مرة واحدة . فأى فائدة في تعليمك وأنت غبي كالحجر الأصم .

وأقول لك علاوة على هذا، أيها الأحمق إني أرى أنه ليس من الحكمة أن أظل في صحبتك والا أصابني منها بعض الضر فقد قيل :

يكتسب الانسان من صحبته للأخيار والأشرار فضائل هؤلاء ورذائـــل أولئك ، مثله في ذلك مثل الريح التي تهب على مواضع مختلفة فتحمل الروائح الطيبة والخبيثة على السواء . وأنت لست بارعا الا في الحقد . أنت آفة للصداقة ولن تستقيم الأمور مادام أمثالك في موضع السلطة . وقيل أيضا :

إن الحقود لا يغنم لنفسه سوى الخسران . وذو المروءة لا يتردد في نجدة الملهوف حتى في وقت الضيق الشديد . ومن أجل هذا قيل :

ما لا ينبغي عمله يجب ألا يعمل أبدا ، وعلى العاقل ألا يشغل به ذهنه، فالناس لا يشربون الماء الملقى على قارعة الطريق ولو أضر بهم الظمأ الشديد . وبعد أن فرغ كرطاكه من كلامه انصرف الى حال سبيله . وزال غضب بنجلكه بعد أن صرع سمجيفكا ومسح يده التي لوثها الدم وقال وهو يتنهد وقد فاض قلبه غما وأسى وتملكه ندم شديد : واأسفاه ! لقد ارتكبت اثما كبيرا بقتلي سمجيفكا الذي كان مثل نفسي التي بين جنبي . وقد قيل : إن خسارة الأتباع بمثابـة الحكم بالاعدام على الملوك . لا شيء يعدل فقد قطعة من الأرض الجيدة أو فقد تابع من ذوي الرأي . بل ان استعادة الأرض أيسر من استعادة الأتبـــاع .

وعندما رأى دمنكه ما أصاب بنجلكه وأنه يبكي وينوح ، وقد غلبه الحزن والأسى زحف اليه متسللا وقال :

أيليق بك أن تحزن لأنك صرعت خصمك أم أن هذا من قبيل حســـن السياسة ؟ لقد قيل . لابد من قتل من يهدد حياة الملك ولو كان أباه أو أخاه أو ابنه أو صديقه ، اذا أراد الملك أن يدبر ملكه بنجاح .

يجب الاعراض عن ملك رقيق القلب وبرهمي يأكل كل شيء وامـــرأة خائنة وصديق سيء الطوية وتابع مشاكس وموظف مهمل وعلى المرء ألا يبدي لهم أي امتنان .

انطلق في رحلة ولو كانت طويلة ما دمت تتوقع أن تجد فيها ما يسرك . . اسأل حكيما ولو كان طفلا وأعط جسدك لمن يطلبه وهو في حاجة اليه واقطع ذراعك اذا أساء اليك . انك تعرف أن الملوك ليسوا في حاجة الى الاستمساك بالفضائل كما هو شائع بين الدهماء .

وقد قيل :

إن المملكة لا يمكن أن تحكم بمعايير الناس العاديين . لأن ما يعد في الناس رذائل (بصفة عامة) يمكن أن يعد في الملك من الفضائل . وقد قيل أيضا : إن سلوك الملوك مثل سلوك البغى لا يثبت على حال ، فالملك صادق وكاذب، فظ ورقيق في الحديث ، متوحش وحنون في الوقت نفسه ، شحيح وكريم ومبذر في الانفاق وإن كان يحصل على مبالغ كبيرة من مصادر متعددة .

واستعاد بنجلكه ، بعد أن واساه دمنكه بهذه العبارات ،هدوءه واطمئنانه وظل يستمتع بمباهج السلطان كما كان من قبل وينعم بصحبة دمنكه باعتباره وزيرا له .

***

وهنا ينتهى السفر الأول المسمى التفريق بين صديقين .

السفر الثانى

كسب الاصدقاء او الحمامة والغراب والفار والسلحفاة والغزال

والآن يبدأ هذا السمر الثانى وعنوانه «كسب الأصدقاء» وفيما يلي منظومة الاستهلال: إن الأذكياء والأودّاء سرعان ما يكافأون بتحقيق أغراضهم مثلهم في ذلك مثل الغراب والسلحفاة والغزال والفأر .

فقال أبناء الملك : وكيف كان ذلك ؟

فروى فصنوشرمان هذه الحكاية :

يحكى أنه كانت في الاقليم الجنوبى مدينة تدعى مهيلا روبيا . وكانت هناك شجرة قطن حريرى لا تبعد عنها كثيرا وكانت متينة الجذع متعددة الأغصان وكانت الطيور تقبل اليها من كل حدب وصوب وتقضى فوقها الليل . وكان من بينها غراب اسمه خفيف الجناح اتخذ منها سكنا . واتفق أن انطلق في صباح يوم باكر للبحث عن الطعام ورأى صيادا رهيب السحنة ، وأصابع يديه وقدميه مشققة وجسمه أغبر وشعره أشعث ، يحمل في يده هراوة وشبكة وخيل اليه أنه القضاء الداهم في صورة إنسان . وانزعج الغراب لمرآه وقال بينه وبين نفسه : ترى ماذا يبغى هذا الشقى ؟ هل يسعى الى الايقاع بى أم أنه جاء لغرض آخر ؟ ولبث يترقّب الموقف . واتجه ذلك الصياد نحو الشجرة ونشر الشبكة ونثر عليها بعض الحب ثم اختبأ في مكان خفى لا يبعد عنها كثيرا . واتفق في ذلك الوقت أن أقبل ملك للحمام يسمى المطوق وأخذ يحلق في الجو وخلفه من الحمام ألف، فأبصر بذلك الحب . واستجاب للاغراء وهبط فوق الشبكة للحصول على الطعام فسقط في أحابيلها ومعه رهطه بأسره . وابتهج الصياد عندما رأى ما حدث وهرع وهو يلوح بهراوته . وكانت الطيور من رهط المطوق ترفرف حوله هنا وهناك وتجذب الشبكة بمناقيرها وأقدامها في اتجاهات مختلفة . وعندما رأى المطوق ما حل بـه

وبرهطه قال : هذه هي الداهية الدهياء . ليس أمامنا والحالة هذه الا وسيلة واحدة للنجاة . علينا أن نتكاتف معا وأن نحلق عاليا في الفضاء وننطلق بهذه الشبكة الى مكان بعيد . واعلموا أننا اذا لم نتحد ونتعاون فلن نحمل الشبكة . وعملوا بما قال ، وحملوا الشبكة وتركوا الصياد وراءهم على مرمى سهم منهم وانطلقوا في الفضاء يحدوهم الأمل في إنقاذ أرواحهم . وعندما رأى الصيادالطيور تحمل شبكته وتحلق بها في الفضاء قال لنفسه : هذا أمر لم يسمع به أحد من قبل؟ وجرى وهو يقلب بصره في الفضاء ويقول في نفسه : ليس من شك في أن هذه الطيور تستطيع أن تحمل شبكتي مادامت تعمل يدا واحدة ولكنها لن تستمر على ذلك طويلا وسوف تختلف فيما بينها وعندها تقع في قبضتي .

ورأى المطوق ذلك الصياد القاسي الشرير يقتفي آثارهم فبدأ يطير هــــو وأتباعه بسرعة أكبر . وشهد خفيف الجناح ما حدث فزهد في الطعام وجد في أثر سرب الحمام ، يدفعه الفضول ، وأخذ يقول لنفسه : ترى ماذا سيفعل هذا الصياد الشرير بالحمام ؟ وأدرك المطوق غرض الصياد فقال لرفقائه : إن هذا الصياد الشرير يجد في أثرنا ، ولم يفقد الأمل بعد في الايقاع بنا ، والرأى عندى أن نغيب عن أنظاره . . لابد أن نحلق عاليا جدا ونطير فوق أراض وعرة ، وتلال وغابات حتى يعود يائسا . وحلقت الطيور حتى اختفت عن ناظريــه وأخذت معها الشبكة . وأدرك الصياد أن الحمام قد تجاوز في طيرانه مرمى البصر ففقد الأمل وقفل راجعا . وعندما استوثق المطوق من أن الصياد الشرير قد عاد قال للحمام : انظروا . إن الصياد قد عاد أدراجه والرأى عندى أن نعود نحن أيضا وننطلق رأسا إلى مهيلا رويبا . ففى الشمال الشرقي منها يعيش صديق عزيز ، هو فأر يدعى الذهبي . ولسوف نذهب اليه بلا توان ليقطع وثاقنا ، ولست أشك في أنه سوف ينقذنا من هذه المحنة التي حلت بنا . فقالوا : نعم الرأى . وما أن اقتربوا من جحر الفأر الذهبي حتى هبطوا . وكان الذهبي الأريب يخشى أن تلم به كارثة فحفر جحرا له مائة فتحة ليعيش فيه . وعندما سمع الفأر الذهبي الضجة التي أثارها سرب الحمام وهو يطير ارتجف قلبه هلعا ولبث في مخبئه . ولكن المطوق أغراه بالظهور في مدخل الجحر وقال : أيها الصديق الذهبي ،

اخرج ولا تخش شيئا فنحن لا نضمر لك سوءا . وسمع الذهبي قوله هذا ، ولم يتحرك من معقله الحصين وقال وهو لا يزال يلوذ به : من أنت يا سيدى؟ فقال : أنا صديقك المطوق . وعندما سمع الفأر هذا فرح فرحا شديدا وقفّ له شعر جسده كله وخرج وقلبه يكاديرقص طربا فشاهد المطوق ورهطـــه مسربلينِ بحبال الشبكة فقال مذعورا : ما معنى هذا أيها الصديق خبرنى . خبرنى بما حدث . فقال المطــوق : أنت ذكى أيها الصديق فلماذا توجه الى سؤالا كهذا ؟ لقد قيل :

إن المرء ليتساءل من أين وبأى وسيلة ومتى و كيف وماذا والى أي مدى وأين يفّعل الانسان هذا ، وسواء أكان عملا صالحا أم طالحا فانه عندئذ وبهذه الوسيلة أو تلك والى هذا المدى أو ذاك يعمل هذا كله مدفوعا بقوة القدر وحده .

فقال الذهبي : لقد قلت عين الصواب ! إن الطائر يرى لحم الجيفة وهو على بعد مائة فرسخ أو عشرة ومع ذلك فان هذا الطائر نفسه يعمى بصره عن حبائل الشرك عندما يحين الأوان .

عندما أرى القمر والشمس يتعرضان للخسوف والكسوف وأن الفيلـــة والثعابين لاتسلم من الأسر وأن الحكماء يحل بهم الفقر والمسغبة فلابد من أن أقتنع بان القدر أقوى من كل شيء ، وهذا ما فكرت فيه

إن الطيور لاتسلم من الأذى رغم أنها لاتحلق إلا في الفضاء ، والأسماك يصيدها من يعرف كيف يصل اليها ولو كانت في أعماق البحر . فما جدوى الحسنات والسيئات في هذا العالم ؟ وأى فضيلة في الحصول على مكانة رفيعة ؟ ألا ترى أن القدر يمد ذراعه ويمسك بتلابيب الانسان عندما تحل به كارثة .

وبعد أن فرغ الفأر الذهبي من مقالته هذه شرع في تقطيع الحبال التى وقع فيها المطوق فقال له المطوق : بربك لا تفعل هذا أيها الصديق . وابدأ أولا بتقطيع الحبال التى تحيط بأتباعى ، وبعد أن تنتهى من اطلاق سراحهم اقطع حبالى . وعندما سمع الفأر الذهبي منه هذا قال له وقد نفد صبره : كيف تهتم ياصديقى بتحرير غيرك من أسرهم ولاتعمل حسابا لنفسك ؟ .

فقال المطوق : لا تغضب أيها الصديق . إن كل هؤلاء التعساء المساكين هجروا زعماءهم من أجلي وربطوا أنفسهم بى فكيف أتخلى عنهم في وقت محنتهم ولا أهتم بهم ؟ لقد خطر لى أنك لو شرعت في تقطيع حبالهم فان التعب لن يحل بك قبل أن تقطع أحبالى .

وأنك لو بدأت بتقطيع حبالى فربما يصيبك التعب يا سيدى وتكتفى بهذا العمل . ولن يكون هذا من الصواب في شيء . ولهذا بادرتك بما قلت . وعندما سمع الفأر الذهبي منه هذا تملكه الطرب وقال : إنما كنت أختبرك يا سيدى بما قلته لك وهأنذا أرى أنك بحق تتصف بصفات الزعامة .

فبقدر ما تظهر من الرأفة لأتباعك وبقدر استعدادك لمشاطرتهم مصيرهم وبهذا السلوك الحميد أرى أنك جدير بحكم العالم بأسره .

وما أن انتهى من قوله هذا حتى كان قد قطع كل حبالهم . ولما تحرر المطوق ورهطه من أسرهم ودع الفأر الذهبي وتلقى تحياته وطار هو وأتباعه منطلقين الى وطنهم . ودخل الفأر الذهبي إلى معقله الحصين . وكان خفيف الجناح قد شهد كل ما حدث فعرت الدهشة وجهه . عندما رأى كيف أطلق سراح المطوق هو ورهطه من الأسر وقال لنفسه : ما أعقل هذا الفأر الذهبي وما أحصن معقله المجهز أحسن تجهيز ! إن الرأى عندى أن أصادق هذا الفأر الذهبي مثل المطوق . فمن يدرى ؟ ربما أتعرض لكارثة وأقع في حبائل شباك صياد . ولما جمع أمره على ذلك هبط من الشجرة واقترب من مدخل جحر الفأر ونادى على الذهبي باسمه ، وكان قد عرفه ، وصاح : تعال هنا أيها الصديق الذهبي ، أرجوك ! وسمع الفأر الذهبي فقال في نفسه : عجبا ! أيمكن أن يكون أحد الحمائم لا يزال في الشرك ولم يطلق سراحه بعد فنادانى بهذا الاسم ؟ ثم قال : من أنت يا سيدى ؟ فأجاب : أنا غراب أدعى خفيف الجناح . وعندما سمع الفأر القول تطلع من داخل جحره الى الغراب ، وكان قد دلف الى باب الجحر وقال : اغرب عن هذا المكان فقال الغراب : لقد رأيتك تطلق سراح المطوق وأعجبت بك وأود أن أكون صديقا لك . فمن يدرى ؟ ربما تحل بى

أنا أيضا مثل هذه الكارثة ، وعندئذ استطيع أن أتحرر بفضل مساعدتك فبالله لا تبخل علي بصداقتك يا سيدى . فقال الفأر الذهبي وهو يضحك : كيف يمكن أن تنشأ بيني وبينك صداقة ؟ ألا ترى أنه لايمكن تحقيق المستحيل ،ولا سبيل إلى عمل شيء ما لم يكن ممكنا ، وأن العربة لن تسير على الماء وأن السفينة لن تسير على البر .

على العاقل ألا يحاول أن يصاحب إلا من هم على شاكلته في هذا العالم : وأنا يا سيدى طعام لك وأنت آكل لى فكيف تنشأ بيننا صداقة ؟ فقال الغراب : لو أكلتك فلن أصيب طعاما كثيرا ولو تركتك حيا فقد أنقذ حياتى ، كما حدث للمطوق يا سيدى النبيل . وأرى أنه ليس من حقك يا سيدى أن تحتقر مطلبى فالثقة ممكنة حتّى بالوحوش والحلف معها جائز مادامت تتحلى بخلق قويم كما حدث بينك وبين المطوق .

إن صاحب المروءة لا يتغير قلبه ولو أسيء إليه . ألا ترى أنه لايمكن تسخين ماء المحيط بشعلة من القش .

وصفاتك النبيلة تشيع في الخارج وإن لم تحتفل بها . ألا ترى أن الياسمين العاطر يفوح شذاه ولو حجبوه بغطاء ؟

وعندما سمع الفأر الذهبي هذا قال : سيدى إنك مذبذب بفطرتك وقد قيل :

المذبذب لايخلص لنفسه فكيف يخلص لغيره ولذلك فان المذبذب كفيل بأن يهدم كل عمل . فهلا انصرفت عن هذا المكان حتّى لاتسد باب معقلى الحصين .فقال الغراب : أيها الصديق لماذا تتفوه بهذه الكلمات القاسية عن المذبذب وغير المذبذب؟ كل ما في الأمر ياسيدى أن صفاتك الرائعة قد اجتذبتني ورأيت أنه لابد من عقد أواصر الصداقة بيني وبينك بلا توان وهذا هو قرارى الأخير .

فقال الفأر الذهبي : كيف أكون لك صديقا وأنت عدوى ؟ لقد قيل : على المرء ألا يعقد حلفا مع عدو له على الاطلاق ولوكانت الرابطة بينهما وثيقة العرى فالماء يطفئ النار ولو كان ساخنا جدا . فقال الغراب : لماذا تقول

هذا ؟ إنى لم أرك قط من قبل فكيف أكون لك عدوا ؟ فما هذا الهراء ؟ وعندئذ ابتسم الفأر الذهبي وقال : ياسيدى العزيز اعلم أن هناك ضربين من العداوة في هذا العالم نصت عليهما الكتب : عداوة فطرية وعداوة مصطنعة فقال : الغراب : حسنا . وما هي السمات المميزة لهذين الضربين من العداوة ؟ فقال الفأر الذهبي : حسنا . إن العداوة المصطنعة تنشأ لسبب نوعى وتزول بزوال هذا السبب أما العداوة الفطرية فانها لاتزول أبدا بأية وسيلة . وهذه العداوة الفطرية بدورها ضربان : عداوة من جانب واحد وعداوة متبادلة فقال الغراب : وما الفرق بينهما ؟ فقال الفأر الذهبي : اذا كان كل من الطرفين يستطيع أن يقتل الآخر ويلتهمه فان ما بينهما يعدُّ عداوة متبادلة لأن الضرر هنا متبادل ؟ كما هو الحال في العداوة بين الأسد والفيل ، ولكن إذا كان أحد الطرفين قادرا على أن يقتل الآخر ويلتهمه دون سبب مباشر ودون أن يلحق به الآخر ضررا أو يؤذيه أو يلتهمه فان ما بينهما يعد عداوة من جانب واحد لاترجع إلى سبب ما ، كما هو الحال في العداوة بين الحصان والجاموس والقط والفأر ، والثعبان والنمس . فأى ضرر يلحقه الحصان بالجاموس وماذا يعمل الثعبان للنمس أو الفأر للقط ؟ فكيف تتحدث عن عقد حلف بيننا ؟ ألا ترى أنه مستحيل كل الاستحالة ؟ وقيل أيضا : تقول إنه صديقى ؟ أيكفى هذا لكى تمنحه ثقتك اذا كان شريرا ؟ وتقول : لقد فعلت الكثير من أجله ، ولم أجد سوى الحسرة مع أنه قريب . تلك حكاية متهافتة أوهى من نسيج العنكبوت لأن الناس تحكمهم أقل قطعة من النقود . وقيل أيضا :

على الرغم من أنه محظوظ ويتمتع بالكثير من النعم : ورغم أنه محبوب وأسعده الحظ بالنجاة من كوارث لاحصر لها اذا كان رجلا غير مستقيم لايستحق ذرة من الثقة بسبب ما فطر عليه من الشر ألا ترى أن المرء لا يأمن لثعبان ينام في أحضانه ؟ .

إن حياة المرء تنتهى في اللحظة التى يضع فيها ثقته في عدوه أو في زوجة لا تكن له ودا ، وهذا مصيره ولو كان على درجة كبيرة من الثراء[1] .

---

(١) أو كما قال هرقل : حتى لو أمطرهم ذهبا .

والمرء الذى يريد أن يعقد مرة أخرى حلفا مع صديق أثبتت الأيام أنه يفتقر الى الوفاء يلقى مصرعه ، مثله في ذلك مثل بغلة تحمل من بغل[1] .

إذا كنت لم ترتكب إساءة فهذا لايدعو الى الثقة بك لأن الأخيار لايأمنون على أنفسهم قط من الأشرار . فقال الغراب : قد سمعت هذا كله ومع ذلك فانى أود أن أعقد معك صداقة نبيلة وأعتقد أن هذا ممكن فقد قيل :

كل المعادن تمتزج بصهرها وكل الوحوش والطيور تتحد لسبب يدعو اليه ، أما الحمقى فانهم لايتحدون إلا بدافع الخوف والجشع. والأخيار يتحدون بمجرد رؤية الواحد منهم للاخر فكيف تعترض اذن ؟ .

مثل الخسيس مثل جرة من الفخار ، من السهل تحطيمها ومن الصعب جمع حطامها ، ومثل النبيل مثل وعاء من الذهب من العسير تحطيمه ولكن من اليسير ضم أجزائه بعضها الى بعض . أنى لى يا سيدى أن أجد غيرك يتسم بهـــذه الفضائل ؟ ومن أجل ذلك أصر على أن توثق معى أواصر الصداقة . واذا لم تفعل فانى سوف أقف على بابك حتى أموت جوعا . وعندما سمع الفأر الذهبى منه هذا قال : لقد أقنعتنى ولتكن مشيئتك . وأصارحك بأنى لم أقل ما قلت إلا لأختبر سلوكك . أما وقد أصررت فلا مانع لدى واذا عنّ لك الآن أن تقتلنى فانك على أقل تقدير لن يذهب بك الظن الى أنى كنت أبله وأنك أوقعت بى بدهائك وما دمت قد أثبت لك هذا فهاهى ذي رأسى في حجرك . ولما فرغ من حديثه هم بالخروج من جحره ولكنه ما كاد يخرج منه بضع خطوات حتى توقف مرّة أخرى وهو في منتصف الطريق . فقال الغراب :

ألا تزال أيها الصديق في ريب منى . وهل هناك ما يدعوك الى ألا تخرج من معقلك الحصين ؟ فقال : في صدرى شيء لابد أن أصارحك به لأن الناس في هذا العالم فريقان : فريق يعيش بما يمليه عليه قلبه وفريق لاينشد الا النفع فحسب وهما فريقان متعارضان . ولا بأس بالاتحاد الذى يمليه القلب أما الاتحاد من أجل

---

(١) يعتقد الهنود أن البغلة تستطيع أن تحمل ولكن هذا يكلفها حياتها .

النفع فلافائدة منه ألا ترى أن المرء يقدم لطيور الحمل مقدارا كبيرا من حبوب السمسم لا لشيء الا للقضاء عليها ؟ أتراه يفعل هذا برّا بها ؟ أليس هذا الصنيع من أجل القضاء عليها قضاء مبرما ؟

الغنم ليس دليلا على الصداقة والعزم ليس برهانا على العداوة . والفيصل الوحيد في هذه الحالة هو القلب سواء أكان صالحا أم طالحا ؟ وأنا الآن بعد أن عرفت خفايا قلبك لم أعد أخشاك ومع ذلك فقد خطر لى أن صديقا لك قد يقضى على وأنا في غفلة من أمرى ولم ألزم منه جانب الحذر . فأجابه الغراب : إن الصديق الذى يكتسب عن طريق القضاء على صديق فاضل يجب نبذه ، مثله في ذلك مثل الوخن الذى يخفق أكوام الأرز . وما أن سمع الفأر الذهبى منه هذا حتى سارع بالخروج وتبادل الاثنان التحية بالتوقير والاحترام . وهكذا نشأت بين الفأر والغراب صداقة وثيقة لاتنفصم عراها وطيدة الصلة كالظفر واللحم وعقدا بينهما حلفا واتخذا نفس الأصدقاء ونفس الأعداء .

ولبثا هناك فترة من الزمن واستضاف الفأر الذهبي الغراب وقدم له الطعام ثم ودعه وقفل راجعا الى جحره وانصرف الغراب بدوره الى حال سبيله .

وطار الغراب خفيف الجناح الى غابة وهناك رأى جاموسة برية قتلها نمـر فأكل من لحمها ما طاب له حتى شبع ثم أخذ قطعة من اللحم وذهب بها رأسا الى الفأر الذهبي وناداه قائلا : تعال ! تعال هنا أيها الصديق الذهبي وكل هذا اللحم الذى أحضرته لك بنفسى . وسارع الفأر الذهبي بدوره الى إعداد كوم كبير من حبوب الدخن المقشورة وقدمه للغراب وقال : وكل أنت أيضـا يا صديقى هذه الحبوب التى جمعت لك خلال جولاتى .

ومع أن كلا منهما كان قد أكل من الطعام ما أشبعه فانه تناول ما قدم لـه ليعبر عن حبه للآخر . ومضت الأيام وهما يقضيان وقتهما هادئين ناعمى البال تجمع بينهما صداقة نادرة قلما شاهد العالم لها مثيلا ، وكانا يتبادلان الأسئلـة اللطيفة ولا يخفى أحدهما سرا عن الآخر . واتفق أن أقبل الغراب يوما وقال

للفأر الذهبي : أيها الصديق الذهبي ؟ إني راحل عن هذا المكان الى موضع آخر .
فقال الفأر : ولم أيها الصديق ؟ فأجاب الآخر : لأني سئمت هذه الحياة ؟
فقال الفأر الذهبي : ولم هذا السأم ؟ فقال : إن علي أن أحصل كل يوم
على ما يسد رمقي ونحن الطيور نعيش في فزع دائم بين أن نقع في الشباك أو تحل
بنا كارثة نتوقعها بين حين وآخر . ولذلك ضقت ذرعا بهذا الأسلوب من
الحياة . فقال الفأر الذهبي : والى أين تعتزم الذهاب ؟ فأجاب : الى
موضع لا يبعد عن هنا كثيرا .. الى بحيرة كبيرة في غابة يقيم فيها صديق عزيز لي
هو ذكر سلحفاة يدعى « الكسول » ، وقد ظفرت بصداقته من عهد بعيد .
وسوف يمدني بالأسماك وغيرها من الأطعمة اللذيذة ولن أحمل للعيش هما
وسوف أمضي الوقت معه في صفاء ولا يزعجني أحد . وعندما سمع الفأر
الذهبي منه هذا قال : هلا صحبتني معك فقد سئمت بدوري الحياة في هذا
المكان . فقال الغراب : ولم سئمت الحياة ؟ فقال الفأر الذهبي : حسنا ،
إنها قصة طويلة . ولكن أما وقد جمعنا هذا المكان فسوف أرويها لك كاملة .

وبينما هو يتحدث التقط الغراب صديقه بمنقاره وحمله معه الى البحيرة
الكبيرة . ورأى « الكسول » من مسافة بعيدة الغراب يقترب ومعه الفأر . ولما
كان شديد الحذر [1] فقد تساءل بينه وبين نفسه عن القادمين وقفز بعيدا عن
الشاطئ وغاص في الماء ليكون في أمان فتناثر من الماء رذاذ أفزع خفيف الجناح
بدوره وأخذ يتساءل عن كنهه فأنزل الفأر الذهبي على الشاطئ وطار الى أعلى
شجرة كبيرة في الغابة ليستطلع ما يجرى . وقال وهو جاثم على الشجرة : أيها
الصديق الكسول تعال . تعال هنا ! أنا صديقك الغراب خفيف الجناح وقد أتيت
لرؤياك بعد هذا الغياب الطويل مدفوعا بالشوق اليك وهأنذا أناديك فتعال
وعانقني . وعندما سمع الكسول ذلك وتحقق من معناه اهتز جسمه طربا
واغرورقت عيناه بدموع الفرح وخرج مهرولا من الماء وقال : عفوا اذا كنت
قد أسأت اليك ولكني لم أعرفك في بداية الأمر . وعانق خفيف الجناح بعد
أن هبط من الشجرة وبعد أن قام نحوهما بواجبات الضيافة وهو جذل مسرور

(١) حرفيا يعرف الأوقات والأماكن المناسبة .

سأل الغراب : من أين أقبلت أيها الرفيق ؟ وكيف اتفق أن تأتى مع فأر الى غابة موحشة ؟ ومن هو هذا الفأر ؟ فقال الغراب : أيها الرفيق ، إن هذا الفأر يدعى الذهبي ولايستطيع أن يعدد فضائله ويقدرها حق قدرها سوى رجـــل يتحدث بألف لسان ، ألا فلتباركه الآلهة ! لقد قيل : أليس من سمات ذوى المروءة أنهم يبقون على ودهم الى ختام حياتهم ؟ وأن غضبهم يزول في لحظة وأن فعالهم الكريمة لاتشوبها الأنانية ؟

وبعد أن فرغ من قوله هذا أخبره بالقصة الكاملة لاطلاق سراح المطـــوق وتحالفه مع الفأر . وعندما سمع الكسول منه هذا الثناء المستطاب على فضائل الفأر الذهبي عرته الدهشة وقال : للفأر الذهبي : والآن قل لى لماذا سئمت الحياة الى هذا الحد ؟ وما هو الظلم الذى وقع عليك ودفعك الى أن تهجر موطنك وأصدقاءك وأقرباءك وزوجتك ؟

فقال الغراب : لقد سألته بدورى هذا السؤال بالذات من قبل ولكنه تملص من الاجابة وقال انها قصة طويلة وأنه سوف يرويها عندما يصل الى هذا المكان ولكنه حتى الآن لم يروها لى . فهيا قل لنا أيها الصديق الذهبي لماذا سئمت الحياة ؟
وعندئذ روى الفأر الذهبي حكايته الآتية :

الحكاية الاولى

الفار والناسكان

يحكى انه كانت في جنوب البلاد مدينة تدعى مهيلا روبيا وفي موضع لايبعد عنها كثيرا صومعة يقيم فيها ناسك يدعى ذؤابة .

وقد أعتاد أن يتسول كل يوم ويعود وقدحه مفعم بالصدقات من تلك المدينة ، وبه الكثير من طيبات الطعام من السكر والعسل والرمان والحلوى من اللدائن . وكان يعود الى صومعته ويفطر بعد أن ينتهى صيامه ثم يضع ما يتبقى من الطعام[1]

(١) كان هذا خرقا للقاعدة المرعية لدى النساك ، اذ كان يحرم عليهم أن يقبلوا من الطعـــام أكثر مما يستطيعون تناوله في الوجبة . كما كان المعتقد أنهم لاخدم لهم . . وهذه الحكاية تصور الناسكين رجلين منافقين .

الذى يتناوله في وجبة الافطار جانبا ويخفيه بعناية في قدح الصدقات ليقدمه الى من يحضرون اليه في الصباح ، ويعلق هذا القدح على مشجب مثبت بالجدار ثم يذهب لينام .

وعندما يحل الليل كنت أقفز كل يوم وألتهم هذا الطعام وكنت أجد فيه مايكفيني أنا وأتباعى . وتملك الناسك اليأس لأنه وجد أنى أظفر كل يوم بهذا الطعــام وألتهمه على الرغم من حرصه على ابعاده عنى . وفي غمرة فزعه منى ظل ينقله من مكان لآخر ويعلقه كل ليلة في موضع أعلى من موضعه المألوف غير أنى على الرغم من هذا كله لم أجد مشقة في الحصول عليه والتهامه . واتفق أن قدم على الناسك بعد فترة من الزمن صديق عزيز يدعى كبير الكرش[1] ونزل ضيفا عليه . واستقبله ذؤابة بما درج عليه الناس من ترحيب بالضيف . وبعد أن قام بالشعائر الدينية الواجبة جلس في المساء على أريكته وسأل كبير الكرش الذى كان قد آوى الى الفراش : أى الأقاليم أو غياض التفكير ارتدتها منذ أن افترقنا ياسيدى ؟ فبدأ الضيف يروى حكايته وقال : لقد افترقت عنك في مهرجان البدر في شهر كارتكه ،عندما كنا نغتسل في بصكره التى يؤمها الحجاج وذلك بسبب الجماهير الغفيرة . وبعد ذلك طفت بأعلى نهر الكنج وأسفله الى هردور والله أباد وبنراس وأماكن أخرى يحج اليها الناس . وقصارى القول زرت العالم بأسره من البحر الى البحر . وبينما كان يروى الحكاية ظل ذؤابة يضرب قدح الصدقات باستمرار بعصا من قصب الخيرزان المشقوق ليرن القدح فيفزعني وكان في هذا مقاطعة للضيف وهو يروى الحكاية فغضب كبير الكرش وقال : أرانى أتلطف معك برواية حكايتى ياسيدى ولا تصغى الى فلماذا تبدو فظا وقحا وكانك ضقت ذرعا بحكايتى ويخيل الى أنك تركز انتباهك في شىء آخر . فارتبــك ذؤابــة وقال : لا تغضب ياصديقى فأنا لم أضق ذرعا بحكايتك كما خيل اليك ولكن لأفزع فأرا لا يكف أبدا عن القفز الى أعلى والوصول الى قدح صدقاتى مهما علقته على ارتفاع شاهق . إنه يلتهم بقايا الصدقات فيه . وأنا لا أستطيع

---

(١) حرفيا كبير الأرداف

أن أمنعه عن هذا بأية وسيلة . ولذلك تراني أقرع قدح الصدقات بين آن وآخر بهذه العصا المصنوعة من قصب الخيزران المشقوق لأفزع ذلك الفأر وهذا هو السبب الوحيد . فقال الضيف : هل هذا هو الفأر الوحيد هنا أم أن هناك فئران أخرى ؟ فأجاب : أنا لا أهتم بالفئران الأخرى . إن ما يؤرق مضجعي هو هذا المحتال الذي يخدعني كل ليلة وكأنه ساحر . فقال الآخر :

هون عليك . إن هذه القوة لا تصدر عن فأر فحسب . ولا بد أن هناك سببا آخر يستمد منه هذه القوة . وقد قيل : لأمر ما بادلت الأم شنضلي سمسما مقشورا بآخر غير مقشور أيضا . ولا بد أن هناك سببا لهذا . فقال ذؤابة : وكيف كان ذلك ؟ فقال :

الحكاية الثانية

سمسم مقشور بآخر غير مقشور

اتفق أن طلبت يوما المأوى من برهمي في إحدى المدن قبيل حلول فصل الأمطار حتى أحصل على مسكن ثابت[1] وأقمت في بيته ، واستيقظت ذات يوم والصبح يوشك أن يتنفس وسمعت البرهمي وزوجته يتحادثان من وراء حجاب ، وأصغيت إلى حديثهما . وسمعت البرهمي يقول : زوجتي ، غدا يوم تحول القمر فهل لك أن تقومي بواجبات الضيافة نحو البراهمة بقدر ما في وسعنا. فردت عليه بلهجة لا تخلو من سلاطة لسان لاذعة : وكيف تستضيف براهمة وأنت في فقر مدقع ! وما كاد يسمع مقالتها هذه حتى أحس أنه يغوص في بئر لا قرار لها ولم يجد ما يقوله . وسكت طويلا ثم قال : زوجتي ، لا يصح أن تقولي مثل هذا القول فالفقراء يجب عليهم في بعض الأحيان أن يتبرعوا لمن يستحقون ولو بالقليل . وقد قيل :

كن مقتصدا مدبرا أبدا ولكن لا تسرف في الاقتصاد والا أصابك ما أصاب ابن آوى حين لقى مصرعه بالقوس لأنه أسرف في الاقتصاد .

فقالت : وكيف كان ذلك ؟ فأجاب قائلا :

---

(١) اثناء سقوط الأمطار عندما يكون التجوال غير مألوف

الحكاية الثالثة

ابن آوى الجشع

يحكى أن صيادا كان يعيش على مايصيده من لحوم الوحوش واستيقظ صباح يوم مبكرا وثبت في قوسه سهما وانطلق إلى الغابة ليصطاد . وسرعان ما صرع غزالا وحمل لحمه وقفل راجعا إلى بيته وبينما هو يهبط شاطئا شديد الانحدار إلى مخاضة رأى خنزيرا بريا في حجم الجاموس ، له ناب مشرع وجسده ملطخ بكتل من الطين . ففزع لمرآه وتوجس منه شرا واستدار يريد الفرار فوجد أن الخنزير البرى يسد عليه الطريق، فما كان منه الا أن ألقى على الأرض بلحم الغزال ملفوفا في حزمة وشد قوسه وأطلق سهما مسموما اخترق عنق الخنزير وخرج من الجانب الآخر . وعلى الرغم من إصابة الخنزير البرى بجرح قاتل فانه تحامل على نفسه وقام بهجمة وحشية استجمع فيها قواه للمرة الأخيرة وأصاب الصياد في إحشائه إصابة جسيمة أسلم على أثرها الروح وسقط على الأرض صريعا يتخبط في دمه وقد تمزق جسده إلى ثلاثة أشلاء . وبعد أن صرع الخنزير البرى الصياد تأثر من جرحه القاتل وسرى فيه السم ومات هو الآخر . وأقبل إلى ذلك المكان بعد برهة ابن آوى يدعى العوّاء ، وكان يتضور جوعا ، ويضرب على غير هدى بحثا عن الطعام ، فرأى الغزال والصياد والخنزير البرى صرعى فتملكه الفرح وقال في نفسه : ما أرحم القدر بى ! لقد منحنى كل هذا الطعام الوفير الذى لم أكن أتوقعه بحال من الأحوال . والرأى عندى أن ألتهمه على دفعات حتّى يكفينى وقتا طويلا . لما كان الطعام والشراب لا يتيسران دائما للأحياء فعلى من يحصل منهما على مؤونة وفيرة أن يأكل منه شيئا فشيئا .

ولذلك أرى أن أضع أولا لحم الغزال والخنزير البرى والصياد جانبا وآكل هذا الوتر المشدود على القوس .

وما أن استقر على هذا الرأي حتى بادر إلى وتر القوس وتناوله بفمه وشرع في التهامه . وهذا شد الوتر فنفذ السهم من حلقه[1] ولقي مصرعه .

[نهاية الحكايــة ٣]

ولهذا أقول : كن مقتصدا مدبرا أبدا ولكن لا تسرف في الاقتصاد وإلا أصابك ما أصاب ابن آوى حين لقى مصرعه بالقوس لأنه أسرف في الاقتصاد . وعندما سمعت زوجة البرهمى منه هذا الكلام قالت : حسنا ، إن لدى قدرا من السمسم وقليلا من الأرز فهل لك أن تبكر بالنهوض وتذهب إلى الغابة وتحضر بعض الحطب وحشائش الكوشا وغيرهما مما نحتاج اليه وسوف نعد أنا وتلميذك كامندكى هذا ثريدا يكفى ثلاثة من البراهمة : وفي الصباح قشرت السمسم ونشرته في ضوء الشمس وعهدت به لكامندكى وطلبت منه أن يحرسه، وبينما هى مشغولة في الدار غفل كامندكى عن السمسم وأقبل أحد الكلاب فولغ فيه ودنسه[2] ولما رأت ما حدث استاءت وقالت : يا كامندكى ، هذا أمر يؤسف له ولسوف يحول بينـــنا وبين استضافة البراهمة . ولكن على أية حال اذهب وبادل هذا السمسم المقشور بسمسم أسود ، وعد سريعا لكي أطهى ثريدا أسود بدلا منه . وعمل كامندكى بما قالت وأقبل إلى ذلك البيت الذى دخلته ليسأل أصحابه صدقة وحاول أن يستبدل به سمسما وقال : خـــذوا هذا السمسم . وفي أثناء عقد هذه الصفقة أقبل رب البيت وقال : وما هى شروطك لبيع هذا السمسم ؟ فقالت له زوجته : لقد حصلت على هذا السمسم الأبيض مقابل مقدار مماثل من السمسم الأسود . فابتسم وقال : لأمر ما بادلت الأم شنضلى سمسما مقشورا بآخر غير مقشور .

[نهاية الحكاية ٢]

وعندما روى الناسك هذه الحكاية قال : ياذوأبة أرى في هذه الحالة أنه لا بد أن هناك سببا يمدّ هذا الفأر بقوة لا تقاوم تتيح له أن يلتهم الصدقات. فهل لديك فأس ؟

---

(١) حرفيا سقف الفم وفى بعض النسخ فم وعنق وصدر وقلب .

(٢) دنس السمسم لأن الكلب ولغ فيه وهو حيوان نجـــس .

فقال : لدى ولا شك ها هى فأس كلها من الحديد المتين ولها يد مصقولة. وما أن أحضرت له الفأس حتى شمر ثوبه إلى وسطه وزم شفتيه وقال : من أين يأتى الفأر ؟ وعندما أخبر بالموضع الذى يقبل منه شرع في الحفر بالفأس. وسمعت في البداية مادار بينهما من حديث ولما كنت متلهفا على معرفة ما يقولان فقد توقعت وأرهفت أذنى لأسمع وتخليت عن كل تفكيرى في الطعام. وعندما شرع الرجل في البحث عن معقلى الحصين أدركت ما يريد وقلت لنفسى : لقد اكتشف هذا الشرير المدخل إلى جحرى . وكنت أملك بعض الذهب ، وكان قد وضعه هناك أحد المرابين منذ أمد طويل . وكنت استمد من هذا الذهب قوة تعيننى على القفز والوصول إلى الطعام . بيد أن هذا الشرير تتبع الطريق إلى جحرى فعثر على المال وأخذه وقفل راجعا إلى الصومعة وقال للذوّابة : إليك أيها البرهمى ، الذهب الذى كان يمنح هذا الفأر قوة[1] لا تقاوم وتتيح له أن يقفز إلى أعلى ويبلغ مكانا يتجاوز طاقة اقباله . وتقاسم الرجلان الذهب وجلسا ينعمان بالطمأنينة .

وعندما حلت بى هذه الكارثة قلت لنفسى : لو أشعلا مصباحا وكشفا عن موضعى فسوف يقبضان على ويقتلاننى لا محالة . وغادرت ذلك المكان واتخذت لى معقلا في موضع آخر . وأقبلت الفئران الأخرى من أتباعى وقالت لى : أيها السيد الذهبى نحن عشيرتك نتضور جوعا وليس لدينا لقمة واحدة نتبلغ بها فهلا تفضلت علينا بشىء نأكله اليوم بالذات . فأذعنت وانطلقت مع الفئران إلى الصومعة وسمع ذوّابة الضجة التى أثارها قدوم أتباعى وبدأ يقرع قدح الصدقات من جديد بالعصا المصنوعة من قصب الخيزران المشقوق فقال له صديقه : لقد انتهى أمر هذا الفأر فلماذا أراك تؤرجح عصاك بين الحين والحين وأنت تعرف هذه الحقيقة ؟ فكف عن هذا بربك !

فقال الناسك : أيها الصديق انى أعـــرف أن هـــذا الفأرعدوى لن يكف عن الحضور المرة تلو المرة . وأنا إنما أفعل هذا خوفا منه .

(١) وفى رواية أخرى « كان يقوى قلبه » والحكاية كلها تندد بأثر الثروة التى لاتستخدم على نفسية صاحبهـــا .

فابتسم الضيف وقال : أيها الصديق لا تشغل بالك فان قوته على القفز إلى أعلى قد تلاشت بضياع ذهبه . وهذه القاعدة مع الأحياء جميعا .

ولما سمعت منه هذا الكلام استشطت غضبا وقفزت إلى أعلى بكل قوتى في اتجاه قدح الصدقات ، ولكنى فشلت في الوصول اليه وسقطت على الأرض . وعندما رآني عدوى ضحك وقال لذوابة :

انظريا صديقى ، انظر ها هو ذا عدو لا حول له ولا طول . إنه منظر يستحق المشاهدة ، وقد قيل :

بالثروة يصبح كل إنسان قويا وبها يصبح متعلما ، ألاترى ما آل اليه حال هذا الفأر الشرير ؟ لقد أصبح مثل أقرانه مرة أخرى . ولهذا نم مستريحا خالى البال فان ما كان يستمد منه القوة على القفز إلى أعلى قد انتقل إلى أيدينا وحدنا . وعندما سمعت منه هذا فكرت لنفسى : إن ما قاله هو عين الحقيقة . لقد تضاءلت قوتى الآن وتبددت شجاعتى وهأنذا لا أستطيع أن أقفز إلى أعلى قيد أنملـــة للحصول على طعامى .

وسمعت أتباعى يتمتمون ويقولون لبعضهم بعضا : هيا بنا . لنرحل فهذا الرفيق لا يستطيع حتى أن يقوم بأود نفسه فما بالك بغيره وأى فائدة نرجوها من خدمته ؟ وقفلت راجعا إلى مسكنى وأنا أفكر وأقول لنفسى : لقد ذهبـــت قوتى إلى غير رجعة وهيهات أن تعود !

وفي الصباح اتجه كل واحد من الفئران الى خصومي وهو يقول : ان ذلك الرفيق فقير لا يستحق الخدمة ! .

هكذا كان سلوك أتباعى ولم يكلف واحد منهم نفسه عناء الحضور للسؤال عنى وكلما تطلعت حولى وجدت هؤلاء الأتباع يلهون مع خصومى وهم يروننى بأعينهم ويصيحون في جذل وابتهاج ويتنادون وهم يصفقون بأيديهم وفكرت وقلت لنفسى : هذه سنة الحياة ! لا أصدقاء لمن لا يملك مالا بل ، ولا أقرباء

إلا لمن يملك مالا ، ولا يستطيع امروٌ في هذا العالم أن يكون له شأن إلا إذا كان يملك مالا ولابد أن يكون العالم ذا مال .

وقيل أيضا :

العاطل عن الثروة قليل الحظ من الذكاء ، يخفق فيما يضطلع به من عمل ، مثله في ذلك مثل الجداول الصغيرة في الصيف .

عندما يجرد الانسان من ماله يهجره أصدقاوه ويتخلى عنه أولاده وزوجته وإخوته . واذا عاد اليه ماله عادوا اليه جميعا لأن المال هو أقرب الأقرباء للانسان في هذا العالم . خواء بيت رجل بلا ولد . . . خواء قلب رجل بلا صديق . .خواء جميع الأحياء عند البلهاء . . خواء كل شيء عند الفقراء . .

يا له من أمر غريب . . المرء هو هو لم يتغير فيه شيء . . ملكاته على حالها لم تتعطل . . واسمه كما هو لم يتغير ، وعقله سليم لم تمسسه جِنَّة وصوته هو لم يتبدل . . هو الرجل نفسه ومع ذلك فانه يصبح شخصا آخر ، فجاءة عندما يزول عنه بهاء الثروة .

واذن ماذا يجدربي أن أفعل في هذا المأزق ؟ وما دامت ثمرات ماضيَّ قد تبددت هكذا وفقدت مالى كله أرى ألا أبقى في هذا المكان لحظة واحدة بعد ذلك . وقد قيل : على المرء أن يقيم حيث يلقى الاحترام وألا يتشبث بالبقاء في مكان لا يحترم فيه وعليه أن يعرض عن قصر في السماء [1] ينعم فيه بصحبة الآلهة اذا لم يجد فيه الاحترام . ولكنى بعد أن قلت ذلك فكرت وقلت لنفسى :

هل أطلب من أحد صدقة ؟ كلا إن هذا أسوأ فمعناه أن أعيش متسولا : لأن :

الشجرة المعوجة التى تنبت في أرض ملحة وتنخر فيها الديدان سرعان ما تجردها من لحائها نار تشب في الغابة بل إن وجودها أفضل من وجود المتسول . ألا ترى أنه يتلعثم وتخرج الكلمات من حلقه بصعوبة ويتصبب العرق على وجهه؟

(١) فيمانه وهى كلمة فيها تورية معناها يعوزه الاحترام .

أوليس الشحوب الذى يكسو وجــه المتسول والرعشة التى تنتابه هى بغينهـــا الأعراض التى تبدو على وجه انسان يحتضر . والعاقل يرى أن التسول بـــاب الشقاء وخدر العقـــل ومنبت الوساوس وأنه مرادف للمـــوت وقرين للبؤس ومستودع للمخاوف وأنه التفاهة مجسدة والكوارث مستوطنة وأنه يجرد المعـــتز من كرامته وأرى أن عذاب جهنم أهون شأنا من هذا المصير . وقيل أيضا :

المرء بلا ثروة غبي خجول فاقد للكرامة . وهو بلا كرامة عرضة للظلم ، والظلم يدفعه الى هوة اليأس ، وعندما يستبد به اليأس يصبح فريسة للألم، وعندما يسلم نفسه للألم يذهب عقله ، وعندما يذهب عقله ينتهى به الأمر الى الخراب . أفلا ترى أن الفقر أس البلاء ؟ وقيل كذلك :

أن يدفع المرء بكلتا يديه بين فكى ثعبان هائج وأن يتجرع السم ويذهب ليرقد في القبر وأن يلقى بنفسه من قمة جبل شامخ ويتمزق اربا الى مائة شلو خير له من أن ينعم بالراحة بفضل مال يتسوله من أخساء، وأن يقدم المرء الذى فقد سبل العيش جسده طعامـــا للنار خير له من أن يسأل خسيسا غليظ القلب . والآن كيف أبقى على حياتى وقد ساءت معى الأمور الى هذا الحد ؟ ربما استطعت أن أقيم أودى بالسرقة ، وهذا في نظرى يجعلنى أسوأ حالا لأن معناه أن أستولى على مال الغير . فقد قيل :

أن يلوذ المرء بالصمت خير له من أن يتفوه بكلمة زائفة ، وأن يستخصى خير له من أن يحظى بزوجة غيره وأن يجـــود بأنفاسه خير له من أن يبتهج بنهـــش الأعراض ، وأن يعيش على صدقات الاصدقاء خير له من أن ينعم بأمـــــوال سلبت من الغير . واذن فهل قدر لى أن أعيش بما يتصدق به علىّ الغير ؛ إن هذا لأمر فظيع وهو في رأيي الباب الثانى الذى يؤدى الى الموت لأن :

الحياة والموت يستويان لدى المريض، ومن يعيش طويلا في المنفى ومن يأكل خبز غيره ومن ينام في بيت آخر ، في الموت راحة لهؤلاء جميعا . والرأى عندى أن أسترد ذلك المال الذى سلبه كبير الكرش . وقد رأيت أن هذين الناسكين قد

وضعا كيس المال تحت هذه الوسادة . وسوف أعيد هذه الثروة الى جحرى الحصين وإذ ذاك أتمتع مرة أخرى بالسيادة كما كنت من قبل بفضل قوة المال العجيبة .

وبهذا العزم ذهبت الى هناك ليلا وبينما كان الناسك يغط في نوم عميق تسللت الى أعلى وثقبت الكيس واذا بالناسك يستيقظ ويبادرنى بضربة على أم رأسى بعصاه المصنوعة من قصب الخيزران المشقوق . وتحاملت على نفسى وتحركت بما بقى في من رمق أطلب الفرار واستطعت أن أعود الى جحرى وأنا لا أزال على قيد الحياة . ومضى وقت طويل تمالكت فيه قواى فانتعشت آمالى واستجمعت شجاعتى وزحفت حتى اقتربت من الدنانير بيد أنه تنبه الى وبادرنى بضربةشديدة لا رحمة فيها على رأسى بهراوته . ولا زلت حتى اليوم أرتجف فرقا عند رؤية هؤلاء القوم ولو في الأحلام . انظر الى هذا الجرح الذى لا يزال أثره واضحا في رأسى . . لقد أصبت به في ذلك العهد ! .

وقد قيل :

عندما تلم بالمرء داهية دهياء ويبادر الى المخاطرة بحياته ، فانه في مواجهة هذا الخطر الداهم لا يكترث بالأموال البغيضة المحفوفة بالمخاطر ولايتمنى الاالحفاظ على حياته . ولكنه ما أن ينجو بنفسه من براثن الخطر حتى يندفع مرة أخرى للحصول على هذه الأموال لتحل به كارثة جديدة . والناس في غمار حرصهم على الحياة ولهفتهم على الثروة لا يترددون في المجازفة باحداهما في سبيل الأخرى.

وقررت بعد تفكير عميق أن أنصرف عن هذه الثروة التى كانت لى في يوم من الأيام وكففت عن السعى الحثيث اليها وفي هذا قيل :

إن عضو البصرحقا هو المعرفة لا العين ، والنبل حقا هو الا ستقامة لا الانحدار من أسرة نبيلة . والفلاح حقا هو القناعة ، والحكمة بحق هى الانصراف عما لا يمكن عمله .

وإن الحظ كله للقنوع . ألا ترى أن الأرض بأسرها تكون مكسوة بالجلد لمن ينتعل في قدميه حذاء ؟ أولا ترى أن الرضا الذى يحس به الخليون الذين ارتشفوا كأس القناعة حتى الثمالة أعظم من أن يصل اليه أولئك الذين يندفعون هنـــا وهناك وهم يسعون سعيا حثيثا وراء الذهب ؟

إن مائة فرسخ ليست بعيدة على من تدفعه شهوة المال والجاه ، والرجل القانع لايسعى وراء المال ويكتفى بما بين يديه .

وإذا استحال على المرء الحصول على الثروة بأية وسيلة فان خير سبيل ينتهجه هو الذى يمليه عليه سداد الرأى . وقد قيل : سئل حكيم ما هو الدين ؟ فقال هو الرحمة بالأحياء كافة . وسئل ما هى السعادة بالنسبة للناس في هذا العالم ؟ فقـــال الصحبة . وسئل : وما هى المودة ؟ فقال : الرفق في المعاملة . وسئل : وما هى الحكمة ؟ فقال : هى سداد الرأى .

وبهذا الأسلوب من التفكير جئت الى غابة موحشة وهناك رأيت المطـــــوق أسيرا يتخبط في الشباك فأطلقت سراحـــه ، كمـــا سمعت ، بفضل مآثرى التى أحرزتها عن استحقاق فآثرنى خفيف الجناح بوده وصداقته . ثم أقبل على خفيف الجناح وطلب منى الحضور الى هنا فجئت معه لزيارتك . وهذا هو الســـــبب الذى جعلنى أسأم الحياة ، يضاف الى هذا كله أن ما في الكون بأسره ولو ضوعفت ثلاث مرات ، من الغزلان والثعابين والتياتل والآلهة والشياطين والناس يتناولون غذاءهم قبل منتصف النهار .

والانسان سواء أكان فاتحا للأرض بأسرها أم كان في الدرك الأسفل مـــــن الوجود لابد أن يأكل ليعيش . . لابد أن يتناول حفنة من الأرز . وقل لى بربك أى رجل حصيف يقوم بعمل قبيح للحفاظ على (جسده أو روحه) اذا كانت حصيلته هى الشر المستطير ، كأن يستهدف غاية وضيعة ، ويؤدى في نهايـــــة الأمر الى لا شىء ؟

[نهاية الحكاية الاولى]

وعندما سمع « الكسول » منه هذا قال له مواسيا : لاتنزعج أيها الصديق لأنك فارقت أهلك وبلدك . ولاتشغلن بالك بهذا الأمر وأنت العاقل الرشيد وقيل فضلا عن هذا :

قد يقرأ الناس مصنفات العلوم ويدرسونها ومع ذلك يظلون أغبياء والعاقل حقا هو من يعمل بما تعلمه . ألا ترى أنه لايكفى أن يعلم المريض باسم الدواء الناجع لكى يشفى من مرضه وتعود اليه عافيته ؟ اذا كان المرء يخشى نتائج الحزم فلا جدوى على الاطلاق من اكتساب المعرفة . فقد يحمل الكفيف على راحة يده مصباحا ولكن هل يجديه ذلك في شيء ؟ إن المرء لا يأمن لمعروف الأيام ، فقد يتسول من كانوا يجودون بالصدقات ويقتل من كانوا يقتلون غيرهم ويعذب من كانوا يعذبون الآخرين .

والرأى عندى أيها الصديق أن تعيش في هذه الضيعة التى تقر فيها النفوس . يضاف الى هذا كله أنه لا حاجة بك الى الاستسلام لهذه الأفكار فقد قيل : على العاقل أن يعرف حق المعرفة أنه لا وزن للأسنان والشعر والأظافر اذا اقتلعت من مواضعها الأصلية ، ولا يهجر موطنه وهذا هو ما درج عليه الأخساء أما النبلاء فلا فرق عندهم بين أرض الوطن وبين أرض أجنبية لأنه :

أى أرض يمكن أن يطلق عليها أرض الوطن أو أرض أجنبية عند رجل حازم عاقل ؟ فأيا كانت الأرض فانه يستطيع أن يقيم فيها بل ويستطيع أن يجعلها ملكا له بقوة ساعده . وأيا كانت الغابة فان الأسد يستطيع أن يخترقها بضربات قوية. من أنيابه ومخالبه وذيله ، بل انه هناك يروى ظمأه بدم الفيلة النبيلة التى يصرعها .

والرأى عندى أيها الصديق أن تعمل بلا كلل ولا ملل وأن تعرف أن الثروة والمتعة لاتفارقان المجتهد أبدا . وقيل أيضا :

إن الأعوان يقبلون على المجتهد والأموال تسعى اليه . ألا ترى أن الضفادع تأتى الى البركة وأن طيور الماء تخف الى البحيرة الممتلئة ؟

إن ربة الحظ تسعى الى كل رجل ناشط متأهب للعمل ماهر في أدائه ، خلو من الرذائل جرىء، شاكر للنعمة ، متشبث بالصداقة . . اليه وحده تسعى وتلازمه.

وربة الحظ ترفض أن تحتضن كل رجل مذبذب متقاعس عن العمل ، مستسلم للقدر ، عاطل عن الشجاعة ، مجرد من الرجولة مثلها في ذلك مثل امرأة فاتنة لاتقبل أن تحتضن زوجها العجوز .

الرجل الكفء الذى يعمل بنشاط يستطيع أن يحصل على الثراء في هذا العالم ولو كان غبيا . والرجل الذى يعوزه النشاط لايلقى أى احترام ولو كان له عقل راجح مثل عقل برهسباتى[1] وأنت ياسيدى ، وإن كنت قد فقدت ثروتك فانك وهبت بصيرة نفاذة وقوة واقداما ، ومن ثم لا وجه ، والحالة هذه ، للمقارنة بينك وبين غيرك من الآحاد العاديين . فكيف تسأم الحياة ؟

إن الحازم ينال مكانة رفيعة يحظى فيها بالشرف والامتياز ولو كان عاطلا عن الثروة . والضعيف يهوى الى درك يلقى فيه الاحتقار والهوان ولو أحاطت به الثروة من كل جانب. ألا ترى أن الكلب لايتمتع بهيبة الأسد ولو أحيط عنقه بطوق من الذهب . فالحزم موهبة فطرية تزداد باكتساب كثير من السجايا النبيلة.

إن البحر المحيط في نظر من يتحلى بالاقدام والعزم ، ولا يفتقر الى الجلد والقوة ، ليس الا بطيحة صغيرة آسنة ، والهيملايا ملك الجبال ، في نظره ، ليس الا قمة تل من تلال النمل . . والى هذا الرجل تأتى ربة الحظ طائعة مختارة ولا تأتى قط الى ضعيف القلب خائر العزيمة .

إن اولئك الذين يتحلون بالحزم والعزم يرون أن قمة ميرو ليست شامخة جدا وأن جهنم ليست عميقة جدا وأن المحيط الواسع ليس بحرا مترامى الأطراف .

لِمَ تتهلل لأن لديك ثروة ولماذا تبتئس لفقدها؟ إن مثل تقلبات الأيام على الناس كمثل كرة من المطاط تضرب باليد .

---

(١) معلم الآلهة ورب الحكمة

والشباب والثروة يتبددان سريعا كالفقاقيع في الماء لأن :

الناس لا يتمتعون بالشباب والثروة الا لأمد قصير مثلهما في ذلك مثل ظل الغمامة وصداقة المحتال والحنطة الصغيرة والعذارى .

وفي وسعك أيها الصديق الذهبي أن تدرك هذا فلا تحزن ولا تبتئس ولو سلبت منك ثروتك .

وقد قيل :

ما قدر لابد أن يكون، وما لم يقدر لن يكون، وهذه الحكمة هي الترياق الذى يفسد مفعول سم الهموم ، فلم لاتتجرعه ؟ أقم هنا أيها الصديق وأنت خالى البال ولا تحمل لعيشتك هما . واعلم أن : من خلق طيور البجع بيضاً والببغاوات صفرا والطواويس متعددة الألوان سوف يرزقك بما يقيم أودك .

على المرء ألا يحزن قط لضياع ثروته وترديه في محنة . . وعليه ألا يطلق العنان للفرح عندما يصادفه حظ سعيد لأن الناس يحصدون لا محالة ثمرات فعالهم الماضية ، حسنة كانت أم سيئة : على كل ذى قلب طاهر أن يؤدى كل يوم عملا واحدا على الأقل من الأعمال الصالحة : وليكن صلاة أو وفاء بنـــذر أو صياما لأن الموت يحصد كل يوم أرواح المخلوقات مهما حاولت النجاة منه .

لا كنز أثمن من البر ، وأى سعادة تعدل القناعة ؟ وأى حيلة أجمل من الخلق الكريم ؟ وليس هناك على وجه الأرض ما يعدل الصحة . وقصارى القول اعتبر أن هذه الدار ملك لك ، واستبشر ولاتخش شيئا واقض معى وقتك في مودة ومحبة . وعندما سمع خفيف الجناح كلمات « الكسول » التى تزخر بجوهر الحكمة أشرق وجهه بنور الرضا وقال : أيها « الكسول » انك لتتحلى حقـــا بسجايا الزعيم الذى يعتمد عليه الأتباع وقد فاض قلبي بالرضا الكامل لهذه الحماية التى أسبغتها على الفأر الذهبي .وأى عجب في هذا ؟ لقد قيل :

عندمـــا يلتقى الأصدقاء الأعزاء بأصدقاء أعزاء ويتبادلون مشاعر الفرح والسرور فانهم يرتشفون رحيق السعادة ، وهؤلاء هم الذين ينعمون بالعيش حقا وهم النبلاء حقا .

والذين لاهم لهم الا الاستمتاع بحياتهم والذين تفتنهم الشهوات عن تحقيق غاياتهم فإنهم على الرغم من سمو مكانتهم فقراء حقا ، لأن جهودهم تضيع هباء ، ولأنهم قدموا طائعين لأصدقائهم ما يتحلون بـــه .

لايفرج كرب النبلاء غير النبلاء، ألا ترى أن الفيلة وحدها هى التى تستطيع أن تنهض بمهمـــة انقاذ الفيلة التى تغوص في مستنقع ؟

أسبغ الحماية دائما على الضعيف ولو خاطرت بحياتك . واعلم أن الماجدين يرون أنـــه لاثواب يرجى من الحياة الدنيا الا بعمل الخير للآخرين . إن من يستحق الثناء بين جميع الناس على وجه الأرض هو من لايرد السائل أو ابن السبيل ، وهو وحده الذى يؤدى الواجب المفروض على الأبرار .

وبينما هم يتحادثون أقبل الى البركة الواسعة غزال يدعى المرقش ، وكان يعدو فزعا من الصيادين ووصل اليهم وقد نال منه العطش . وعندما رأوه قادما هلعت قلوبهم وتفرقوا يجرون مبتعدين . وهرع الغزال الى الماء وهو يلهث من العطش . وسمع الكسول صوت رشاش الماء فانطلق بسرعة ونزل من الشاطئ وغاص في الماء . وفزع الفأر الذهبي بدوره وهرع يختبئ في جحر بجذع شجرة . أما خفيف الجناح فقد طار وصعد الى أعلى ليتبين كنه ما يحدث وهبط فوق شجرة سامقة . بيد أن المرقش وقف ساكنا على حافة البركة يتلفت حوله خوفا على حياته وحلق خفيف الجناح عاليا في الفضاء وتطلع حواليه الى الأرض فلم يبصر ما يريب على بعد فرسخ ، وعندئذ هبط على الشجرة مرة أخرى وقـــال للكسول : عد ، عد ، لاخطر عليك من أية ناحية . لقد تطلعت حولى فلم أجد أحداً سوى غزال من أكلة الحشائش أقبل الى البركة ليروى ظمأه .

وعندما سمع « الكسول » الحريص هذه الكلمات اطمأن وخرج مرة أخرى وعاد ثلاثتهم ، بعد أن أطمأنوا ، الى الموضع نفسه ثم قال « الكسول » مرحبا بالغزال : اشرب أيها الصديق وابترد في الماء ثم عد الينا عندما تنتعش وأنت منشرح الصدر .

ولما سمع المرقش هذه الكلمات قال لنفسه : لاخطر على مطلقا من هذه المخلوقات ، لأن ذكر السلحفاة ، كما يعرف كل انسان ، لا يستطيع أن يفعل شيئا خارج الماء ، والفأر والغراب لا يأكلان سوى لحم الموتى ولحم الكائنات ذات الأجساد الضئيلة . والرأي عندى أن أذهب اليهم . وما أن انتهى الى هذا الرأى حتى انضم اليهم وقال « الكسول » للمرقش بعد أن رحب به وحياه التحية الواجبة : ألا فليحالفك الحظ يا سيدى . ولكن هلا تفضلت وقلت لنا كيف أتيت الى هذا المكان الخفى من الغابة ؟ فرد عليه قائلا :

لقد ضقت ذرعا بحياة التجول المحزنة التى كنت أعيشها وطاردنى الفرسان والصيادون والكلاب وحاولوا أن يسدوا على السبل والمسالك ففزعت وعدوت بأقصى ما أستطيع من سرعة وسبقتهم جميعا وجئت الى هنا أبحث عن جرعة ماء وأود الآن أن تتوثق بينى وبينكم الصداقة .

وعندما سمع الكسول منه هذا قال له : لا تخف أيها الصديق واعتبر أن الدار دارك وأقم هنا منشرح الصدر وثق أنك لن تتعرض لأى مضايقة .

ومذ ذاك قضى الجميع وقتهم يتبادلون الأحاديث الودية . وكانوا بعد أن يتناولوا ما لذ لهم وطاب من الطعام والشراب يجتمعون عند ظهر كل يوم في ظل شجرة كبيرة ، ويشغلون أنفسهم بمناقشة موضوعات علمية مختلفة . وذات يوم تخلف المرقش عن الوصول في الساعة المعتادة . وعندما افتقدوه انشغلت قلوبهم وتوجسوا شرا ، وخشوا أن يكون قد حاق به مكروه وخالجهم الشك في أن حادثا قد وقع له ولم يشعروا بالارتياح . وقال الكسول لخفيف الجناح : إنك خير من يصلح لهذه المهمة فقد خلقت لها . فهلا طرت وكشفت لنا ما حدث للمرقش .

وما أن سمع خفيف الجناح هذه الكلمات حتى طار . وقبل أن يذهب بعيداً رأى المرقش في موضع يؤدى الى الماء وهو مقيد بوثاق جلدى متين مشدود الى عمود . فأقبل عليه وقال له في حزن : أيها الصديق ، كيف وقعت في هـــذا الشرك ؟

فقال المرقش : « ليس هذا وقت اللوم أيها الصديق ، وأنت ترى أنني مهدد في أى لحظة بالموت ،فهيا ولا تتوان طرفة عين . وإنى أعلم أنك كفء ياسيدى ولكنك لا تعرف كيف تقطع الأحبال فبربك انطلق بسرعة واحضر الفأر الذهبي لأنه يعرف كيف يقطع وثاقى هذا بسهولة : فقال خفيف الجناح : سمعاً وطاعة . وعاد الى صديقيه الكسول والذهبي وأخبرهما بوقوع المرقش في الأسر ، وحث الفأر الذهبي على فك وثاق المرقش وسارع بحمل الذهبي معه الى هناك ولما رأى الذهبي ، الغزال المرقش في هذه الحالة اغتمّ غما شديدا وقال له : أيها الرفيق ، كيف وقعت في هذا الشرك وأنت الحكيم ؟ فقال له : أيهـــا الرفيق لماذا توجه الى هذا السؤال ؟ أنت تعرف أن القدر أقوى من كل شيء وقد قيـــل : ماذا يستطيع رجل يتحلى بحكمة باهرة أن يعمل في وجه ذلك الخصم المهول من المحن والموت والقدر ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يصد المحنة الـــتى تحل بكل انسان قبل أن يراها سواء أكان ذلك في الليل أم في وضح النهار وقيل أيضا :

إن عقول الحكماء لتنثنى (كأطراف المصابين بالكساح) عندما يقعون في حبائل الموت وعندما يهزأ القدر بحكمتهم .

وما دمت أيها الصديق النبيل تعرف حيل القدر فهلا بادرت الى تقطيع هذا الوثاق قبل أن يعود الصياد غليظ القلب .

وما أن وجه الى الذهبي هذا الخطاب حتى قال : لاتخف يا صديقى . فما دمت بجانبك فلا خطر عليك من الصياد . ولكنى تواق لأن أعرف كيف وقعت في هذا الشرك وأنت كعهدى بك حذر متيقظ دائما ؟

فقال الغزال : إذا كنت مصرا على أن تعرف فاسمع كيف حدث هذا . وأصارحك القول بأنى سبق أن ذقت مرارة الأسر وها هي ذي الأقدار تأبى الا أن أقع أسيرا مرة أخرى .

فقال الآخر : حسن . أنبئني كيف تعرضت للأسر قبل ذلك .

فقال المرقش :

الحكاية الرابعة

اسر الغزال لاول مرة

كنت أعدو أمام القطيع بأسره ، وأنا لا أزال صغيرا لم أتجاوز بعد الشهر السادس من عمرى ، وكنت أسير أمامه على مسافة كبيرة وكان في وسعى أن أعمل حارسا للقطيع . وكان لنا نحن معاشر الغزلان منهجان في السير : القفز الى أعلى والعدو رأسا ولكن دون الوثب الى أعلى . وبينما كنت يوما أعدو انقطعت الصلة بيني وبين القطيع وغاب عن ناظرى فارتجف قلبي رعبا وحملقت حوالى في كل اتجاه لأرى أين ذهب القطيع وأبصرته آخر الأمر يسير أمامى على مبعدة . وكانت الغزلان تسير وهى تقفز الى أعلى وبهذا استطاعت أن تثب جميعا فوق شرك منصوب وانطلقت تسير قدما ، ولبثت تبحث عنى . وعندما أبصرتها اندفعت نحوها وأنا أسير بطريقة العدو رأسا ، فوقعت في الشباك وهكذا أسرنى الصياد . وعندما عاد قدمنى الى ابن الملك لكى يلهو معى . وما كاد ابن الملك يرانى حتى سر سرورا عظيما وأجزل للصياد العطاء . ودللنى الأمير ورعانى رعاية عظيمة وقدم إلى كل ما اشتهى من لذيذ الطعام الى جانب أسباب الرعاية الأخرى مثل تدليك جسدى بالأدهنة وغسله وتضميخه بالعطور وترطيبه بالمراهم . وكان حريم الملك وسائر الأمراء يجدون في مداعبتى تسلية ولهوا ويدورون بى من شخص الى آخر ولكم ضايقونى بجذبى من عنقى وعينى ويدى وقدمى وأذنى وما الى هذا بسبيل . وفي ذات يوم من الأيام في فصل الأمطار ، وبينما أنا جاثم

تحت فراش الأمير تحركت في قلبي لواعج الشوق للقطيع عندما سمعت هزيم الرعد وهو ينطلق من بين السحب ، وشهدت البرق يخطف الأبصار فعدت بأفكارى الى أخواتى وقلت لنفسى :

متى يتاح لى أن أسير وراء قطيع الغزلان وهى تعدو (هنا وهناك) يدفعها الريح والمطر ؟ فدهش الأمير ، وكان وحيدا لا يؤنسه أحد سواى وقال لنفسه : هأنذا أجلس وحدى فمن ذا الذى نطق بهذه الكمات ؟ وخفق قلبه بشدة وتطلع حوله في كل اتجاه فلم يقع بصره الا على . وعندما رآنى قال في نفسه : عجبا ! إن من قال هذا ليس بشرا سويا . إنه غزال . وهذا في رأيي نذير بالشر . وأعتقد أنى هالك لا محالة : وملك عليه هذا الأمر تفكيره واهتاج اهتياجا عظيما وتلعثم في كلامه وجرى وهو يتعثر حتى خرج من البيت . وسقط صريع مرض خطير وبدا كما لو تقمّصه شيطان مريد . وفي الصباح ارتفعت درجة حرارته وعرض نفسه على الأطباء والسحرة جميعا وأثار فيهم كوامن الجشع إذ وعدهم بالمال الوفير وقال : من يقدر منكم على شفائى من مرضى هذا سوف أجزل له العطاء . وكنت في ذلك الوقت أتعرض للضرب بالعصى والهراوات والقذف بالحجارة من جمهور قليل الادراك لايدرى مـــاذا يفعل ، فخف لنجدتى رجل ورع ، ويبدو أن عمرى لم يكن قد انتهى بعد وقال :

لماذا تقتلون هذا الحيوان المسكين ؟ والتفت هذا الرجل النبيل ، الذى كان يعرف جميع الأسرار لابن الملك وقال له : سيدى ، إن كل قبائل الحيوان تستطيع أن تتكلم ، ولكن يبدو أنك لاتعرف هذا ، بيد أنها لاتفعل ذلك أمام الناس ، وقد عبر هذا الغزال عما يختلج في قلبه بهذه العبارة لأن بصره لم يقع عليك . وحرك فصل الأمطار لواعج شوقه وتحولت أفكاره الى قطيعه فتكلم وقال : متى يتاح لى أن أسير وراء قطيع الغزلان وهى تعدو (هنا هنـــاك) يدفعها الريح والمطر ؟ ومن ثم فلا أساس لمرضك ياسيدى . . إنه مجرد وهم . وما كاد ابن الملك يسمع هذا الكلام حتى شفى من الحمى وأبل من مرضــــه وأصبح سليما معافى كما كان من قبل . وقادنى بعيدا ودهن جسمى وأمر بغسل

جسدي بماء وفير وأرسل في طلب عدد من الرجال يقومون على رعايتي وأمرهم باطلاق سراحي في الغابة نفسها ، وامتثل الرجال لما أمرهم به . وهكذا تعرضت للأسر مرة قبل ذلك ويأبى القدر الا أن يوقعني في الأسر مرة أخرى .

[نهاية الحكايـــة ٤]

وبينما كان الحديث يدور بينهما على هذا النحو كان الكسول قد اقتفــى آثارهما وقد طار قلبه شعاعا ، خوفا على صديقيه ، وأخذ يسير في بطء شديد وهو يسحق تحت أقدامه البوص والأشواك وحشائش الكوشا ، وأقبل في أناة إلى الموضع الذى كانا فيه . وعندما شاهداه ارتجف قلباهما إشفاقا عليه وقالا له : لقد أسأت الى نفسك أيها الصديق بمغادرتك معقلك الحصين وحضورك إلينا . فأنت لاتستطيع أن تحمي نفسك من الصياد أما نحن فنستطيع بكل تأكيد أن نفرمن ذلك الصياد ، الشرير لأنه لو اقترب منا فإن المرقش ، وقد قطع وثاقه سوف يفر على عقبيه ويعدو بعيدا ، وخفيف الجناح سوف يطير ويصعد الى أعــلا شجرة وأنا سوف أجري الى جحر أحتمى به ولن يعجزنى ذلك لضآلة جسمي. كما تعلم . أما أنت ياسيدى فماذا في وسعك أن تفعل اذا وجدت نفسك توشك أن تقع في قبضته ؟ فأجاب الكسول :

لا تقل هذا أيها الصديق ،من في وسعه أن يتحمل ألم فراق أحبائه وفقدثروته إلا لمشاركة أصدقائه في الحياة والمصير ؟ ألا تعرف أن هذه المشاركة أشبه ما تكون بعشب يتداوى به الناس لأن فيه الشفاء ؟

مثل الأيام التى تقضى في صحبة أصدقاء مثقفين محبوبين ، وإن كان المرء لا يصادفها الا نادرا ، مثل رحلة يقوم بها المرء سعيا وراء المال ، وهو يضرب على غير هدى في تيه الحياة . إن القلب يجد السلوى والعزاء عندما يكاشف المرء بهمه صديقا حميما وزوجة فاضلة وسيدا عطوفا . ولهذا يلوح لى أيها الصديق أن المرء يجيل الطرف فيما حوله والشوق يملأ جوانحه وذهنه مكدود يتيه في مناطق مجهولة عندما يفترق عن صديق محب مخلص فاضل . وبينما كان يقول هذا وصل ذلك الصياد . وما كاد الفأر الذهبي يلمحه حتى جرى إلى جحر بعد أن

قطع وثاق زميله الغزال كما سبق أن وعد . وحلق خفيف الجناح في الفضـــاء وانطلق بعيدا عن ذلك المكان . أما المرقش فقد انطلق بدوره يعدو بسرعـــــة مبتعدا عن ذلك الموضع . وظن الصياد أن الغزال تمكن من قطع وثاقه بنفسه ورأى أن هذه حالة فريدة من حالات السحر وقال .: لابد أن القدر قد مد يـــد العون للغزال فقطع وثاقه ! والتفت فرأى ذكر السلحفاة « الكسول » يزحف ببطء على الارض اليابسة فشعر بشيء من العزاء وقال في لهفة : إن كان القدر قد سلبني الغزال وأعانه على قطع وثاقه فانه قدم الىّ ذكر سلحفاة . واندفع إلى بعض حشائش الكوشا فقطعها بمدية حادة وصنع منها حبلا متينا وجر ذكـــر السلحفاة من قدميه وربطهما برباط وثيق وعلقه على قوسه ثم قفل راجعا من الطريق الذى جاء منه .

ولما رأى الغزال والفار والغراب ما أصاب صديقهم ذكر السلحفاة أخذوا يعدون وراءه وهم يصرخون في كرب عظيم وقال الفأر الذهبي : قبل أن أخلص من هم وقبل أن أصل الى شاطئ محيط الأحزان أرى هما آخر قد حل بى ! وقد قيل : في أوقات الشدة تأتى المصائب سراعا ولا تنزل فرادى .

إذا لم يتعثر المرء في سيره فسوف يمضى قدما على الطريق السوى مرتاحـــا مطمئنا ، ولكنـــه اذا ما تعثر يومـــا فسوف يواجـــه حجـــر عـــثرة في كل خطوة يمشيها ، فيا ويلى! ما أن وضع القدر نهاية للثراء حتى نادى الظل الظليل صديقا ، وجد عنده من أضناه السفر راحة وانتعاشا ، وها هو ذلك الصديـــق يقضى عليه أمام ناظرى .

أنى لنا أن نجد صديقا مثل الكسول ! لا ! من المحال أن نعثر على مثل هذا الصديق ! وكيف نعيش والحياة نفسها لاطعم لها بدون الأصدقاء كما يقولون .

لا يستطيع المرء الا بومضة نادرة من ومضات الحظ أن يكتسب صديقـــا ودودا بفطرته . . . ولا يتكلف في صداقته ويخلص لك الود حتى في وقت الشدة .

إن الرجال لايستمدون من الأم أو الزوجة أو الولد تلك البهجة التي تتجدد بدا والتي يستمدونها من الصديق الحميم .

إن العاقل لايتردد في أن يجاهر بأن الصديق الوفي يضفي على الحياة في هذا العالم متعة لا تعادلها متعة . فالصديق يجاب السعادة في هذه الحياة الدنيا ولا وجود للصديق في العالم الآخر .

ويحق لى الآن أن أتساءل : لماذا لا يكف القدر عن توجيه ضرباته المتلاحقة إلى على هذا النحو ؟ فأنا أولا كما تعرفون ، فقدت مالى وتعرضت بسبب فقرى لاحتقار أتباعي وتملكني اليأس ، وصبرت وتحملت العيش في المنفى بعيدا عن أهلي وخلانى ، وأخيرا ها أنذا أفارق صديقا حبيبا . فتأمل كيف تتابعت على حلقات المصائب . وقد قيل أيضا : إن ظروف الحياة التي أثمرتها فعال الناس تقفو بعضها بعضا في أوقات مختلفة ، سواء أكانت خيرا أم شرا ، تتجلى ولاشك في هذه الحياة التي لابديل لها ومع ذلك فانها تبدو لى وكأنها تكرار لشئ واحد يتجسد في صور مختلفة . في الجسد تكمن المصائب والحظ السعيد يعزف لحن البؤس ، واللقاء يعقبه الفراق ، وكل ما يولد لابد أن يموت[1] أى انسان لاتنزل به المصائب عندما يجيء الأوان ؟ وأى حياة في هذا العالم موصولة السعادة ؟ ألا ترى أن السعادة والشقاء يتعاقبان في دورة طبيعية مثل دورة النجوم[2] في فلك السماء ؟ إن الضربات لتنهال بلا توقف على المقعد ، وعندما يفرغ الطعام تشتعل الأحشاء جوعا . والخصومات والعداوات تبرز فى أوقات المحن وفى أوقات الشدة تأتى المصائب سراعا ولا تنزل فرادى .

والآن واأسفاه ! لقد أصابني الضر بفراق صديقى فأى فائدة ترجى من محاولة نسيان هذا الأمر الجلل ولو استعنت بكل قومى ؟

لقد قيل :

من الذى أبدع هذه الجوهرة ذات المقطعين المسماة «رفيق» ؟ إنه هو الذى يفرج الكرب ويزيل الهم وينقذ من الخطر وهو جدير بالحب والثقة .

---

(١) فى هذه العبارات الثلاث من المنظومة تلاعب بالألفاظ بأسلوب المقابلة .

(٢) دائرة البروج

وبعد أن بكى الفأر الذهبي وناح ماشاء له النواح قال للمرقش وخفيف الجناح : على أية حال ما فائدة نواح لايجدى فتيلا ؟ دعونا ندبر وسيلة لتحرير الكسول من أسره قبل أن يؤخذ ويبتعد عن مرمى أنظارنا . فقالا معا : نعم ، لنفعل هذا فورا . فقال : على المرقش أن ينطلق عدوا أمام ذلك الصياد ويعمد الى السقوط في موضع لا يبعد عنه كثيرا ويكون قريبا من الماء ويتظاهر بالموت . وعلى خفيف الجناح أن يحط على جسده ويثبت قدميه بين قرنيه المتفرعين وينقره بمنقاره ويتظاهر بأنه ينقر عينيه . وليس من شك في أن هذا الصياد الأحمق سوف يقول لنفسه في غمرة جشعه هذا الغزال ميت ، وسوف يطرح ذكر السلحفاة ويجرى مسرعا ليحصل على الغزال وعندما يذهب سوف أبادر من جانبي وأقطع وثاق « الكسول » بأسناني حتى اذا تم ذلك جرى بسرعة الى البحيرة ، وعليك أيها المرقش عندما يدنو منك الصياد الشرير أن تبذل أقصى جهدك للفرار منه : وامتثل المرقش وخفيف الجناح ونفذا هذه الخطة بدقة . ورأى الصياد الغزال طريحا على الشاطئ وخيل اليه أنه ميت وأن الغراب ينهش لحمه ، فسر وألقى بذكر السلحفاة على الارض وأسرع نحو الغزال . وفي هذه اللحظة انقض الفأر الذهبي على وثاق الكسول ومزقه إربا ، فسارع ذكر السلحفاة بمغادرة ذلك المكان واختفى في الماء . أما الغزال فعندما رأى الصياد يقترب منه نهض مسرعا واختفى في لمح البصر هو والغراب . وخيل للصياد أن ماشاهده ليس الا ضربا من ضروب الشعوذة وتساءل ماذا : يعني ؟ وقفل راجعا الى حيث كان ذكر السلحفاة فرأى الحبل وكان غليظا في سمك الأصبع مقطعا إربا إربا ، وأن ذكر السلحفاة قد اختفى وكأنما حدث هذا بفعل ساحر . فبدأت تراوده الشكوك في سلامة جوارحه واندفع خارج تلك الغابة بخطوات سريعة وقد طار قلبه شعاعا وهرول وهو يتلفت حوله في كل اتجاه وعاد الى داره حزينا كاسف البال .

وهكذا أقبل هولاء الأصدقاء الأربعة جميعا وقد تخلصوا من المتاعب وسلمت أجسادهم من كل أذى . وانطلقوا مرة أخرى الى مقرهم المألوف وقضوا اوقتهم مذ ذاك في سعادة وعاشوا في طمأنينة يتبادلون الأحاديث الودية ومن ثم :

عندما تعقد الدواب حلفا مثل هذا ذاع صيته في أرجاء العالم ، فأى عجب في أن يعقد مثل هذا الحلف بين الناس الذين وهبوا العقل والذكاء ؟

وهنا ينتهى السفر الثانى المسمى كسب الأصدقاء .

السفر الثالث

الحرب والسلام او الغربان والبوم

والآن يبدأ هذا السفر الثالث المسمى الغربان والبوم ويدور حول الحـــرب والسلام وهذه هى منظومة الاستهلال :

لا تضع ثقتك في امرئ آذيته من قبل ولا في عدو انقلب الى صديق . ألاترى كيف أحرق الغربان عشا كان مملوءا بالبوم ؟

فقال أبناء الملك : وكيف كان ذلك ؟

فقال فصنوشرمان :

يحكى أنه كانت هناك شجرة تين هندى عظيمة في إحدى الغابات، وكانت تبدو كأنها ترحب بالمسافرين بظل أوراقها الوارف وجذوعها المشجرة . وكان يقيم بها ملك للغربان يدعى لون السحاب وله من الأتباع ألف غراب ، وفي موضع غير بعيد كان يقيم ملك للبوم يدعى ساحق الأعداء ، وله من الأتباع أيضا ألف من البوم . واستطاع ساحق الأعداء أن يحصل على معلومات دقيقة عن قلعـــة الغربان من أتباعه ، ودفعه الى ذلك ما يكنه من كراهية تذكيها العداوة الفطرية بين البوم والغربان . وفي جنح الليل أتى ومعه حشد كبير من البوم وانقض عــلى ملك الغربان ورهطه انقضاض الصاعقة وكأنه القضاء المحتوم . وأوقع بالغربان مجزرة رهيبة وانصرف راضيا عن نفسه وعن أتباعه . وفي صباح اليوم التـــالى وجد لون السحاب أن كثيرا من الغربان الذين أفلتوا من المذبحة قد خرجوا مـــن المعركة بمناقير محطمة وأجنحة مهيضة وسيقان مكسورة فأمر بتفتيش المعسكـــر بأسره وتلقى عنه تقريرا وافتتح المجلس الذى عقده لوزرائه بهذه العبارات : ها أنتم ترون هذه المذبحه الرهيبة التى أوقعها بنا عدونا ساحق الأعداء . لقد وجـــد الطريق الى معقلنا الحصين وسوف يتحين ولاشك فرصة أخرى للمجيء مرة ثانية

هذه الليلة [1] ليقضى علينا القضاء الأخير . فهيا بنا نضع الخطط المحكمة بلا امهال لابقائه خارج المعقل . وعندما سمع الغربان منه هذه العبارات انسحبوا الى مكان خاص . وكان له خمسة وزراء توارثوا منصب الوزارة أبا عن جد، وهم الطائر : الى أعلى، والطائر قدما ، والطائر خلفا، والطائر أماما ، وطويل العمر . وبدأ يسألهم واحدا واحدا وسأل من بينهم أولا الطائر الى أعلى وقال :

سيدى ، بم تشير علينا أن نفعل بعد ذلك في هذه الظروف ؟ فأجاب : وهل أعرف شيئا يستحق أن أشير به ؟ مولاى إنى لا أستطيع أن أردد الا ما ورد في كتب العلم : عندما يتعرض المرء لهجوم من قوة أعظم فليس هناك أمامه سوى أن يخضع لها أو يغادر البلاد .

وعندما سمع ملك الغربان هذا قال للطائر قدما : وما رأيك أنت يا سيدى ؟ فقال :

مولاي ، بالنسبة لما قاله زميلى من أن من يتعرض لهجوم من قوة أعظم يجب أن يغادر البلاد أرى أن المرء يجب ألا يغادر معقله الحصين فجأة وبدون سبب وجيه . والرأى عندى أننا في هذه الظروف يجب أن نقضى الوقت بين بين . . عندما يهددنا الخطر ننسحب وعندما نكون في أمان نبقى في معقلنا هذا .

ولما استمع الملك لرأيه هذا سأل الطائر خلفا : وأنت يا سيدى ، ما رأيك في هذا الأمر ؟ فأجابه بقوله : أيها الملك إن عملية الرحيل والعودة سوف تنهك قوانا وتؤدى بنا الى الهلاك . إذ لا يخفى عليك أن علينا أن ننقل ونعيد الفقراء والعميان والمشلولين والمشوهين ومن لهم أجنحة مهيضة والعرج والمرضى الى جانب متاعنا كله ، وهذا وحده يكفى لأن يحيق بنا الخراب والدمار . والرأى عندى أن السلام هو خير ما ننتهجه في هذه الظروف لأنه إذا تعرض ملك ضعيف لهجوم من ملك قوى له جيش قوى فليس أمامه الا أن يسارع بعقد صلح ينقذ به خزانته وجيشه ونفسه . ولهذا يحسن بنا أن نبادر بالخضوع لهم حتى نبقى

(١) وفى رواية أخرى ليلا

هنا في صفاء ولا يزعجنا أحد . فلما فرغ الملك من مشورته أيضا سأل الطائر أماما : سيدى بماذا تشير علينا في هذه الظروف ؟ فرد قائلا : مولاى خير لنا أن نقيم في الغابة ونشرب الماء عكرا بما اجترته الغزلان من أن نعيش في خضوع زرى لعدو ذاق حلاوة السيادة . يضاف الى ذلك أن :

على الرجل القوى ألا ينحني قط أمام رجل ليس ندا له، فانحناء المرء أمام من لا يعد من أنداده هو الشر المستطير . وهذا التسليم بالخضوع ضيم يأباه الرجال الأقوياء ذوو الإقدام . وقد قيل أيضا :

إن ظل الانسان يطول عندما ينحني كما يحدث للعصا ، بيد انه اذا تجاوز الحد في انحنائه فان ظله يتلاشى تماما والرأى عندى أن على المرء أن ينحني على شريطة ألا يتجاوز الحد في انحنائه . وليس لدينا الكثير مما نلتقى معهم فيه على صعيدواحد فكيف يمكننا بدون أساس مشترك أن نعقد معهم صلحـــا ؟ والرأى عندى أن الحرب معهم هى خير الحلول بالنسبة لنا على الاطلاق . وعندما علم لـــو ن السحاب بآراء هؤلاء الأربعة من وزرائه التفت لطويل العمر وقال له : أبتاه ، انك وزيرنا بالوراثة ، ولبثت في هذا المنصب فترة أطول من غيرك وقد وقفت حياتك على تحقيق الرفاهية لنا فماذا يحسن بنا في رأيك أن نفعل وقد تطـــورت الأمور وأصبحت كما ترى ؟ إنى على يقين بأنك سوف تشير علينا بخير ما يجدر بنا أن نفعله .

وعندما سمع طويل العمر هذه الكلمات قال : وماذا عساى أن أقـــول يا مولاى بعد أن قال هؤلاء ما قالوا ؟ لقد حبذ بعض زملائى الحرب ، وآثــر بعضهم السلام،وقد عبر صاحب كل رأى عن وجهة نظره خير تعبير . وبالنسبة لما قاله زميلي الطائر خلفا،أرى أن هذه النصيحة تحمل في أعطافها القضاء علينا،إذ كيف نخوض معهم معركة على قدم المساواة ؟ من الو ضح أن هذا القتال لـــن يكون متكافئا وفيه غبن لنا فهم أقوى منا من جميع الوجوه . وأرى أنه ليس من الحكمة أن نقاتلهم فقد قيل : كل من يندفع بلا روية ولا تبصر الى عمل لايقيس فيه قوته وضعفه بقوة عدوه وضعفه فلا يلومن إلا نفسه إذا حلت به كارثـــة،

على المرء ألا يستهين بالأعداء ولو كانوا أقل منه وزنا ،لأن من يفعل غير ذلك لا يحصد الا الفشل . على المرء أن يلزم جانب الحذر والارتياب مع عـــدو يتذرع بالصبر والحكمة ويهاجم في الوقت المناسب ويعرف نقاط قوته وضعفه ومواطن قوة الخصم وضعفه .

من تسلس له قياد ربة الحظ ويكسب قلبها بوسائل سياسية سوية تلازمـــه وهي قريرة العين ولا تفرّق عنه مادامت لم تتعرض بزواجها منه لما يشينها .

في وسع عدو عظيم ، ولو كان يقيم على بعد أن يقضي على ملك جليل الشأن وماذا في وضع امرئ خائر الهمة أن يفعل ولو كان مسلحا وعدوه في متناول يده.

لا تحتقر المرء ولو كان خائر العزم ، اذا أسيئت معاملته أو فر بنفسه مـــن ساحة المعركة وتخلى عن الجميع . ولا تحتقر المرء ولو كان وحيدا مجردا مـــن السلاح . هكذا يقول الخبراء في علم تدبير الملك .

إن المنتصر حقا هو من يتغلب على عدوه بلا مشقة ، والمنهزم حقا هو مـــن يخوض مع عدوه معركة غير محققة النتيجة ويمكن أن يكسبها خصمه .

النجاح ضربان معروفان : نجاح يتوسل بالحيلة ، وآخر يتوسل بالقتـــال . والنجاح الذي لا يظفر به المرء بالاستراتيجية يعني هلاكه المحتوم . فأي الضربين في اعتقادك أفضل ؟

من العســير ادراك مناهــج الحكــم لدى المتعالين والخبثاء والجشــعين والمستسلمين لشهواتهم والأخساء والمنتفخة أوداجهم من الكبرياء وسريعـــي الغضب .

وهذه المناهج نفسها لا يحافظ عليها الا من لا يتجاوزون الحدود الصحيحـــة ومن لقنوا أحسن تعليم والقادرون على ضبط النفس والصابرون والبارعون في أصول السياسة ووسائلها وغير الأغبياء .

وأنا لا أشير عليكم بالحرب على الاطلاق ، فمثل من يقاتل رجلا يفوقه قوة كمثل من يقاتل فيلا وهو راجل ، كلاهما ينتهى به الأمر الى الهلاك التام !

فقال لون السحاب : حسن يا أبتاه . والآن ما هو رأيك النهائى ؟ فأجاب: سيدى ، لقد قيل :

ليس من شك أنه يستحيل على المرء الظفر بربة الحظ ولو دفع مهرها غاليا وضحى بحياته في سبيلها ، وهى تخف طائعة مختارة الى دار من يعرض النصيحة الخالصة .

كل من لا يطلب نصيحة أصدقاء يتمنون له الخير و يعرفون ما ورد في كتب العلم ، ويسألهم واحدا بعد الآخر في أمور مختلفة يستبد به الكرب .

إن الحظ السعيد ليخف إلى الرجل الممتاز الذى يعمل حساب المكان والقوى والواجب والمناهج السياسية وحاضره ومستقبله وقبل أن يقدم على أى عمل ، كما تخف الأنهار إلى المحيط الزاخر بالماء .

يجب أن يكون المستشارون من الأبطال وأن تكون صحائفهم بيضاء ناصعة لاتشوبها شائبة ، ويجب أن يكونوا عقلاء بعيدى النظر لأن المملكة انما تعتمد على المستشارين الصالحين .

ان الحظ لن يسير أبدا في ركاب الجاهل ولو شرب المجد بالانتصار على أعدائه في معركة يتطاير فيها شرر لا حصر له من النار التى تنشأ من احتكاك أنياب الفيلة . ولا مندوحة لمن ينشد النصرمن أن يتبع ما يراه المستشارون البارعون فبمشورتهم يتحقق له النجاح التام .

إن ربة الحظ لاتختار من ينحدر من أسرة عريقة ولا ذا المظهر الوسيم ولا من اكتسب المعرفة وهى لاترى في ذلك دليلا على الامتياز . وصحيح أنها مترددة ولكنها تلازم الرجل الشجاع الذى يحيط به مستشارون صالحون وتتشبث بـه وحده .

هل هناك شك في نجاح من ينتهج أشكال السياسة الستة[1] ويجعلها دعامته ؟ ألا فليتبع أساليب النبلاء وعندئذ لن يكون من الصعب عليه أن يظفر بالنجاح .

ألا يندفع الرجال المعتزون بأنفسهم الى الردى بلا وجل من أجل المجد ؟ إنهم لن ينالوا قبسا من الخلود اذا جلل حياتهم العار » ارفع قدمك اليمنى (واخط الى الامام) الى النصر ! لم تتمهل ؟ ان أساتذتنا يقولون ان التسويف أس البلاء.

أى فائدة ترجى من هذه الثرثرة غير المجدية التى تشبه حديث الببغاء والتى تنبذ نبذ النواة بمجرد سماعها ؟ اذا كنت عاقلا فاترك الصمت وتحدث بمايقتضيه الموقف لأن العقلاء يصرحون بأن النصر أساسه النصيحة الخالصة .

ولكن من المعروف جيدا أن هناك ستة أبواب للنصيحة يمكن أن تغشاها من خلالها أيها الملك . وعلى الرغم من انك تعرفها يا مولاى حق المعرفة فسوف أذكرها لك يا صاحب الاسم المجيد ! المرءنفسه والوزير والرسول وصاحب السر ومرابض التطهر الثلاثة كل يوم وتعابير الوجه والايماءة وتعد الباب السادس . وذلك هو الرأى المقبول الخاص بالنصيحة . ومهما يكن من شئ فاسمع ثمرة النصيحة التى لاتذيع . واعلم أن المرء يغنم في الدنيا ولايتعرض لخسارة في الدين أو الحب وهذه هى فائدة المستشارين مضاعفة ثلاثا : الموافقة على القرارات وازالة الشك والحكمة الحاضرة أبدا .

ولهذا يجب بذل كل الجهد للمحافظة على سرية النصيحة . مثل النصيحة التى تطبق تطبيقا غير سليم مثل غول يستغاث به خطأ ، وهى لابد أن تقضى على من يستعين بها . إن الانقسام في الرأى بين الوزراء لا يؤدى الا الى القضاء على شيعة المرء ورفع شأن العدو وهو لا يفيد أبدا .

كل من يقسم دخله ومصروفاته بطريقة سليمة وكل من يتمسك وكلاؤه بالسرية ولا يفشى سره لأحد وكل من يخاطب وزراءه برفق يحكم الأرض بأسرها حتى حافة المحيط .

---

(١) أنظر صفحة ٤٢

ولهذا أقول مرة أخرى : إنى لا أؤيد الحرب ولكنى أرى أيضا أن السلام مستحيل بالنسبة لنا ما دامت هناك عداوة فطرية بيننا وبين البوم . والآن إذا كنت تنشد نصيحتى حقا فاصرف هؤلاء الوزراء البارعين في الكلام وحده والذين لاهم لهم في الحياة الا التمسك بالوزارة واعلم إنه عندما تجيء اللحظة الحرجة وتتأزم الأمور فلن تثمر النصيحة الخالصة إذا سمعتها ستة آذان .

وعندما فرغ من هذا الكلام قال لون السحاب : أبتاه ، إنى صغير السن قليل الخبرة ، وسوف أفعل ما تشير به علىّ. والأمر كله موكول اليك وإنى أعلم أنك أنت الذى تسدى نصيحة مثمرة وأن لديك العلم والحكمة المكتسبة من التجربة ، وأنك تحب لى الخير أبا عن جد .ولكن هلا حدثتنى عن موضوع أتلهف على معرفته وهو : كيف نشأت عداوتنا مع البوم ؟ فأجاب : بزلة في الكلام يا سيدى .

لأن الحمار الأحمق الذى كان يرتدى جلد النمر لقى مصرعه بعد أن ظل يرعى الحشائش بلا انقطاع لأمد طويل بسبب زلة في الكلام . فقال الملك : وكيف كان ذلك ؟

فقال طويل العمر :

الحكاية الاولى

حمار فى جلد نمر

يحكى أن غاسل ثياب كان له حمار وهنت قواه بسبب ما كان يحمله من أثقال عظيمة من الثياب تفوق طاقته . ورأى غاسل الثياب أن ينعشه فكساه بجلد نمر وأطلقه يرتع ويمرح ليلا ويأكل الحب الذى يملكه غيره . وأخذ الحمار يأكل من الحب ما شاء دون أن يقترب منه أحد ولم يفكر أحد في أن يبعده عن الحب لأن الناس ظنوه نمرا . واتفق يوما أن رآه فلاح ، كان يعمل حارسا للحب وقال في نفسه : هذا نمر ! إننى هالك لا محالة ! وانحنى ولف جسده في عباءة

رمادية وتسلل يبتعد في حذر وفي يده قوس مشرعة . وعندما رآه الحمار عن بعد ، وكان قد سمن واستعاد قواه ظن أن الفلاح أتان . ولما كانت منيته قد حانت فقد عدا خلف الفلاح بأقصى ما يستطيع من سرعة وبدأ يطارده . فأطلق الرجل ساقية للريح ، وجرى كما لم يفعل من قبل . وقال الحمار في نفسه : لعلها أخطأت الظن بي واعتقدت أني نمر لأني أرتدي جلده . وأرى أن أعود الى طبيعتي وأطمئنها بالنهيق .

وما ان استقر على هذا الرأى حتى بدأ في النهيق . وسمع حارس الحب هذا الصوت فدهش له وعرف أنه إنما يواجه حمارا لا نمرا فاستدار وأطلق عليه سهما صرعه في الحال .

[نهاية الحكاية ١]

ولهذا أقول : لأن الحمار الأحمق الذى كان يرتدى جلد نمر لقى مصرعه بعد أن ظل يرعى الحشائش بلا انقطاع لأمد طويل بسبب زلة في الكلام . كذلك بدأت عداوتنا مع البوم بزلة لسان . فقال لون السحاب : وكيف كان ذلك ؟ فروى طويل العمر هذه الحكاية :

الحكاية الثانية

الطيور تختار ملكا

يحكى أن جماعة من الطيور لم يكن لها ملك فاجتمعت وأخذت تتشاور فيمن تنصبه ملكا عليها وقررت آخر الأمر أن تنصب البوم ملكا عليها وجمعت كل ما يلزم لتتويجه طبقا للشعائر المرعية ، وأعدت لحفل التتويج الشماسى وشعارات الملكية والمراوح والعرش والمقعد الملكى والثياب الكتانية والأوانى المقدسة المزخرفة بأشكال هندسية الى غير ذلك من شعارات الملك . وعند ذلك حلق غراب في الفضاء وهبط . وما ان رأوه حتى توقفوا عن المضى في اجراءات حفل التتويج وقالوا : لابد أن يشترك هو أيضا معنا في الاجتماع وليس له أن يعتذر

لأن اختيار ملك لنا يهم العالم بأسره . وعندما وصل إليهم سألوه : سيدى هل توافق أنت أيضا على اختيار البوم ملكا لنا ؟ فقال : لماذا ؟ هل بادت كل الطيور ؟ هل اندثر البجع والبط والأوز الأحمر القانى والكروان والطاووس والوقواق والحمام والدراج وغيرها من الطير حتى ينصب علينا هذا البوم بسحنته الكئيبة ملكا ؟ يضاف إلى هذا كله أنه :

معقوف الأنف أحول العينين ، له نظرة وحشية غير ودية ، وسحنته تنطق بالشر عندما يكون راضيا ، فبربكم كيف يبدو عندما يكون غاضبا ؟ ومن الطبيعي أن يكون كلامه فظا ممعنا في القسوة تافها كريها . فاذا توجتم هذا البوم ملكا عليكم فكيف تأملون في الحماية ؟

إن كل ما ينظر إليه يراه أحمر كاللهب ولا يمكن الافادة منه حتى في الايهام بخدعة .

وقد قيل : قد يتوسل الملك بخدعة لتحقيق النجاح إذا كان لا حول له ولا طول فبخدعة القمر عاشت الآرانب في سلام فقالت الطيور : وكيف كان ذلك ؟ فقال الغراب :

الحكاية الثالثة

الفيل والارانب والقمر

يحكى أن الجدب أصاب أرضا واستمر اثنى عشر عاما ، فجفت العيون والجداول والصهاريج والبحيرات وأشرفت كل الحيوانات وبخاصة الفيلة على الهلاك بسبب العطش ، وتعرضت لمحنة شديدة فاستغاثت الفيلة بملكها وكان يدعى ذا الأنياب الأربعة وقالت له :

مولانا إن صغار الفيلة كادت تهلك من العطش ، وبعضها يحتضر والبعض الآخر مات بالفعل فهلا دبرت لنا حيلة تفرج بها كربنا وتوفر لنا بها من الماء ما يروى ظمأنا .

وعندئذ بادر ملك القطيع بإرسال بعض الفيلة السريعة للسعى وراء الماء في كل الجهات الثمانية جميعا . وعاد أحدهم الى الملك وقال له : مولاى في موضع غير بعيد توجد بحيرة تسمى بحيرة القمر وهى مترعة بالماء العذب الصافي ، وهى مترامية الأطراف يبلغ اتساعها ربع مساحة السماء .

وعلى إثر ذلك انطلق ملك الفيلة مسرعا مع رعاياه جميعا ، وهم يهللون من الفرح ، حتى وصلوا الى البحيرة . وبينما كانت الفيلة ماضية في طريقها الى شاطئ البحيرة التى كان يصعب الوصول إليها من جميع الجهات سحقوا رؤوس أرانب كثيرة ، كانت تعيش على هذا الشاطئ وحطمت أعناقها . وانصرف قطيع الفيلة بعد أن ارتوى واغتسل . واجتمعت الأرانب التى بقيت على قيد الحياة للتشاور وقال ملك الأرانب واسمه ذو المنخار الشائك : ماذا نفعل الآن ؟ إن قبيلتنا سوف يقضى عليها لا محالة لأن الفيلة عرفت الطريق لهذه البحيرة ولابد أن تأتى ثانية . وعلينا أن نتأهب لمجيئها وندبر خطة تكفينا شرها . فقال أرنب يدعى «النصر» وكان معروفا بحنكته وسعة حيلته : هذا أمر غير عسير وأنا أعد الجميع بأن الفيلة لن تعود الى هذا المكان . وعلى كل حال أرجو أن تختاروا منكم واحدا ليكون شاهدا على أعمالى .

ولما سمع ذو المنخار الشائك منه هذا قال : متهللا : إنى واثق من نجاح مسعاك يا سيدى العزيز ! لأنه :

عندما يرسل الأرنب «النصر» الى الامام ، وهو يعرف حق المعرفة جوهر تعاليم كتب السياسة ويعرف متى وأين يعمل فان نجاحه سوف يكون كاملا.

إن من يقصر حديثه على الموضوعات المفيدة ويتحدث باعتدال ويتكلم بالسنسكريتية ولا يتكلم كثيرا ولا يتحدث إلا بعد التروى في الحقائق فانى أقرر أن حديثه يكون مجديا ويؤدى الى النجاح في كل عمل .

ولسوف تعلم الفيلة مدى قوتى المثلثة ، ولو أنى سوف أظل بعيدا عن الميدان، عندما يدركون رجاحة عقلك ، ذلك لأننى أستطيع أن أحكم على ملك لم أره

من قبل عند مشاهدة رسوله أو الاطلاع على رسالته وأعرف إذا كان هذا الملك عاقلا أو غير عاقل .

لأن الرسول يستطيع أن يعمل على الاتحاد أو يسعى الى الفرقة والرسول قد يكون سببا في سعادة الناس أو شقائهم . وإذا ذهبت أنت فكأنني ذهبت أنا بنفسي لأن :

في وسعك أن تتحدث بما هو لائق وبما تراه صالحا وفي وسعك أن تقول ماتشاء وإني واثق أنه لن يختلف عما أقوله أنا .

وهذا هو واجب الرسول : كلمات تناسب الموضوع المطروح للمناقشة ، لا أكثر ولا أقل . ويجب أن يعرف كيف يعبر عن غرضه في إيجاز بحيث يتحقق الأثر المطلوب .

وبعد أن سمع الأرنب « النصر » هذه الكلمات ودع ملك الأرانب وانطلق لزيارة ملك الفيلة . وعندما وصل وشاهد ملك الفيلة قال في نفسه : أنى لمثلي أن يلقاه وجسدى ضئيل جدا بالقياس اليه . وقد قيل :

ان الفيل يقتل بمجرد لمسة والثعبان بالشم والملك بضحكة والشرير يقتل وهو يبالغ في الكلام المعسول . والرأى عندى أن أتسلق قمة هذا الجبل قبل أن أحيي ملك الفيلة . وبعد أن ارتقى الجبل قال : السلام عليك يا من يقف هناك ! وعندما سمع ملك الفيلة هذا تلفت حوله وقال للأرنب :

من أنت ومن أين قدمت يا سيدى ؟ فقال : أنا رسول من قبل سيدى القمر . فقال ملك الفيلة : حسنا ، أفصح عن مهمتك . فقال الأرنب : أنت تعرف بالطبع يا سيدى أنه ما على الرسول إلا البلاغ المبين . وكل إنسان وكل ملك يستخدم الرسول ليكون لسان حاله . وقد قيل :

إن الرسول لايقول إلا الصدق حتى عندما يلجأ الناس إلى السلاح . ولما كان الرسل لا يقولون إلا ما كلفوا بإبلاغه فان الملك يجب ألا يقتلهم .

والآن أقول لك بأمر القمر : كيف تجرؤ على الحاق الأذى بغيرك دون أن تعمل حسابا للفرق بينك وبين خصمك ؟ لقد قيل :

من يندفع بلا روية ولا تبصر الى العمل دون أن يعمل حسابا لقوته وضعفه وقوة عدوه وضعفه فلا يلومن إلا نفسه إذا ما حلت به كارثة .

وقد اعتديت بلا وجه حق على بحيرة القمر التي تحمل اسمي وقتلت الأرانب التي أسبغ عليها حمايتي وهذا ليس من العدل في شيء . وأراني الآن مدينا لهم بتأييد شخصي . ولما كنت أحملهم على صدري فاني معروف لهذا السبب بالذات بين الناس بالأرنب الموسوم [1] . والآن اذا لم تكف عن هذا السلوك المعيب فسوف تتعرض مني للكثير من الأذى . أما اذا كففت أذاك عنهم فسوف تجني فائدة كبيرة وسوف أنعشك بأشعتي الفضية ، واعلم أنك إن لم تذعن لما أقول فسوف أمسكها عنك ويصلي جسدك شواظ من نار الحرارة وتهلك أنت وأتباعك . وبعد أن سمع ملك الفيلة هذا الكلام من الرسول ارتجف قلبه هلعا وداخله خوف عظيم وقال له : هذا صحيح أيها الصديق . لقد أسأت التصرف بسبب الجهل وأعدك أنني لن أرتكب فعلا يغضب القمر . فقال الآخر : إن جلالته هنا في هذه البحيرة فتعال يا سيدي وحدك لأريه لك . وعندما تقدم لمولانا فروض الاحترام وتهدأ سورة غضبه تستطيع أن تتصرف . وبعد أن قال الأرنب هذا اقتاد الفيل ليلا الى بحيرة القمر وأشار الى صورة قرص القمر المنعكسة على صفحة الماء . وقال ملك الفيلة لنفسه : لا بد أن أطهر نفسي تماما ثم أقدم للرب فروض الاحترام .

ووضع خرطومه في الماء وغمسه مسافة طولى ذراع رجل ، فاهتز قرص القمر وتحرك في الماء المضطرب وأخذ ينتقل هنا وهناك وكأنه مثبت على عجلة ، وخيل للفيل أنه يرى ألف قمر . وتظاهر الأرنب بالفزع وأن قلبه قد ارتجف هلعا والتفت حوله وقال : وا أسفاه ! وا أسفاه ! لقد أغضبت القمر أضعافا مضاعفة ! فقال الفيل : ولماذا غضب القمر المبجل مني ؟

(١) يميز الهنود صورة أرنب في القمر بدلا من صورة رجل .

فأجاب الأرنب «النصر» : لأنك لمست ماءه . وعندما سمع الفيل هـــذا سحب خرطومه من الماء وخر على ركبتيه وذيله بين ساقيه وأحنى رأســه إلى الأرض وقال للقمر المبجل في خشوع : أيها الرب لقد فعلت هذا بســبب الجهل فاغفر لى فعلتى ولن أعود إلى هنا مرة أخرى ! وما أن قال هذا حتّى قفل راجعا من الطريق الذى أقبل منه دون أن يلتفت وراءه ولم يعد إلى هـذا الموضع مرة أخرى .

[نهاية الحكاية ٣]

ولهذا أقول : قد يتوسل الملك بخدعة لتحقيق النجاح إذا كان لا حول له ولا طول، فبخدعة القمر عاشت الأرانب في سلام .

وفضلا عن هذا فإن هذا البوم ذا الأفكار الخبيثة دنىء لا يستطيع أن يحمــى رعاياه . وقد قيل : عندما يحتكم متخاصمان الى ملك خسيس ليقضى بينهما فهيهات أن يجدا عنده الانصاف . وليس من شك في أن كلا منهما هالك لامحالة كما حدث للأرنب وطائر الحجل .

فقالت الطيور : كيف كان ذلك ؟ فقال :

الحكاية الرابعــة

القط وطائر الحجل والارنب

حدث منذ أمد بعيد أنني كنت أسكن فوق شجرة وكان تحت هذه الشجرة نفسها جحر يعيش فيه طائر معروف باسم الحجل ونشأت بيننا بفضل هذا الجوار صداقة وطيدة . وكنا كل يوم في بواكير المساء ، بعد أن نتناول طعامنا وننعم بنزهتنا في الخارج نمضى الوقت في حديث ممتع نتبادل فيه الأسئلة والأجوبــة . واتفق يوما أن تأخر طائر الحجل عن الوصول في موعده الذى اعتدنا فيــه أن نتسامر كل يوم فانشغل عليه فؤادى وتساءلت : أتراه قتل أم أسر أو هفا قلبه إلى مسكن آخر ولهذا لم يحضر في موعده . وكنت أفكر أثناء ذلك في الأيــام

الخوالى . وجاء بعد ذلك أرنب يدعى طويل الأذنين وأقام في الجحر الذى كان يعيش فيه طائر الحجل . ولمـــا أبصرته قلت لنفسى : هـــذا ليس صديقى ، ولا يهمنى إذا أقام أو ذهب .

ولبث الأرنب هناك فترة عاد بعدها طائر الحجل إلى الموضع نفسه ، وإذا به يجد الأرنب في جحره فبادره بقوله : اسمع يا هذا ، اخرج من هذا الجحر بسرعة فهو جحرى : فقال له : أيها الأحمق ، ألا تعرف أن المسكن والطعام ملك لمن يجدهما في متناول يده ؟ . فقال طائر الحجل : إن لدى شهـــودا ، فلنسألهم ، وهذا ما تتطلبه القضية : وقد قيل في كتب القانون :

شهادة الجيران حاسمة فيما يتعلق بالصهاريج والآبار والبرك والدار والمسكن وهذا ما أعلنه مانو.

فوافق الآخر قائلا : ليكن .

وانطلقا لكى يقول القانون كلمته في المسألة وتبعتهما أنا أيضا عن قرب وأنا تواق لأن أرى نتيجة ما يحدث . وعندما ابتعدا قليلا قال طائر الحجل للأرنب : ولكن من هو الذى سينظر في قضيتنا ؟ فقال الأرنب : كيف تسأل هذا السؤال ؟ هنا القط العجوز المسمى مخثر الأذنين ، وهو يعيش على ضفة النهر ، وقد وقف حياته على التوبة ، وهو معروف بالرفق بكل مخلوق حى . وثق أنه يعرف القانون وسوف يصدر في قضيتنا حكما يستند إلى القانون .

وعندما سمع طائر الحجل هذا قال : لا شأن لنا بهذا المخلوق الحقـــير . فقد قيل :

لا تثق بمن يرتدى مسوح ناسك، فكثير من النساك يشاهدون في مناسك الحج المقدسة ولا تنقصهم الحلوق والأسنان !

وعندما سمع القط مخثر الأذنين هذا القول تظاهر بغير حقيقته لكى يحصل على قوته بأيسر السبل وأراد أن يكسب ثقتهما فوقف على ساقين وحملق بثبات نحو

الشمس وذراعاه ممدودتان ، وأغلق عينا واحدة ، وانهمك في الصلاة بخشوع . وبينما كان يصلي امتلأ قلباهما ثقة به وزحفا نحوه، وعرضا عليه نزاعهما حول المسكن وقالا له : أيها الناسك ، أستاذ القانون ، إن لدينا نحن الاثنين نزاعا ، فاحكم بيننا بالحق كما تقضي بذلك نصوص القوانين . فقال : إني عجوز ، تبلدت حواسي ، ولهذا لا أستطيع أن أسمعكما جيدا وأنتما على مبعدة . اقتربا مني وتحدثا بصوت مرتفع . وعندئذ اقتربا منه وقصا عليه قصتهما . وأراد محتر الأذنين أن يكسب ثقتهما ويجعلهما يقتربا منه أكثر مما فعلا فتلا نصوصا من كتـــب القـــانون : عندمـــا يقضي على العدل فان هذا يقضي بدوره على كل شيء . وعندما يحافظ على العدل يحافظ على كل شيء. ولهذا يجب أن نتحرى العدل لئلا يقضي عليه فنهلك جميعا . العـــدل هو صديقنا الوحيد الذى يقتفي أثرنا حتى في الموت ، لأن كل ما عداه يندثر ، ويفنى مع الجسد .

في الظلام الحالك نغرق مع أننا نقدم قرابين من الدواب . وكف الأذى عن الناس فريضة دينية ولا يوجد ما يفضلها قط ولن يوجد . انما يتمتع برؤيـــة صادقة كل من يعد زوجة غيره من الرجال محرمة عليه مثل أمه وممتلكات غيره محرمة مثل تربة الأرض وكل المخلوقات سواه محرمة أيضا مثل نفسه التى بين جنبيه . ولكى نوجز في سرد حكاية طويلة نقول إن القط كسب بريائه ثقتهما إلى حد أنهما صعدا الى حجره،وعندئذ أمسك بهما ذلك المخلوق الخسيس وقضى عليهما بضربة واحدة .

[نهاية الحكاية (٤)]

ولهذا أقول : عندما يحتكم متخاصمان إلى ملك خسيس ليقضي بينهمـــا فهيهات أن يجدا عنده الانصاف . وليس من شك في أن كلا منهما هالك لامحالة كما حدث للأرنب وطائر الحجل :

ولما كان هذا البوم مخلوقا خسيسا فانه في رأيي ليس جديرا بأن ينصب ملكا .

وعندما سمعت الطيور منه هذا الكلام رددوا بينهم وبين أنفسهم : لقــد تكلم وأجاد . ثم قالوا : حسن ، سوف نعقد اجتماعا في وقت آخر وننظر في الأمر العام وهو الترشيح لمنصب الملك .

وانفض جميع الطيور بعد ذلك وتفرقوا كما جاءوا وتركوا البوم وحده ينتظر التتويج على عرش الملك . فسأل: من هذا الذى ألقى هذا الخطاب للاضرار بى ؟

وعندما علم البوم أنه الغراب غضب وقال له : أى ضرر ألحقته بى لكى تتدخل في أمر تتــويجى . إن الجرح الذى ينشأ من نفاذ سهم في الجسد يلتئم ، والخشب الذى يقطع بفأس يلتحم ولو احترق بنار تشب في الغابة ، أما الجرح الذى تحدثه الكلمات فلا يندمل أبدا . قصارى القول سوف تكون بيننا نحن البوم وبينكم معشر الغربان منذ اليوم عداوة لا تنطفئ نارها أبدا .

وعندما انتهى البوم من كلامه انصرف ، والغيظ ينهش فؤاده ، إلى الموضع الذى جاء منه . وفكر الغراب والهم يفرى قلبه وقال لنفسه : أى فعل مشئوم قمت به الآن في أمر يهم الصالح العام ! لقد قيل :

إن كلمة يتفوه بها المرء بلا سبب وجيه وفي وقت غير ملائم ومكان غير مناسب ولاتتفق مع الحوادث المقبلة وتنبض بالعداء للمخاطب تزرى بالمتكلم وتعود عليه بالوبال ، وهى لايمكن أن تكون كلمة بل سما زعافا .

ليس من شك في أن العاقل ، ولو كان قويا يجب ألا يناصب شخصا آخر العداء عامدا متعمدا ، فمن ذا الذى يتناول السم بلا هدف وهو سليم العقل لا لشىء سوى أنــه يعرف أن الطبيب في متناول يده ؟ وقد وقعت في هذه الورطة بسبب غباوتى . وكان لابد أن يحدث لى هذا مادمت لم أشاور الأصدقاء الذين يودون لى الخير وقد قيل : يحظى بالشهرة والثروة من يتبادل وجهات النظر مع الأصدقاء المخلصين أكثر من مرة ومن يتروى مرارا قبل أن يقدم على أمر يرى أن من سداد الرأى الاقدام عليه وأن الجميع يقرونه على ذلك .

وبعد أن قال الغراب هذا انصرف من ذلك المكان .

[نهاية الحكاية (٢)]

هكذا يامولاى نشأت العداوة بيننا وبين البوم بسبب زلة لسان .

فقال لون السحاب : لقد فهمت مرادك . والآن فكر يا أبتاه ودبر لناخطة نتقى بها شرهم قبل أن يعودوا لينقضوا علينا

فقال : مولاى إن الحرب والسلام من الوسائل السياسية الستة وهى : السلام والحرب وسياسة الانتظار والزحف والتحالف والمعاملة المزدوجة .

وليست لدينا الآن فرصة لانتهاج سياسة الانتظار أو الزحف أو التحالف أو المعاملة المزدوجة ، لأن سياسة الانتظار في مواجهة عدو قوى تؤدى بالمرء الى دمار حصنه الذى يعتصم به بل القضاء عليه هو نفسه ، والزحف يعنى بوضوح تخلى المرء عن حصنه، ومع أى حليف قوى نربط أنفسنا بحلف ؟ ومن ذا الـذى يستطيع أن يطبق سياسة المعاملة المزدوجة ؟ وفي ظل هذه الظروف ليست أمامنا الآن أية فرصة لانتهاج الوسائل الأربعة : المصالحة والرشوة وبث الشقاق والتوسل بالعنف . ومهما يكن من شيء فان هناك وسيلة خامسة هى الخدعة وهى لا توجد في كتب الثقات . وهذا ما أراه وسوف ألجأ اليها لكى أتغلب على العدو وأذله . وقد قيل : كثير من الخصوم الذين لاحول لهم ولا طول يمكنهم أن ينجحوا عند بدء الخصومة في خداع عدوهم بذكائهم ، كما حدث للبرهمى عندما سلب منه المحتالون العنزة .

فقال : وكيف كان ذلك ؟ فقال طويل العمر :

الحكاية الخامسة

البرهمي والمحتالون

يحكى أن برهميا حصل على عنزة من قرية أخرى ليقدمها قربانا للآلهة . وبينما كان عائدا إلى بيته وهو يحمل العنزة فوق كتفه شاهده في الطريق محتالون فقالوا : لنعمل على أن يخلى هذا البرهمى سبيل العنزة ! وانتهوا إلى قرار فقسموا أنفسهم إلى جماعات مكونة من واحد ومن اثنين ومن ثلاثة واتجهوا

نحوه من الجهة المقابلة في الطريق وقال الأول للبرهمى : لماذا تحمل هذاالكلب على كتفك ؟ لعلك تحمله لأنه يصلح لقتل الدواب . وانصرف بعد أن فرغ من كلامه . فقال البرهمى لنفسه : ماذا يقصد هذا الشرير ؟ ما أعجب قوله إنى أحمل كلبا على كتفى !

والتقى المحتالان الآخران بالبرهمى وقالا له : أيها البرهمى ، ماهذا الأمر المعيب الذى تفعله ؟ أهذا الشيء هو الحبل المقدس أم المسبحة أم وعاء الماء المقدس؟ أتحمل على جبهتك شعار البراهمة وتحمل كلبا على كتفك ؟ إن هذا لايليق بك على الاطلاق ! ولكن ليس من شك في أنه كلب بارع في قتل الأرانب والغزلان والخنازير البرية ! وانطلقا الى حال سبيلهما بعد أن قالا هذا . فتعجب البرهمى ووضع العنزة على الأرض وأخذ يتحسس جسدها كله جزءا بعد جزء ومر بيده على أذنيها وقرنيها وأعضائها المستورة وذيلها وباقي أعضائها وقال لنفسه : يا للحمقى ! كيف يتصورون أن هذه العنزة كلب ؟ ووضعها على كتفه مرة أخرى ومضى في سبيله ، وما كاد يسير بضع خطوات حتى قابله المحتالـــون الثلاثة الآخرون وقالوا له : إياك أن تلمسنا ! تنح عن طريقنا فأنت أيها البرهمى طاهر في مظهرك الخارجى فحسب . إنك تحمل كلبا ولابد أنك صياد ! وانصرفوا بعد أن قالوا هذا . عندئذ فكر البرهمى وقال لنفسه : ترى هل فقدت حواسى ؟ لابد أن يكون هؤلاء جميعا على حق . ولاشك أن هنـــاك أمورا غير طبيعية تحدث في هذا العالم. من يدرى ؟ لعل هذه العنزة غول اتخذ صورة كلب . وعلى أية حال فان الغول يستطيع أن يتخذ شكل كلب . وما أن وصل في تفكيره إلى هذا الحد حتى أطلق سراح العنزة واغتسل ليتطهر وعاد إلى بيته وأخذ المحتالون العنزة وأكلوها .

[نهاية الحكايـــــة ٥]

ولهذا أقول ! كثير من الخصوم الذين لاحول لهم ولا طول يمكنهم أن ينجحوا عند بدء الخصومة في خداع عدوهم بذكائهم ، كما حدث للبرهمى عندما سلب منه المحتالون العنزة .

ومن أجل ذلك ياسيدى فسوف أطرح أمامك رأيى وأرجو أن تفكر فيه مليا وتفعل بالضبط ما أقوله لك .

فقال الملك : وما هو يا أبتاه ؟

فقال «طويل العمر» : مولاى لابد أن تنزع ريشى وتسبنى بألفاظ مقذعة وتلطخ جسدى بدم الذين قتلوا من قبلى ، وتقذف بى تحت شجرة التين الهندى هذه بالذات ثم تذهب إلى جبل رشيا موكا وتظل هناك مع أتباعك إلى أن أبدأ أنا بوسائل نصت عليها كتب العلم في السير بهم الى طريق الفناء . وبعد أن أحقق غرضى أعود مرة أخرى لرؤياك . ويجب ألا تظهر نحوى أية رحمة .

وبعد أن تم عمل هذا طار «ساحق العدو» عند غروب الشمس وانقض على شجرة التين الهندى نفسها مع حاشيته من المحاربين فلم يجد هناك غرابا واحدا . وهبط من الشجرة وقال لنفسه : ترى أين ذهب هؤلاء الأعداء ؟

وفكر «طويل العمر» وهو ملقى لايراه البوم تحت الشجرة وقال لنفسه : إذا رحل هؤلاء الأعداء دون أن يكتشفوا ما حدث فأى شيء أكون قد فعلته ؟ لقد قيل : إن الأمارة الأولى على الذكاء من غير شك ألا أكون أنا البادئ بالتصرف والأمارة الثانية على الذكاء هى أن أتابع ما بدأته حتى النهاية :

ولهذا قيل : ألا تبدأ شيئا خير من أن تكف عما بدأته . وأرى أن أكشف لهم نفسى برفع عقيرتى ليسمعوا صوتى . . .

وما أن خطرت لطويل العمر هذه الفكرة حتى أطلق صرخة ضعيفة سمعها البوم الذين كانوا بالقرب منه وأدركوا أنها صرخة غراب وأبلغوا ذلك لمولاهم. وعندما سمع ساحق العدو هذا النبأ نزل يدفعه الفضول وليتأكد من جلية الأمر بنفسه وقال لوزرائه :

سلوا من هو ؟

فقال : أنا طويل العمر .

وعندما سمع ملك البوم هذا عرته الدهشة وقال : هذا رئيس وزراء ملك الغربان الأثير عنده ، فكيف وصل به الأمر الى هذه الحالة ؟

واستوضح منه ما حدث فقال له : اسمع يا مولاى ، بعد أن قمتم بما يشبه المذبحة في الغربان وانصرفتم تطلع لون السحاب الى جنده المحاربين الذين نجوا من المذبحة واغتم غما عظيما وطلب المشورة من وزرائه . ولكى أوجز في رواية حكاية طويلة أقول إنهم كانوا يدبرون للقضاء عليكم فقلت : إنهـم أقوياء ونحن عاجزون ، ومن ثم فان خير ما نفعله على الاطلاق هو أن نخضع لهم فحسب وقد قيل : إن الشخص الذى لاحول له ولا طول يجب ألا يفكر في أن تكون بينه وبين عدو أقوى منه خصومة إذا كان ينشد الخير لنفسه . وإذا حذا حذو القصبة التى تنحنى أمام العاصفة فانه لن يجرد من ممتلكاته، وإذا قلد الفراشة التى تحوم حول اللهب فإن القضاء المحتوم ينتظره .

وعندئذ قالت الغربان إنى أتحيز للعدو . ولم يفكروا لحظة واحدة وانقضوا على وتركونى في هذه الحالة التى تجدونني عليها .

وعندما سمع ساحق الأعداء هذا تشاور مع وزرائه بالوراثة : ذى العين الحمراء ، وذى العين القاسية ، وذى العين الملتهبة ، ومعقوف الأنف ، وذى الأذن المسورة . وبدأ أولا بسؤال ذى العين الحمراء وقال له : ماذا نفعل يا سيدى في هـذه الظروف فقال : « أى حاجة بنا للتفكير فيما نفعل ؟ يجب قتله بلا تردد ، لأن العدو الضعيف يجب أن تقضى عليه قبل أن تتاح له الفرصة ليقوى إذ سوف يكون من الصعب إخضاعه بعد أن يستعيد قوته وجرأته .

وفضلا عن هذا فان هناك مثلا سائرا معروفا يقول : إذا أتت ربة الحظ دون أن تسعى إليها وأعرضت عنها صبت عليك لعنتها . وقد قيل : الفرصة لا تتاح إلا مرة واحدة لمن ينشدها ومن الصعب أن يجدها المرء مرة أخرى إذا هم بعمل . ولهذا فإنك بقتل عدوك تطهر مملكتك من الأشواك . وعندما سمع ساحق الأعداء هذا الكلام وجه حديثه إلى ذى العين القاسية وقال له :

وأنت يا سيدي ماذا ترى ؟

فأجاب : مولاى يجب ألا يقتل لأنه لاجئ : إن الجبناء الذين يضربون بلا رحمة لاجئين أثخنتهم الجراح واستغاثوا بهم مسترحمين جزاؤهم الذهاب الى روبافا وغيرها من نيران جهنم .

والذى يحمى لاجئا خائفا فزع اليه ، يثاب أكثر مما لو قدم جوادا مطهما بعدته الرائعة قربانا للالهة .

وعندما سمع هذا القول أيضا ، سأل ذا العين الملتهبة : وأنت ياسيدى ما رأيك ؟ فقال : مولاى ، لاشك في أن اللاجيء يجب ألا يقتل، ولو كان من الأعداء . ومما يروى أن حمامة استضافت عدوها بما يليق به بعد أن طلب منها أن تقبله لاجئا ، بل أنها دعته إلى أن يأكل لحمها .

ألم تسمع حكاية من قال : عجبا ، إن من اعتادت أن تجفل منى دائما تعانقنى الآن ! بوركت أيها المحسن إليّ خذ كل ما لدى ! ولكن اللص قال له :

لا أرى لديك شيئا أستطيع أن آخذه منك وإذا كان هناك ما آخذه فسوف أعود مرة أخرى إذا لم تعانقك .

فقال ساحق العدو : وكيف كان ذلك ؟

فقال :

الحكاية السادسة

الرجل العجوز والزوجة الشابة واللص

يحكى أن تاجراً نيف على الثمانين عاما ومع ذلك استطاع بفضل أمواله أن يتزوج من فتاة . وسرعان ما أدركت أن شبابها ضائع لامحالة لارتباطها برجل عجوز ، بينما هى لما تزل في زهرة الشباب . ومع أنها كانت ترقد على الفراش كل ليلة بجانب زوجها فانها كانت تدير جسدها الرشيق وتبتعد عنه ولا تحير حراكا وكأنها لوحة مصورة لا حياة فيها ولا حركة . وكانت جد يائسة . وذات ليلة جاء لص ، اعتاد أن يسلب الناس أموالهم إلى هذا البيت . فرأته الزوجة وفزعت منه واستدارت ولفت ذراعيها حول زوجها وتشبثت به . فارتجف

جسده بأكمله بنشوة الحب والفرح وقال لنفسه : إن هذا أمر عجيب يفوق الخيال فترى كيف حدث ؟ وتطلع حوله وأبصر اللص فقال لنفسه مرة أخرى : انها تعانقني بالطبع خوفا منه

وعندما أدرك هذا قال للص :

أيها الصديق ، عجبا ! ان من اعتادت أن تجفل مني دائما تعانقني الآن ! بوركت أيها المحسن إليّ ، خذ كل ما لدى ! الـخ .

[نهاية الحكاية ٦]

ففى هذه الحالة نجد أن تقديرا عظيما قد حظى به فاعل أثيم يسلب الناس أموالهم فما بالك بامرئ يفزع اليك لاجئا وما دام قد أوذى منهم فسوف يساعد على نجاحنا ويعمل معنا على القضاء عليهم ، ولعله يكشف لنا مواطن الضعف فيهم . والرأى عندى أن نبقى على حياته

وعندما سمع ساحق الأعداء منه هذا سأل وزيره معقوف الأنف : وأنت يا سيدى ماذا ترى أن نفعله في هذا الأمر الذى نواجهه ؟ فقال : مولاى ، أرى ألا يقتل ، فقد قيل :

قد تجد العون من الأعداء عندما تدب بينهم الشحناء . ولا عجب فقد أنقذ اللص حياة البرهمى وأنقذ الغول حياة بقرتيه .

فقال الملك : وكيف كان ذلك ؟ فروى هذه الحكاية :

الحكاية السابعة

البرهمي واللص والغول

يحكى أن برهميا فقيرا تلقى هدية ، وكانت هذه الهدية عبارة عن بقرتين ، ربيتا بين عجول أطعمت بالسمن والزيت والملح والحشائش وغيرها من الأطعمة المغذية حتى أصبحتا ربلتين . فشاهدهما لص وقال لنفسه : سوف أسرقهما في هذا اليوم .

وانطلق في المساء الباكر يسعى لتحقيق غرضه ، وبينما هو في طريقه لمس كتفه شخص مجهول فسأله في فزع : من أنت ؟ فقال بنبرة تنم عن الصدق ؟: أنا غول من أكلة البراهمة أطوف بالليل . والآن عليك أنت أيضا أن تقول لى من أنت ؟ فقال : أنا لص . فسأله الغول مرة أخرى : والى أين أنت ذاهب ؟ فقال : في نيتى أن أسرق بقرتين من برهمى . . وانت الى أين تذهب ؟ . وكان الغول قد اطمأن أيضا الى صدق محدثه فقال : أنا أيضا ذاهب لأقبض على شخص ذلك البرهمى .

وعندئذ انطلقا معا ولبثا يترقبان اللحظة المناسبة . وما أن ذهب البرهمى لينام حتى أخذ الغول يزحف ليقبض عليه أولا فقال له اللص : لاتفعل فليست هذه هى الطريقة الصحيحة ، وانتظر حتى أسرق أنا البقرتين وعندئذ تستطيع أن تقبض عليه . فقال الغول : وهذا أيضا خطأ ، إذ ربما يوقظه صياح البقرتين وعندئذ أكون قد جئت إلى هنا لأعود بخفى حنين . فقال اللص : اذا قبضت عليه ونهض وأطلق صرخة استغاثة فسوف يستيقظ لها كل إنسان ، وعندئذ لـن أستطيع أن أسرق بقرتيه . والرأى عندى أن أبدأ بسرقة البقرتين وبعد ذلك تستطيع أن تلتهم البرهمى .

وبينما هما يتنازعان على هذا النحو استشاط كل منهما غضبا وأيقظا ، في غمرة صراعهما ، البرهمى . فقال اللص : أيها البرهمى إن هذا الغول آكل البراهمة يريد أن يقبض عليك . فقال الغول آكل البراهمة : وهذا اللص يريد أن يسرق بقرتيك

وعندما سمع البرهمى هذا نهض واتخذ جانب الحذر فأنقذ نفسه من الغول بتلاوة مانترا رب طائفته وأنقذ بقرتيه بالتلويح بهراوته وفر اللص والغول لا يلويان على شيء .

ولهذا اقول : قد تجد العون من الأعداء عندما تدب بينهم الشحناء ، ولا عجب فقد أنقذ اللص حياة البرهمي ، وأنقذ الغول حياة بقرتيه . وفضلا عن هذا:

يروى أيضا كما تعرف أن شيبي الفاضل النبيل منح لحمه للصقر لينقذ الحمامة . ولهذا ينبغى ألا تقتل اللاجئ .

وعندئذ سأل الملك ذا الأذن المسورة فأبدى له النصيحة نفسها . وعندئذ نهض ذو العين الحمراء وابتسم بينه وبين نفسه ابتسامة ساخرة وقال : واأسفاه، لقد قضيتم على مولانا بفضل سياستكم السيئة . وقد قيل:

ان الأحمق تخدعه الكلمات المعسولة . ولو رأى الأذى بعينيه . ألم تركيف حمل النجار زوجته مع عشيقها فوق رأسه . فقال الجميع : وكيف كان ذلك ؟ فرد قائلا :

الحكاية الثامنة
النجار القواد

يحكى أن نجارا كان يعيش في إحدى المدن مع زوجته الحبيبة. وأبلغه الأصدقاء والأقرباء جميعا أنها امرأة غير عفيفة ، فأراد يوما أن يستوثق من الحقيقة وقال: عزيزتي ، هناك قاعة للملك يجرى بناؤها في قرية بعيدة ولابد أن أذهب إلى هناك غدا . ولسوف أمضى هناك أياما . فهيّا أعدى ما يلزمنى من مؤن لرحلتى.

فقامت وأعدت له ما طلب وهى مسرورة . وعندما فرغت من ذلك أخذ أدواته ومؤونته وقال لها وهو يهم بالخروج في الساعة الأخيرة من الليل . آن لى أن أذهب يا عزيزتى ! فاغلقى الباب ! بيد أن النجار عاد دون أن تعلم ودخل بيته من الباب الخلفى واختبأ هو وصبيه تحت الفراش . ومهما يكن من شيء فانها ابتهجت عندما فكرت في أنها تستطيع أن تلتقى بعشيقها في هذا اليوم دون أى عائق وأرسلت وسيطتها لتستدعى عشيقها وبدأ يأكلان ويقصفان وما إلى ذلك بسبيل دون أن يتطرق الى قلبيهما الخوف من وجود رقيب في ذلك البيت وقبل أن يطفئا شهوتهما اتفق أن لمست المرأة ركبة النجار وهى تتحرك فقالت لنفسها : لا شك أن هذا هو زوجى النجار ! فماذا عساى أن أصنع ؟

وفي تلك اللحظة ناشدها عشيقها قائلا: هلا قلت لى يا عزيزتى من تحبين أكثر ، أنا أم زوجك ؟ » فقالت تلك المرأة سريعة الخاطر : ما أسخف هذا السؤال ! إن النساء بالطبع لا يتمسكن كثيرا بالأخلاق ويفعلن كل ما يخطر لهن على البال ، وقصارى القول لو لم تكن لهن أنوف لأكلن الروث طائعات ولاشك ، وهذه العبارة المقتضبة تلخص القصة بأكملها ولكننى إذا ما سمعت أن شرا ولويسيرا قدحاق بزوجى فسوف لا أتردد في التضحية له بروحى . وخدعت هذه الكلمات الكاذبة التى أطلقتها المرأة الوقاح قلب النجار وقال لتلميذه :

فلتعش زوجتى الحبيبة المخلصة الوفية ! لسوف أكرمها أمــام عيون الناس جميعا . وما أن انتهى من قوله هذا حتى رفعها هى وعشيقها ، وهما راقدان على الفراش ، فوق رأسه وجرى بهما في طريق الملك وغيره من الطرقـــات والناس تسخر منه .

[نهاية الحكاية ٨]

ولذا أقول : إن الأحمق تخدعه الكلمات المعسولة ولو رأى الأذى بعينيه . ألم تر كيف حمل النجار زوجته وعشيقها فوق رأسه ؟

ولهذا فاننا هالكون لا محالة وسوف يقضى علينا قضاء مبرما من الأصول إلى الفروع . إنهم في مظهرهم الخارجى وزراء بيد أنهم أعداء،وعلى العاقل أن يقبض على أولئك الذين ينصرفون عن السياسة الرشيدة ويمارسون نقيضهـــا . الموت حق على الناس جميعا وحتى النبلاء يلقون حتفهم ويختفون من الوجود كما يتبدد الظلام بشروق الشمس ، إذا تناسوا المكان المناسب والزمان الملائم للعمل بسبب انصياعهم لمشورة وزير أحمق .

بيد أن ملك البوم لم يعر كلماته التفاتا وأمر بحمل طويل العمر إلى قلعته .وقال طويل العمر في تلك اللحظة : مولاى ، لماذا تأخذنى ، ما دمت لا أصلح لشيء وأنا في هذه الحالة ؟ أى فائدة لى في أن أعيش بعد هذه المحنة التى حلت بى ؟ أرجو أن تصدر أمرك باشعال نار لألقى بنفسى فيها . فقال ذو العين الحمراء وكان قد أدرك غرضه الخفى : ولم تريد أن تلقى بنفسك في النار ؟ فقال : ولم لا ؟ لقد هبطوا بى إلى هذا الدرك بسببك وأود أن أولد من جديد عـــلى هيئة البوم ، وذلك بتقديم جسدى قربانا للنار ، لعلى أسدد للغربان ما أدين لهم به من ضغينـــة .

فقال ذو العين الحمراء : إن كلامك هذا يحمل معنى خفيا وهو مثل الخمر الممزوجة بالسم ، مذاقها في مبدأ الأمر يبعث على البهجة ولكن ليس من السهل التنبؤ بما يترتب بعد ذلك .

من المستحيل أيها الشرير أن تولد من جديد في صورة البوم ولا يمكن التفكير في ذلك ، لأنّ الفأرة العذراء عادت إلى طبيعتها كما كانت بعد أن رفضت الشمس والسحاب والريح والجبل أن تكون زوجا لها ، ولأن من الصعب التغلب على الطبيعة .

فقال : وكيف كان ذلك ؟ فقال ذو العين الحمراء :

الحكاية التاسعة

الفارة العذراء

يحكى أن حكيما في أحد الأقاليم همّ يوما بأن يمضمض فمه بعد أن اغتسل في نهر الكنج وإذا بفأرة تسقط من فم صقر وتهوى بين يديه . وعندما رآها وضعها في ورقة شجرة تين هندى وقام بطقوس الاستغفار وما ينبغى لها وقفل راجعا إلى بيته . وعندما تذكر الفأرة قال في نفسه : أتيت أمرا إدّا بتركى الفأرة الصغيرة التى فقدت أباها وأمها وكنت في هذه آثما لأنها الآن في كنفى :

وما أن فكر على هذا النحو حتى عاد وحول الفأرة إلى فتاة عذراء بقوة التوبة وأخذها إلى بيته وقدمها لزوجته ، وكانت عقيما لم تنجب وقال لها : عزيزتى اليك هذه الابنة خذيها وربيها أحسن تربية .

وأنشأتها زوجة البرهمى منذ ذاك ورعتها رعاية الأم الرءوم . ومرت الأيام ووصلت الفتاة سن الثانية عشرة فبدأ الحكيم يفكر في زواجها وقال في نفسه من الخطأ أن أدع فترة بلوغها تمر ، فهذا سوف يكون من جانبي إثما لا يغتفر . وقد قيل :

إذا وصلت عذراء إلى سن البلوغ في بيت أبيها دون أن تتزوج فانها تعد غير أهـل للزواج ويعد والدها من المسودرا[1] ولذلك سأعقد لها على زوج قوى يستحقها عن جدارة . وقد قيل :

(١) من أفراد أدنى الطوائف

يجب ألا يكون هناك زواج أو صداقة إلا بين شخصين متكافئين في المستوى والأصل ، وينبغي ألا يكون بين علية القوم والسفلة .

واستدعى الشمس المبجّل ذا الألف شعاع وقال له : أنت قوى السلطان فتزوج ابنتى ! ولكن الرب المبجّل ، حامى العالم ، الذى يرى كل شيء في الحال ، رد عليه قائلا : أيها السيد المحترم ، إن السحاب أقوى منى فهو يحجب ضوئى فلا يرانى الناس . فقال الحكيم : هذا صحيح ! واستدعى السحاب وقال له : خذ ابنتى ! فقال : إن الريح أقوى منى فهو يهب هنا وهناك في كل اتجاه .

فاستدعى الريح أيضا وقال : خذ ابنتى ! وعندما سمع الريح ذلك قال له : أيها السيد المحترم إن الجبل أقوى منى لأني لا أستطيع أن أحركه قيد أنملة .

وعندئذ استدعى جبلا وقال له : خذ ابنتى ! فقال : نحن الجبال حقا ثابتون لانتزعزع ولكن الفئران أقوى منا فهى تحفر فينا جحورا لها لاحصر لها في كل جهة . وعندما سمع الحكيم هذه الكلمات استدعى فأرا وقال له : خذ ابنتى ! فقال له : هذا أمر لاسبيل إليه إذ كيف تستطيع ابنتك أن تدخل جحرى ؟ فقال الحكيم : هذا صحيح كل الصحة .

وحول الفتاة إلى فأرة مرة أخرى بقوة التوبة وأعطاها للفأر .

[نهاية الحكايـــة ٩]

ولهذا أقول : الفأرة العذراء عادت الى طبيعتها كما كانت بعد أن رفضت الشمس والسحاب والريح والجبل أن تكون زوجا لها ولأن من الصعب التغلب على الطبيعة . ولم يعر ملك البوم ، مع ذلك ، التفاتا لكلمات ذى العين الحمراء بل أخذ طويل العمر وذهب به إلى معقله فكان السبب في القضاء على عشيرته . وبينمـــا كان طويل العمر في طريقه إلى هناك قال لنفسه وهو يبتسم :

إن من أشار بقتلى كان ينشد مصلحة مولاه وهو الوحيد بين الوزراء الذى يعرف تدبير الملك .

ولو أنهم اصاخوا السمع اليه لخابت آمالى . وعندما وصلوا إلى مدخل المعقل قال ساحق الأعداء لوزرائه : دعوا طويل العمر يقيم حيثما يحلو له . وحدد طويل العمر مسكنه في مدخل المعقل وهو يفكر في أنه بذلك يسهل عليه الهرب في الوقت المناسب . وأخذت طيور البوم تنطلق كل يوم كما تشاء في رحلات تعمل فيها يد السلب والنهب .

وعندما تكتفى من الطعام تحضر لحما وفيرا وتقدمه لطويل العمر تنفيذاً لأمـــر مليكهم . ولم يعجب هذا التصرف ذا العين الحمراء فاستدعى أقرباءه وقال لهم: أرى أننا هالكون لا محالة في القريب العاجل بسبب هذا الغراب . وليس من الحكمة في شيء أن نظل في المكان نفسه ونشارك هؤلاء الحمقى مصيرهم المحتوم. والرأى عندى أن نبحث عن كهف جبلى آخر ونقيم هناك في سلام .
وما أن قال ذو العين الحمراء ذلك حتى رحل مع أتباعه إلى مكان آخر .

واستعاد ذلك الغراب طويل العمر قوته ونبت ريشه في وقت قصير وأصبح جسده جميلا مثل جسد الطاووس . وعندما علم بكل شيء عن العدو قوتـــه وجراءته ومواطن القوة والضعف في معقله الحصين ومسكنه وطرق الدخـــول إليه قال لنفسه : لقد تجسست وعرفت مدى قوتهم وسلطانهم وتفاصيل بنـــاء معقلهم و كل ما يتعلق به . وعلىّ الآن أن أعمل بلا توان على هلاك أعدائنا .

وعندما طافت برأسه هذه الأفكار ، أراد أن يوقع بالبوم مذبحة رهيبة فملأ الجحور في مدخل معقل البوم بالنفايات وانطلق مسرعا الى لون السحاب . وما ان رآه لون السحاب حتى عانقه في شوق وسأله عما حدث فقال طويل العمر: مولاى ، ليس هذا هو الوقت المناسب لرواية مغامراتى . إن الوقت يمر بسرعة وأرجو أن يأخذ كل منكم عصا من الخشب ويذهب الى معقل البوم وســـوف أجيء معى بشعلة . ولننطلق جميعا بأقصى سرعة ونحرق الدار وفيها كل الأعداء.

وصدعوا بأمره ونفذوا خطته ووضعوا خشبا سريع الاشتعال وما أشــبه في الجحور الممتلئة بالنفايات وأضرموا فيها النار . وهكذا قضى الغراب بضربــة واحدة على كل أعدائه فلم يبق لهم أثر .

وهكذا أحرق طويل العمر معقل أعدائه ولم يسلم من الحريق حتى الثعابــين التى تسعى في الأرض ونجح في تحقيق غرضه كاملا وأعاد تنصيب لون السحاب ملكا على الغربان بكل ما كان له من سلطان في شجرة التين الهندى ذاتها عــلى أنغام الموسيقى التى كانت تصدح معبرة عن التهنئة والرخاء والنجاح . وعندمــا رأى لون السحاب أن أعداءه قد هلكوا أسبغ على طويل العمــر كل الشرف وقــال لــه في فــرح عظيم : أبتاه ، كيف أمضيت وقتك عندما كنت في وسط الأعداء ؟ لقد قيل :

أجل ، إن من ينشدون الصدق في أفعالهم خير لهم أن يلقوا بأنفسهم في نار ملتهبة من أن يتحملوا ولو لحظة واحدة صحبة علو ؛

فقال طويل العمر : سيدى على العاقل ، عندما يتهدده الخطر أن ينتهج أى السبل التى توصله الى شاطئ الأمان مهما لاقى في هذا السبيل من مشاق . ألم يزين أرجونا المتوج ، كما تفعل النساء ، ذراعيه بأساور تشبه خراطيم الفيلة ، بدل أن يمسك بهما أسلحة ماضية وتظهر عليها سمجات من وتر القوس ؟

على العاقل ، ولو كان قويا أن يصبر ويحتمل صروف الزمــان بــل وأن يصاحب قوما من الأخساء الأشرار ويكون صلبا لا تلين قناته ويستطيع أن يتحمل الصاعقة . ألم يعمل بهيما القوى بيديه مع الطهاة في بيت الملك متسيا ، أولم تتلوث يداه بالدخان ، أولم تذويا من الجهد الذى بذله في استخدام ملاعق الطهى ؟

على الرجل الذكى الذى يصبر على ضربات القدر أن يؤدى بنفس راضية كل عمل سواء أكان سارا أم كريها وأن يقوم به بالهمة نفسها عندما تحل به محنة . ألم يرتد أرجونا الأشول زنار امرأة به جلاجل ؟ أولم يلبس ثوب اللعيب عــلى الرغم من أن ذراعيه كانتا مشغولتين بتوجيه ضربات مجلجلة من وتر قــوس جنديقا (قوس ارجونا) العريض المختلج ؟ .

على العاقل ، الذى ينشد النجاح ، أن يطرح كرامته جانبا ، ولو كان شجاعا جريئا ، ويقف ليحسب بعناية خطواته القادمة في الظروف التى رسمها القدر . فقد تلقى ابن ذرما الشهير (بنشتيرا) فروض الاحترام من اخوته الذين كانوا مثل اندرا ملك الآلهة وكوبرا اله الثروة وياما اله الموت . أولم يحمل مع ذلك فترة طويلة عصا البراهمة المثلثة وهو في محنته ؟

إن ابنى مادرى (تكوله وسهادنيا) كانا يتمتعان بالجمال والنبل وكانا موهوبين بأرفع الصفات ، ومع ذلك التحقا بخدمة قراطه وكأنهما دابتان من قطعان أبقاره وخيوله .

إن درويدى كانت تنعم بجمال لا يضارع وبكل ما في الشباب من صفات رائعة ، وكانت تنحدر من أسرة عريقة بل إنها كانت مثل ربة الحظ نفسها . ومع ذلك فان عثرات الزمان أوصلتها بسلطان القدر كما تعرف ، الى أن تضرب عجين خشب الصندل فترة طويلة في قصر الملك متسيا ، وكانت تصدع لأوامر فتيات متعاليات وقحات ينادينها بالفتاة « الخادمة » . وقال لون السحاب : يخيل الى أن صحبة العدو كالوقوف على حد السيف ؟ . فقال طويل العمر : هذا صحيح يامولاى ، ومع ذلك فعندما يجد العاقل نفسه مجردا من القوة يجب أن يتحمل هذه الصحبة دون أن يكشف عن حقيقة مشاعره ويتظاهر بأنه صديق ويصبر على صروف الزمان ويستر ضعفه بالتظاهر بالمودة .

والآن لكى أوجز في القول أقرر أنى لم أر قط من قبل مثيلا لتلك الجماعة من الحمقى ولم أحترم منهم غير ذى العين الحمراء . لقد أدرك بالضبط ما كنت أضمره في قلبي . ومهما يكن من أمر فان الآخرين كانوا وزراء بالاسم فحسب. فأى فائدة لهم . وكيف لم يعرفوا هذه الحقيقة البسيطة : إن التابع الذى يفد من معسكر العدو وهو يتلهف للاقامة مع أعدائه السابقين لافائدة منه بسبب ما يثيره وجوده من قلق مستمر . ومثله في ذلك مثل الحياة مع الثعبان .

مثل الفشل الذى يؤدى الى الدمار الشامل ويستمر خطره الى وقت متأخر مثل المرض الذى يصيب أوراق التوت ، التى تتغذى بها دودة القز . مثل الحمامة التى تأكل بذور ثمرة من شجرة تين هندى .

إن الأعداء تسنح لهم الفرصة لضرب خصومهم – إذا لم يحترسوا مما يرون وما لايرون – عندما يجلسون أو يرقدون أو يسيرون أو عندما ينشغلون بتناول الطعام والشراب . ولهذا فان على العاقل أن يحترس لنفسه وأن يسهر عليها كما يحرس مسكن « جماعة الثلاثة » لأن الاهمال يؤدى الى التهلكة . وفي هذا قيل وما أحسن ما قيل :

عندما لايقدم للمرء الرأى الصائب فأنى له أن يفلت من أخطاء السياسة ؟ ومن ذا الذى ينجو من الأمراض اذا تناول طعاما ملوثا ؟

ومن لايكون وقحا عندما يصادفه الحظ الحسن ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن ينجو من براثن الموت ؟ ومن ذا الذى لاتفتنه النساء ؟

إن الرجل المتغطرس يفقد سمعته والرجل المذبذب يفقد صديقه . ومن يجهل الطقوس المقدسة يفقد أسرته والمتلهف على النجاح الدنيوى يفقد دينه والشرير يفقد ثمار العلم ، والبخيل يفقد السعادة ، والملك الذى يستعين بوزراء مهملين يفقد ملكـــه . إن النار لتسرى بسرعة في الخشب شديد الاشتعال والكدر يسرى بشدة في نفوس الحمقى ، والغضب في أصحاب النزوات ، والحب في قلب الوسيم والحكمة في عقل الذكى والعدل في حكم من يتحلى بالرفق والرحمة والعزة في نفس النبيل .

والآن أيها الملك ، لقد صدقت عندما قلت إن صحبة الأعداء مثل الجلوس على حافة السيف وأنت بهذا القول تثبت أنك حكيم ومهما يكن من أمر فإن :

الرجل العاقل قد يحمل عدوه على كتفه ليحقق غرضه ولا عجب فقد حمل ثعبان الكوبرا الضفادع وقضى عليها .

فقال الآخر : وكيف كان ذلك ؟

فقال طويل العمر :

الحكاية العاشرة

الضفادع تركب الثعبان

يحكى أنه كان هناك ثعبان من ثعابين الكوبرا بلغ من الكبر عتيا ، وكان يدعى «ضعيف الناب» فقال لنفسه : وكيف أستطيع أن أعيش مرتاح البال بهذا الأسلوب من الحياة ؟ وذهب الى بركة فيها ضفادع كثيرة واتخذ مقعده على الشاطئ وتظاهر بالحزن والأسى . وبينما هو جالس هكذا سأله ضفدع وهو يَضْرب في الماء : عماه لماذا لاتبحث اليوم عن طعام كما اعتدت أن تفعل ؟ فقال ياصديقى ، كيف تساورنى أية رغبة في الطعام وأنا بائس كما ترى ؟ وهاك السبب في بؤسى : في الليلة الماضية وبينما كنت أبحث عن الطعام في بواكير المساء أبصرت ضفدعا واستجمعت قواى وتأهبت للانقضاض عليه والامساك به ولكنه رآنى وهرب خوفا من الموت واندس وسط جماعة من البراهمة كانوا منهمكين في تلاوة بعض النصوص المقدسة ولم أعرف أين ذهب . وأخذت أبحث عنه وخيل الى أنى عثرت عليه فعضضت ابن أحد البراهمة في صبع قدميه بعد أن ضللنى شبهه بالضفدع ، فمات لساعته . وطغى الحزن على أبيه ولعننى قائلا : أيها الشقى مادمت قد عضضت ولدى وهو لم يلحق بك أى أذى فسوف تصبح مركبا للضفادع بسبب ما اقترفت من جريمة . ولن تحصل على قوت يومك الا مما يجود به عليك الضفادع . ولهذا أتيت لكى تمتطوا ظهرى .

فأبلغ الضفدع ذلك للضفادع الأخرى فابتهجوا أيما ابتهاج وانطلقوا جميعا وأبلغوا النبأ لملك الضفادع وكان اسمه «قدم العنكبوت» . وعندئذ أقبل هو وجميع وزرائه في لهفة عظيمة وعدوا هذا حدثا عظيما . وصعد ملك الضفادع خارج البركة وامتطى ظهر الثعبان بنفس راضية . وأقبل في اثره الآخرون وجلس كل

بدوره طبقا لمراتبهم . ولم يستطع بعضهم أن يجد له مكانا فجرى وراءه وقام «ضعيف الناب» بحركات مختلفة لكي يحقق مصالحه . وقال «قدم العنكبوت» للثعبان :

إن السفر على ظهر ضعيف الناب يناسبني أكثر من السفر على ظهر فيل أو عربة أو جواد أو على عربة يجرها رجل أو في قارب .

وفي اليوم التالى تظاهر ضعيف الناب بأنه منهوك القوى فقال له قدم العنكوت:

أيها الصديق ، لماذا تسير اليوم في بطء ولا تمشى كما كنت تفعل من قبل ؟

فقال : مولاى ليس لدى قوة لأحملك اليوم كما حملتك من قبل بسبب قلة ما أصبت من طعام . فقال قدم العنكبوت : أيها الصديق ، كل بعض صغار الضفادع : فقال : لقد أردت أن أفعل هذا ولكني لا أستطيع أن آكل إلا ما تجودون به عليّ بناء على أوامر جلالتكم . وهكذا ترون أن حياتى رهن باشارة منكم .

وبدأ مذ ذاك يلتهم من الضفادع ما شاء . وفي خلال بضع أيام تجددت قواه فابتسم لنفسه في رضى وقال : لقد حصلت لنفسى بخدعة على طعام مضاعف من الضفادع . ترى متى يندثرون بعد أن آتى عليهم جميعا .

وعندما سمع قدم العنكبوت هذا ثارت شكوكه وعجب مما قال فسأله : ماذا قلت ؟ فقال الثعبان وهو يخفي ما نم عنه ملامحه : لا شيء . وعندما أمره بالحديث مرة أخرى قال : مولاى ، هذا ما قلت :

لا يعرضن إنسان نفسه للعنة من أحد البراهمة ! فخير له أن يتحول الى قنة جبل وعرة أو شجرة يصيبها شواظ من برق لافح .

وعلى الرغم من كل هذه الأشياء فان قدم العنكبوت لم يدرك تماما ما يعني لأن عقله ضللته هذه الكلمات المعسولة .

وقصارى القول ان هذا الثعبان استطاع أن يلتهم الضفادع جميعا فلم يبق منها أثر .

[نهاية الحكاية (١٠)]

ولهذا أقول : الرجل العاقل قد يحمل عدوه على كتفه ليحقق غرضه ولا عجب فقد حمل ثعبان الكوبرا الضفادع وقضى عليها . وهكذا أيها الملك قضيت على أعدائنا جميعا كما قضى ضعيف الناب على الضفادع .
وأقول :

ان النار التى تضطرم في الغابة تحرق كل شيء ولا تبقى على غير الجذور أما فيضان الماء فانه يمزق الأشجار ويقتلعها من جذورها ويأتى على كل شيء على الرغم من أنه معتدل ملطف للهواء .

فقال لون السحاب : هذا صحيح . وأضيف الى ذلك ما قاله بعض الحكماء :

إن مصدر العظمة عند الرجال الذين يتحلون بحسن السياسة أنهم لا يتخلون عن تبعة ما اضطلعوا به من أعمال ، حتى عندما تواجههم الصعاب .

وعلى هذا فأنت يا سيدى الذى قضيت على أعدائنا القضاء المبرم .

فقال : هذا ما كان . وقد قيل :

على العاقل أن يقضى على البقية الباقية من دين أو نار أو مرض أو عدو ولا يترك لها أثرا ، وهو إن فعل ذلك فلن يفشل أبدا . مولاى ، إن الحظ يؤثرك بعونه على غيرك . وكل ما يقوم به الناس من أجلك يكتب له النجاح .
وقيل أيضا :

على المرء أن يجمع بين القوى وصاحب الحيلة ، وبين صاحب الحيلة والناشط الهمام فكلا هذين خليقان بالنجاح إذا اعتدلا في نفقاتهما .

أى شيء يعز على المرء الذى يتحلى بضبط النفس والصدق والعقل والعزم ؟

من لا يجزع عندما يواجه المتاعب ولا يغلبه الفرح عندما يتحقق له النجاح ومن يضبط نفسه عند الغضب ويتوسل بالحلم ويعرف الوقت المناسب لبذل الجهد والعناء ومن يحرص على اخفاء الفضيحة ويعرف مواطن الضعف لخليق بان يظل الحظ له خادما ، ما انتهج هذا السلوك وعرف كيف ينظم أفكاره .

من أنا ؟ وما هو الزمان الحاضر وما هو المكان الحالى ، وأى الفضائل أو الرذائل تبدو على ؟ ومن هم أعدائى ومن هم حلفائى ، وأى قوة لدى ، وأى وسيلة عندى لتنفيذ خطة نافعة ؟ وأى رصيد من الحظ الحسن لدى ؟ والى متى يلازمنى التوفيق ؟ وماذا يكون ردى اذا أعرض الناس عن كلامى ؟ ان الأخيار الذين لا يشغل فكرهم غير النجاح وحده لا يخيب أملهم أبدا .

والاقدام في حد ذاته لا يكفى وحده لتحقيق ما يصبو اليه المرء من نعيم . وقد قيل : إن الأعداء الذين يقتلون بالسيف لا يقتلون أما الذين يقتلون بالحكمة فهم الذين يقتلون حقا ، ولا تقوم لهم قائمة بعد ذلك أبدا . فالسيف لا يقتل سوى الجسد ، أما الحكمة فانها تقضى على قبيل المرء وسلطانه وشهرته .

قد يقتل سهم يطلقه أحد الرماة رجلا ، وقد لا يقتله ، أما الحيلة البارعة ، التى يتوسل بها رجل ذكى فانها قد تقضى على مملكة بأسرها هى ومليكها . وعلى هذا اذا حالف القدر رجلا وقام بجهد يكافئ رجولته فانه يوفق في كل أعماله ، مادام ذكاؤه يسعفه في الحال بالتدبير المناسب للعمل الذى يضطلع به ، وما دام حاضر الذهن على الدوام، وإن الثروة لتأتى اليه طائعة مختارة ولا تنحرف خططه عن طريقها المرسوم وهو خليق بأن تتحقق جميع آماله . وإذا كان الأمر كذلك فليس فيـــه ما يثير الدهشة . إن هذا الرجل يبلغ مقاما رفيعا ويجد المتعة في النهوض بأعمال تكسبه ذيوع الصيت . وهو الرجل الذى اختاره القدر !

وعلى هذا فان الملــــك لمن يتمتع بحرية الفكر ويتحلى بالحكمة والشجاعـــة . وقد قيل : يربط الناس أنفسهم بالرجل ذى الفكر الحر الشجاع الحكيم وهؤلاء

الناس يصبحون من الأتباع . والثروة تأتى لمن له أتباع ومن الثروة يأتى الجاه ، ومن الجاه يأتى السلطان ، ومن السلطان يأتى الملك .

فقال لون السحاب : أبتاه ، ما أسرع ما ظهرت فوائد علم تدبير الملك . لقد وجدت بفضل نهجك السياسى السبيل الى قلب ملك البوم ساحق الأعـــداء فقضيت عليه هو وأتباعه جميعا .

فقال طويل العمر : إن من حسن السياسة أن تبدأ أولا بالخضوع للوصول إلى غرض لا يستطاع تحقيقه إلا بالعنف . ألا ترى أن الشجرة السامقة بقمتهـــا العالية وهى أنبل ما أنجبته الغابة لا تقطع الا بعد أن تقدم اليها فروض الاحترام .

ولكن أى فائدة يا مولاى في الكلمات التى لا تتيح في النهاية فرصة للعمل؟ وما أحسن ما قيل : إن الكلمات التى تصدر من رجال خائرى العزيمة يخشون الجهد والنصب ، ولا هم لهم الا تسلية أنفسهم بالثرثرة الجوفاء ، ولا تؤدى في آخر الأمر إلا إلى خيبة الأمل وتصبح أهدافا للسخرية في العالم .

على العقلاء ألا يستهينوا بالأمور ولو كانت ضئيلة الأهمية . ولهـــذا السبب ينظر بعض الناس الى الواجبات المفروضة عليهم ولسان حـــال كل واحـــد منهم يقول :

في وسعى أن أعمل هذا . . إنه أمر هين من اليسير عمله . . إنه لا يحتاج منى إلى عناية . وبعضهم يتردون في وهدة الحزن الذى سرعان ما يلم بهم عند وقوع مكروه بسبب تخبطهم في لجة الاهمال .

والآن وقد قضى على الأعداء مولاى ، فان في وسعه أن ينام هادئا قريـــر العين ويعيش في سلام الى أن يبلغ من العمر أرذله .

وفي هذا قيل :

يستطيع المرء أن ينام في هدوء وسلام في بيت لا يضم ثعبانا أو في بيت قضى فيه على الثعابين ومن العسير أن يذوق المرء طعم النوم في بيت رأى فيه ثعبانـــا أفلت من الموت .

أنى للرجال الذين يحفزهم الطمع والكبر والاقدام أن يجدوا في قلوبهم التى نفد صبرها موضعا للرضا ، اللهم الا اذا فرغوا من أداء العظائم من الأعمال التى تتطلب جهودا موصولة مضنية ، تباركها دعوات أحبائهم . . جهودا تتطلب أعظم قدر من البراعة والجراءة التى تحقق لهم رغباتهم .

والآن وقد أتممت العمل الذى بدأته يخيل الى أن نفسى سوف تنعم بالراحة . فقال لون السحاب : وكيف ذلك؟ فقال طويل العمر : مثل القلب الذى شفى من الحمى والجسد الذى خف بعد أن ألقى عن كاهله حمل ثقيل ، مثل الروح التى تصبح أخف عندما يعبر المرء بحر المتاعب ويتحقق غرضه الذى أقسم على أن يظفر به من عدوه.

والآن بعد أن هلك أعداؤك فان عليك أن توقف حياتك على حماية رعاياك . ولتستمتع طويلا بهذه المملكة في ظل عرشك الجليل الذى توطدت أركانه ، ليتوارثه من بعدك أبناؤك ، وأبناء أبنائك . وقيل أيضا :

إن الملك الذى لا يسعد رعاياه بحمايتهم والانعام عليهم لافائدة منه ، ومثله مثل حلمة الثدى على عنق العنزة .

والملك الذى يحب الفضائل ويمقت الرذائل وتبهجه السياسة الرشيدة يتمتع طويلا بجلال الملك الذى يبدو في شاراته الثابتة وعرشه المزين بالمظلة البيضاء .

ويجب ألا تغتر بالحظ السعيد وتقول لنفسك : لقد دانت لى المملكة . واعلم أن حظوظ الملوك لاتثبت على حال . فقال لون السحاب : وكيف ذلك؟ فقال طويل العمر : إن ربة حظ المملكة عرضة لأن تكبو في اللحظة التى تمتطى فيها ، مثلها في ذلك مثل قصبة خيزران عندما يهم امرؤ بتسلقها . إنها مثل الزئبق من الصعب إمساكها ولو بذل في سبيل ذلك الجهد الجهيد ومهما ألححت جادا في طلب رضاها فانها تتخلى عنك في النهاية ، لأنها مذبذبة سرعان ما تغير رأيها مثل أمير القردة . . إنها مثل خط من الماء على ورقة زهرة النيلوفر الهندى لا يلتصق بها . . وهى غير ثابتة مثل مجرى الريح ولا يعتمد عليها مثل التحالف مع اللئام ، ولا تجد الرحمة الى قلبها سبيلا مثل السحب في السحر ، وهى فانية بطبعها مثل صف من الفقاعات في الماء . وهى لاتبدى

اعترافا بالجميل لما يبذل من أجلها مثل طبيعة الجسد ، وهى تختفى في اللحظة التى تظهر فيها مثل الثروات الطائلة التى يحصل عليها الانسان في الحلم .

وقصارى القول :

إن الملك ما أن ينصب على عرش مملكته حتى يرى لزاما عليه أن يصرف ذهنه كله إلى الأخطار التى تتهدده لأن أوعية الماء المقدس التى تستخدم عند التتويج يصب على الملك المصائب مع الماء .

وليس ثمة رجل مهما كانت منزلته ، لا يتعرض للكوارث والمحن . وقد قيل :
عندما يفكر المرء في نفى راما واذلال مالى واقامة أبناء بايفنو في الغابة والقضاء على فرشنش وفقد الملك نالا لمملكته وظهور فشنو في هيئة قزم وقتل أرجونا وما حدث لرافنا سيد سيلان — فان من الواضح أن كل ما يحل بالانسان إنما يحدث له بقوة القدر . ولا يستطيع أحد أن ينقذ منه آخر . إلى أين ذهب دشرتا صديق ملك الآلهة الذى حارب في السماء ؟ وإلى أين ذهب ملك سجرا الذى سيطر على فيضان البحر ؟ وإلى أين ذهب ابن فينا الذى خرج من راحة يد أبيه ؟ وإلى أين ذهب . مالوحم الشمس ودمع ؟ ألم يغلق الدهر الغاشم الآن عيونهم التى كان قد فتحها ؟ أين الملك والوزراء والحوريات الحسان والمتنزهات وبساتين اللذات ، التى بكاها الرجال في الزمن القديم ؟ إنها كلها . . كلها التهمتها أنياب الموت .

إن العلم زينة العقل ورذيلة الحمق ، وهو مثل الماء الذى يسيل من أذن الفيل وماء النهر والقمر بالليل وتأمل الزهاد ذوى الحزم والسياسة الرشيدة للملك .

إن الفرح تقضى عليه خيبة الأمل . والخريف يختفى بقدوم الشتاء والظلام يتبدد بطلوع الشمس . والمعروف يقضى عليه عدم الاعتراف به والحزن يتبدد بحادث سعيد . والمصائب تزول بالسياسة الرشيدة ، والحظ بالغا ما بلغ من العظمة تقضى عليه السياسة السيئة .

وعلى هذا فان الملك الذى لا يبخل على رعاياه بأنعم المشورة الحكيمة ، وينتهج سياسة رشيدة من جميع الوجوه يتمتع بسعادة الملك .

وهنا ينتهى السفر الثالث المسمى الحرب والسلام أو الغربان والبوم .

السفر الرابع

الخسران او القرد والتمساح

هنا يبدأ هذا السفر الرابع المسمى الخسران وهذه هي منظومة الاستهلال :

كل من تخدعه الكلمات المعسولة فيتخلى عما حصل عليه يصيبه ما أصاب التمساح الأحمق من القرد . فقال أبناء الملك : وكيف كان ذلك ؟ فقال : يحكى أن ملكا للقرود يدعى « مجعد الوجه » كان يقيم على شاطئ بحر . ولما وهنت قواه بسبب تقدمه في السن انبرى له قرد آخر فتى ، اشتعلت في قلبه نيران الغيرة. ولم يصبر عليه وثار ضده وطرده من عشيرته فأخذ يمضي وقته في المنفى . وكانت هناك على الشاطئ نفسه شجرة تين تسمى « العسلية » ، وعاش القرد العجوز على الثمار التى تطرحها هذه الشجرة . وفي ذات مرة بينما كان يأكل هذه الثمار ، سقطت احداها من يده في الماء وأحدث اصطدامها بالماء صوتا جميلا طرب له القرد وبدأ يقطف ثمار التين ويلقى بها الواحدة اثر الاخرى ودل بذلك على أنه غبي كسول بفطرته .

واتفق أن تمساحا يدعى « بادى العظام » كان يمر أسفل الشجرة فالتقط ثمار التين وأخذ يلتهمها وهو منشرح الصدر وظل في موضعه هذا لكى يحصل على الطعام اللذيذ بلا عناء . وقويت بين مجعد الوجه وبينه أواصر الصداقة والمودة وامتلأ قلب التمساح بحب عظيم للقرد ولم يعد يهتم بموعد عودته الى بيته .

وجلست أنثاه بين صويحباتها وقد فاض قلبها حزنا وغما بسبب طول مدة فراق التمساح لها وتساءلت : ترى أين حبيبي الآن ؟ وماذا يفعل بعيدا عن بيته وماذا يصرفه عنه ؟ إنه ليهجرني وقتا طويلا كل يوم . هو يقع في خطأ جسيم باهماله « الأهداف الثلاثة » [1] فقالت إحدى صديقاتها : كيف

(١) أهداف الرغبة الانسانية .

يمكنك أن تنعمي بالسعادة في هذا البيت أو تحصلي على الثروة من زوج كهـذا وأنت لا تعرفين حتى ما يفعله ؟ لقد رأيته بعيني رأسي في موضع على الشاطئ يلهو سرا مع قردة أو ما اشبه ويبدى لها أعظم مودة . فاعرفي عنه هذا واعملي بلا إمهال مالابد من عمله في مثل هذه الظروف . وعندما سمعت زوجةالتمساح هذا الكلام غلبها الحزن وتخلت عن القيام بجميع أعبائها المنزلية ، وارتدت ثيابا متسخة ولطخت جسدها بالزيت وألقت نفسها على الفراش ورقدت وهـي تصلك أعضاءها حولها في قلق ووقفت حولها صديقاتها .

وعندما عاد التمساح إلى بيته بعد غيبة طويلة أمضاها مع مجعد الوجه بدافـع حبه له ، وجد زوجته في تلك الحالة السيئة . وتساءل وهو جد منزعج : مم تشكو وما السبب في مرضها ؟ فلم تنبس واحدة من صديقاتها ببنت شـفة ولزمن الصمت العميق . فكرر السؤال المرة تلو المرة بالحاح شديد . وأخـيرا قالت إحداهن ، وكانت أقربهن الى قلب زوجة التمساح ، وقد جاشت عواطفها : سيدى إن مرضها لا دواء له . وعليك أن تعدهـا اليوم هالكـة لا محالـة . فلا شفاء لهـا .

وما أن سمع التمساح هذا الكلام حتى غلب عليه الحزن وقال بلهجة تنم عما يكنه لزوجته من حب عظيم : إذا كان هناك دواء يشفيهـا من علتها فسوف أحصل عليه ولو كلفني حياتى ، ولتكن روحى لها فداء . فقالت : ليـس هناك غير دواء واحد يشفيها من علتها وهو قلب قرد . ولو كان من الممكـن تقديمه لها فسوف تكتب لها الحياة من جديد . وعند ذلك قال لنفسه : أى مصيبة حلت بى ! أنى لى قاب قرد الا أن يكون قلب مجعد الوجه ! ولكـن لو فعلت هذا فسيكون عملا من أعمال اللئام . ومع ذلك :

أيهما له المكانة الأولى في قلبي : الزوجة أم الصديق الذى يبز الجميع نبلا ؟ ليس من شاك في أن المرء لو خير بين الزوجة والصديق لاختار الزوجة فعـن طريقها يحقق المرء « الاهداف الثلاثة » وعن طريقها يكسب الأصدقاء ويظفر بالشهرة . والعالم بأسره يتوقف عليها واذن فمن ذا الذى لا يبوئها مكانا عليا .

وتملكته حيرة عظيمة وقال لنفسه مرة أخرى :

واحسرتاه ! لا بد من قتل صديقي الوحيد الحبيب الذى فعل من أجلي الكثير والذى يتحلى بالكثير من الصفات النبيلة ، وكل ذلك من أجل امرأة ! فيا ويلي! يا ويلى !

وبينما هو يفكـــر على هذا النحـــو وقلبه لا يطاوعه على القيام بهذا العمـــل الخسيس ، سار في بطء شديد نحو مجعد الوجه . وعندما لاحظ القرد أنه يتقدم ببطء قال له : ما سبب تأخرك اليوم أيها الصديق ؟ فقال : أيها الصديق ، من الصعب على أن أجيب على هذا السؤال . أنا لا أنعم كثيرا بصحبتك وعلى الرغم من أنك لم تبد لى سوى الحنان طوال هذا الوقت فانى لم أستطع أن أرد لك الجميل ، وهو أقل ما يجب . وقد قيل :

إن الرجال يتشبثون بالصداقة من أجل المصلحة الشخصية .

ولكنك ياأنبل القردة تبدى لى مودة خالصة وأنت خير مثال للصداقة . وقيل:

من سمات ذى المروءة أن يحسن إلى من لا تربطه بهم أى مصلحة وأن يكون كريما وأن يصنع الجميل وأن يأخذ بيد كل من يكبو . فقال الآخر : ولم لا ؟ ليس من شك في أن هذا احسان لا نظير له . وأنت تعلم أنى نفيت من بلـــدى وأقصيت عن أهلي فوجدت عندك ملجأ ألوذ به وتوطدت بيننا أواصر الصداقـــة وهأنذا أمضى معك وقتى في هدوء وراحة بال وما أحسن ما قيل : من ذا الذى ابتدع هذه الجوهرة ذات المقطعين المسماة « رفيق » . إنه هو الذى يزيل الهـــم ويفرج الكرب وينجى من الخطر وهو جدير بالحب والثقة .

فقال التمساح : أى صداقة أعظم من هذه التى تتيح لك أن تلقى زوجـــة صديقك الحميم وتزوره في داره وتشاركه طعامـــه فأنت مطمئن وتكاشـــفه بأسرارك ؟

وأنا إلى الآن لم أوجه اليك الدعوة لزيارتى في بيتى ولم أقدمك لزوجتى ولم أسألك مشاركتى الطعام .

فقال القرد : وماذا في ذلك ؟ إن هذه هى صداقة العامة من الناس .

وقد قيل أيضا :

إن اللئيم قد يريك زوجته كما يفعل الممثلون على المسرح أمامك . والبهائم يقدم لها الطعام وهذا لا يعني شيئا على الاطلاق . لأن من طبيعة ذى المروءة التى فطر عليها أن يفعل الخير لكل من يصاحبه وهو لا يبذل في ذلك جهدا !

فقال الآخر : أى عجب في أن يكرم أحد الأخيار العاقل والفاضل ؟ إن مثل هذا الأمر لا يستغرب فعله إلا اذا صدر من لئيم . ومثل هذا مثل البرودة فيقرص الشمس . ومع ذلك : على المرء ألا يثقل على صديق أو قريب بمودة زائدة عن الحد . ألا ترى أن البقرة تدفع عجلها بطرف قرنها عندما يحاول أن يفرط في شرب اللبن ؟ .

ولهذا فان على أيها الصديق أن أرد لك الجميل وبيتى يقع فوق جزيرة جميلة في وسط البحر . وهناك تنمو أشجار رائعة مثل شجرة الأمانى السماوية وتطرح ثمارا لها مذاق الرحيق . فهل لك أن تثلج صدرى وتصعد على ظهرى وتزورنى في بيتى ؟

فسر القرد بهذا الكلام : وقال : هذا جميل منك أيها الصديق . وهو يروق لى كثيرا . هيا بنا وخذنى إلى هناك !

وحمل التمساح القرد فوق ظهره ، ولم تكن تداخله ذرة من شك فيمـــــا سوف يصنعه به صديقه واستسلم لمصيره الداهم . وبينما التمساح يمضى فيطريقه قال في نفسـه : وا أسفــاه ! إن مطالب النساء صعبة تثير الشجن ومع ذلك فهن زبدة الحياة ، وهأنــذا أوشك أن اقترف أفظع جريمة من أجل امرأة . . جريمة فظيعة تستحق منى كل تنديد .

وماذا يقال عن هذا ؟

« إن الذهب يثبت معدنه النفيس إذا حك بحجر . ويقال إن الرجل تتأكد رجولته بسلوكه في العمل. والثور يبرهن على قوته بمقدار ما يحمل من أثقال . أما النساء فليست ثمة وسيلة معروفة لا ختبار نواياهن . وهأنذا أجد لزاما على أن أقتل صديقى من أجل امرأة ! وبينما كان التمساح يحادث نفسه على هذا النحو سأله القرد : ماذا تقول ؟

فقال : لا شيء .

وشعر القرد بشيء من القلق لأن التمساح لم يصارحه بما يدور في خلده وقال لنفسه : ترى ما السبب في أن التمساح لا يجيب على سؤالى ؟ ولكنى سوف انتزع منه بذكائى سره المكنون !

وعندما وصل في تفكيره إلى هذا الحد سأله مرة أخرى بالحاح شديد فأجاب : ان زوجتى مصابة بمرض عضال وأنا حزين من أجلها .

فقال القرد : ألا يمكن شفاؤها بأدوية الأطباء وتعاويذ السحرة ؟

فرد التمساح قائلا : لقد سألنا أولئك وهؤلاء فقالوا إنها لن تعيش الا اذا أكلت قلب قرد . ولما سمع القرد ذلك منه استسلم لقضائه المحتوم وقال لنفسه وا أسفاه ! لقد هلكت ها أنذا أجد الجزاء على استسلامى لمتعى الحسية على الرغم من سنى . أولم يقل بعضهم : ان الرذائل تسيطر ، حتى في الغابات ، على الرجال الذين ينساقون وراء أهوائهم ، وإن تحكم المرء في الحواس الخمس ، ولو كان يعيش في بيته ، يعينه على التحلى بتعفف الزهاد . لأن الرجل الذى يكبح جماح عواطفه لا يفعل شيئا يلام عليه وبيته بمثابة صومعة للتوبة ! وبينما هو يفكر على هذا النحو قال للتمساح :

انك لم تحسن صنعا أيها الصديق . إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تصارحنى به منذ البداية ؟ ألا تعلم أنى تركت قلبى ورائى هناك على الشاطئ وأنه كان يجب أن أحضره معى عندما لبيت دعوتك ؟ وقد قيل :

إن من يرغب في الحصول على حسنات الدين الثلاث والنجاح في الدنيـــا والحب يجب ألا يأتى صفر اليدين ليلقى برهميا أو ملكا أو امرأة . فقالالتمساح : ماذا تقول ؟ أين قلبك ؟ فرد القرد قائلا : على شجرة التين بالذات . فمن المعروف أن القردة تحتفظ دائما بقلوبها على الأشجار . وإذا كانت لقلبى فائدة لك فلنعد لنحصل عليه ثم نكر راجعين . ولما سمع التمساح هذا الكلام استخفه الطرب واستدار متجها نحو الشاطئ ، وما ان بلغه حتى قفز القرد في لهفة وقلبه يرقص طربا وتسلق شجرة التين ، وجلس على أحد أغصانها وهو يردد بينه وبين نفسه :

ها ! ها ! لقد أنقذت حياتى برغم كل شيء . ووقف التمساح تحتالشجرة وقال له : هلا أحضرت قلبك أيها الصديق وعدت مسرعا ؟ فقال له القرد وهو يضحك : هيهات أن أجيء معك مرة أخرى ! لقد أدركت كنه ماتنويه بى ، وما قلته لك لم يكن الا خدعة لأنجو من براثنك ، فهيا انصرف أيها الأبله ! أيوجد قلب خارج الجسد ؟

بالخديعة كنت تنشد قتلى فقابلت الخديعة بالخديعة وأنقذت نفسى منالموت بتضليلك . وعندما أدرك التمساح معنى هذا الكلام قال للقرد : على أية حال أيها الصديق احضر معى ولو بدون قلبك وسوف أعالج زوجتى بدواء آخر . فقال القرد : لست حمارا أيها الشرير . فالأبله الذى ليس له أذنان ولاقلب، بعد أن جاء وذهب مرة أخرى وبعد أن ذهب جاء مرة أخرى فلقى حتفه فورا .

فقال التمساح : وكيف كان ذلك ؟

فقال القرد :

الحكاية الاولى

حمار بلا قلب ولا اذنين

يحكى أن أسدا كان يقيم في إحدى الغابات . وكان له تابع من بنات آوى . وحدث أن أصيب هذا الأسد بداء في المعدة وفقد قوته ولم يستطع أن ينهض بعمل شيء . وعندما عض الجوع بنابه ابن آوى قال للأسد:

مولاى، كيف نستطيع أن نعيش هكذا دون أن نعمل شيئا على الأطلاق . فقال له الأسد : أيها الصديق : لا دواء لمرضى هذا سوى قلب حمار وأذنيه ، ولا سبيل لشفائى الا بأكلها ، ومن أجل ذلك عليك أن تبذل جهودك لتحضر لى حمارا . فرد ابن آوى قائلا : سمعا وطاعة يامولاى .

وبعد أن انتهى من كلامه رحل فوجد حمارا يملكه غاسل ثياب في المنطقة المجاورة للمدينة فقال له : لماذا أراك هزيلا الى هذا الحد أيها الصديـــق ؟ فأجاب الحمار : إنى أعيش أيها الصديق وأنوء كل يوم بحمل ثقيل من الثياب وفضلا عن ذلك فان هذا الشرير غاسل الثياب لايعطينى كفايتى من الطعام . فقال ابن آوى : ولم تسمح بتعذيب نفسك على هذا النحو ؟ ما رأيك في أن تجيء معي الى موضع يخيل اليك فيه أنك ترفل في النعيم ! فقال الحمار بلهفة: بربك قـــل لى أين هذا الموضع ؟ فقال ابن آوى : في هذه الغابات الممتدة الشاسعة الممتلئة بحشائش خضراء لها لون الزمرد ، والتى يفيض فيها نهر عظيم ، تعيش ثلاث من الأتن[1] لم تر مثلهن قط من قبل، ويتألقن بنظرة الشباب وأعتقد أنهن فررن من المشاق نفسها التى تتعرض لها . فما رأيك في أن أقدمك لهن . وعندما سمع الحمار هذا الكلام قال : افعل بربك . وأحضر ابن آوى الحمار الأبله أمام الأسد ، الذى ما أن رآه في متناول مخالبه حتى تملكه الطرب ووثـــب يريد أن ينقض عليه ففزع الحمار واستطاع أن يهرب بجلده بسبب ضعف الأسد

---

(١) جمع أتان وهى الحـــارة .

وفر لايلوي على شيء دون أن يلتفت وراءه وقد امتلأ قلبه ذعرا . وقال ابن آوى للأسد : حسنا ! أهذه خير الضربات التي تستطيع أن توجهها ؟ واذا كنت لا تستطيع أن تقتل حمارا يقف أمامك فكيف تنتظر أن تقهر خصومك ؟ فرد الأسد قائلا : أنت على حق فيما قلت ! ولكن لو استطعت أن تحضره لي ثانية فسوف ترى كيف أصرعه في هذه المرة . فقال ابن آوى : اذن تأهب لذلك حتى لا يفلت منك بالطريقة نفسها عندما أحضره أمامك بالحيلة ، على الرغم من أنه عرف مدى قوتك وجراءتك ! وانصرف ابن آوى وهو يضحك . وانطلق الى الحمار وقال له : لماذا عدت من حيث أتيت ؟ فقال الحمار : لقد حدث أمر فظيع . . رأيت أحد المخلوقات المهولة مثل قنة الجبل ، ولا أعرف ما هو ، ينقض على ففررت هاربا منه وأنا لا أكاد أصدق أنني نجوت بحياتي ! فقال ابن آوى : انك لم تفهم ما حدث فقد قيل : كثيرا ما يحدث في هذا العالم أن تظهر عقبات لا وجودها في الواقع ، وذلك عندما يبحث الناس عن الأهداف الثلاثة . إن الأتان عندما رأتك تحركت في جسدها لواعج شهوة عظيمة وشرعت في احتضانك بلهفة وانفعال ، وكنت جبانا مخلوع الفؤاد ففررت لاتلوي على شيء . ولكني أعرف أنها لا تستطيع أن تحتمل العيش بدونك ومن أجل هذا مدت ذراعها لتوقفك عندما هربت . وهذا كل ما حدث . فهيا وعد معي !

ولما سمع الحمار هذا الكلام قال : سوف أجيء معك . وما أن فرغ من كلامه حتى انساق وراء ابن آوى فأمسك به الأسد وقتله .

وبعد أن تم للأسد ذلك قال لابن آوى : أيها الصديق ، إن مباشرة هذا العلاج تقتضي الصلاة للآلهة والقيام ببعض الطقوس الأخرى . وبدون هذا لا يكون للعلاج أثر . ومن ثم البث هنا في هدوء واحرس جثة هذا الحمار حتى أتطهر وأقوم ببعض الشعائر الأساسية المقدسة ثم أعود .

وانصرف الأسد فقال ابن آوى لنفسه : لابد أنه دواء ناجع !

ولما كان شرها بطبعه فقد أكل قلب الحمار وأذنيه . ثم مسح فمه، ومخالبه حتى نظفهما تماما وجلس يترقب عودة الأسد .

وبعد أن تطهر الأسد عاد والتفت ، كما تقضى بذلك المراسم ، نحو اليمين (حول الجسد) فلم يجد القلب ولا الأذنين . فقال : ماذا حدث ؟ قل لى أين قلب الحمار وأذناه ؟

فقال ابن آوى : مولاى ، أنى لهذا الحمار الأبله أن يكون له قلب يعى به وأذنان يسمع بهما ؟

لوكان له قلب أو أذنان لما تصرف على هذا النحو . ألاترى أن هذا الأبله ليس له أذنان ، ولا قلب ، بعد أن جاء وذهب مرة أخرى : وبعد أن ذهب جاء مرة أخرى ؟ وعندما سمع الأسد هذا الكلام لزم الصمت .

[نهاية الحكاية الاولى]

ولهذا أقول : لست حمارا فاغرب عن وجهى فأنت لاتستطيع أن تخدعنى مرة أخرى . لقد حاولت أولا أن تحقق غرضك بكلمات معسولة ولكننى أدركت ما تضمره في قلبك بفضل عثرات ذكائك على الرغم من حرصك الشديد على إخفاء غرضك الدنىء. وها أنت ذا تتلقى درسا ممن يفوقك في الدهاء . لقد استطعت أن أكسب الوقت بخدعة بارعة وقابلت المثل بالمثل ؟ وما أحسن ماقيل في هذا :

لاشك أن في تقسيم الحكم الذى يصدره المرء إلى جزيئات يفيد في إيضاح هذا الحكم . وهو كفيل بأن يشفى عقول الأذكياء الذين يعرفون الحقيقة من الوهم كما تفعل الأدوية الناجعة .

فقال التمساح لمجعد الوجه وهو معجب بذكائه المتوقد :

إن العقلاء يعترفون بحماقتهم ويمتدحون حكمة الآخرين . ومهما يكن من أمر فان جهودهم لاتخيب أبدا في أي عمل يتصدون له .

ولما فرغ التمساح من كلامه ، انطلق عائدا الى بيته وقد خابت آماله .

[وهنا ينتهى السفر الرابع المسمى الخسران .]

السفر الخامس

العمل الطائش او البرهمي والنمس

والآن يبدأ هذا السفر المسمى العمل الطائش وهذه هي منظومة الاستهلال :
كل من يستسلم لسورة الغضب دون أن يتحرى حقائق الأمور يخسر صديقه كما حدث للبرهمي والنمس .

فقال أبناء الملك : وكيف كان ذلك ؟

فقال فصنو شرمان[1] .

كان هناك برهمي من أسرة صالحة يدعى دفاسرمان[1] يعيش في اقليم جوضة . وكانت زوجته برهمية تدعى بجنيادتا. واتفق أن حملت جزاء ما قدمت من أعمال صالحة . وعندما أدرك دفاسرمان هذا ابتهج ابتهاجا عظيما وقال : لقد ظفرت بنعمة كبرى وسوف أرزق وقال لزوجته : لقد تحققت آمالى ياعزيزتى وسوف تلدين ولدا تتحقق فيه كل أمانى المعقودة عليه ، وسأقوم من أجله بالطقوس المقدسة اللازمة وهي طقوس الحمل والولادة والتسمية وما الى ذلك بسبيل . وسوف يكون عماد البيت.

وعندما خوطبت زوجته بهذه العبارة قالت : من ذا الذى يعرف ما إذا كان المولود ولدا أو بنتا ؟ ومن ثم ليس من اللائق والحالة هذه أن تتحدث عن شيء لايزال في حجب الغيب ، وعلى المرء ألا يبتهج قبل الأوان فقد قيل :

إن من يحلم بالمستقبل يجد نفسه ملقى على الأرض ، وقد ابيض وجهه ورأسه وثيابه مثل والد سومشرمان .

فقال البرهمي : وكيف كان ذلك ؟ فأجابت :

---

(١) بهجة الرب أو عون الرب .
(٢) قربـــان .

الحكاية الاولى

البرهمي الذى بنى قصورا في الهواء

يحكى أن برهميا كان له ولد مشغول بدراسته . وكان يتناول الطعام على سبيل الصدقة بانتظام في بيت أحد التجار . وفي الأيام التى لايتناول فيها طعامه هناك يتلقى مكيالا من البرغل فيأخذه الى البيت ويضعه في جرة ويختزنه .ومرت الأيام وامتلأت الجرة بالبرغل .

وفي ذات يوم كان البرهمى راقدا في فراشه وفوق رأسه الجرة مدلاة من مشجب مثبت على الحائط . وبعد أن نال قسطا من النوم في وقت القيلولة نهارا ،استيقظ وأخذ يفكر وقال لنفسه : لقد ارتفع ثمن الحب ، وثمن البرغل اكثر ارتفاعا ، فهو غذاء يصلح لأن يعد منه عشرات الأصناف من الطعام ، ولذلك لابد لى من الحصول على برغل يساوى عشرين روبية ، واذا بعته أستطيع أن أحصل على عشر عنزات ، كل واحدة منها تساوى روبيتين . وعندما تبلغ العنزات من العمر ستة شهور فسوف تحمل ويخرج حملها الى الوجود . ولاشك في أن عددها بعد خمس سنوات سوف يتضاعف حتى يصل عدد القطيع الى أربعمائة . ومن المعروف أنك تستطيع أن تحصل مقابل كل أربع عنزات على بقرة فتية تدر لبنا وتتحلى بأحسن الصفات وتلد عجولا حية . وبهذا الحساب أبادل هذه العنزات الأربعمائه بمائة بقرة . وعندما تلد هذه الأبقار فان بعض عجولها تصبح ثيرانا خصية استخدمها في الزراعة وأحصل من ورائها على حب وفير . وأجنى من حصيلة بيع هذا الحب ذهبا نضارا ، وأبنى قصرا من الآجر ، تحيط به الأسوار . وسوف يرى أحد البراهمة الأجلاء ما أنعم به من ثروة طائلة ووفرة مالدى من الخدم والجوارى والرياش بأنواعها فيقبل من غير شك أن يزوجنى من ابنته الجميلة . ولسوف أنجب منها بعد فترة من الزمن ولدا يحفظ نسبي ويعمر طويلا وينجو من كل مرض بما اكتسبه من فضل . وعندما أفرغ من القيام بطقوس

الميلاد وغيرها من الشعائر المنصوص عليها أطلق عليه اسم «سوشرمان»[1] .
وبينما الصبي يلهو ويلعب تكون زوجتي منصرفة إلى القيام بأعبائها المنزلية ولا تعبأ بما حولها ولا تكترث بالصبي . وإذ ذاك ألوح بعصا غليظة وأضرب بها زوجتي بسبب ما أكنه لولدى من حب عظيم يملأ شغاف قلبي . واندفع وهو مستغرق في أحلامه يلوح بعصاه فأصاب الجرة وما لبثت أن سقطت مهشمة الى مائة قطعة تناثرت فوقه وتبعثرت حبات البرغل . وابيض جسد البرهمى وثيابه من البرغل المطحون وشعر بأنه كمن أوقظ من حلم جميل وخجل من نفسه خجلا عظيما وسخر منه الناس .

[نهاية الحكاية الاولى]

ولهذا أقول : إن من يحلم بالمستقبل سوف يجد نفسه ملقى على الأرض وقد ابيض وجهه ورأسه وثيابه مثل والد سومشرمان .

فعندما يقع الحادث يمكنك أن تعمل على ضوئه . وأنت لا تستطيع أن ترسم صورة إلا إذا كانت لديك لوحة للرسم .

وعندما اقترب موعد الوضع ولدت زوجة البرهمى ولدا يحمل أمارات الطالع السعيد .

وفي اليوم العاشر ، وبعد أن قام البرهمى بطقوس التسمية تركت زوجته الصبي في رعاية والده وانطلقت الى نهر قريب لكى تتطهر وتغسل ثيابها . ولبث البرهمى يحرس الصبي فقد كان فقيرا ، لا يستطيع أن يكترى خادما ، وباشر هذا العمل بنفسه .

واتفق أن حدث هذا في يوم تغير وجه القمر فأرسلت الملكة المعظمة جارية من قصر الملك لكى تستدعى مرتلا للنصوص المقدسة . فأقبلت الجارية لاستدعاء البرهمى .

---

(١) بهجة القمر أو « عون القمر » .

وعندما تلقى البرهمي هذه الدعوة ، وجد فيها فرصة للتخلص من الفقر الذى قاسى منه طوال حياته وقال لنفسه : إذا لم أذهب لفورى فان شخصا آخر سوف يحصل على القربان [1] . ولكن ليس هناك من يحرس الصبي . فماذا عساى أن أصنع ؟

ورأى إزاء هذه الظروف أن يترك الصبي في حراسة نمس كان قد عني بتربيته منذ نعومة أظفاره وكأنه ابنه ، واحتفظ به في بيته في حجرة النار المقدسة وكان يطعمه بحب الحنطة وما أشبه .

واستجاب البرهمي للدعوة ورجل الى قصر الملك . وإذا بالنمس يشاهد حية من نوع الكوبرا تخرج من جحر في الأرض وتقترب من الطفل . وما كاد يراها حتى التهبت عيناه حنقا وارتجفت شفتاه ومخالبه واصطكت أسنانه وقفز في الحال على الحية ومزقها إربا .

وعندما شاهد النمس البرهمي يعود جرى اليه في فرح عظيم ليريه ما فعل. وكانت الدماء تلطخ فمه ومخالبه . ولما أبصر هذا البرهمي الطائش النمس وفمه ملطخ بالدم قال لنفسه : ماذا حدث ؟ هل التهم النمس الصبي؟ تبا له ! وانهال على النمس بعصاه حتى قتله . ودخل البرهمي البيت بعد أن قتل النمس فشاهد الطفل يرقد نائما دون أن يمسه أذى ورأى حية الكوبرا ممزقة إربا بالقرب منه وعندئذ دق صدره بيديه وصاح :

أواه ! الويل لى ! ما أشد حماقتي ! أى عمل شرير قمت به !

وعادت زوجة البرهمي فوجدته يبكي وينوح ورأت النمس مقتولا والحية ممزقة إربا إلى مائة قطعة فقالت له : ماذا فعلت أيها البرهمي ؟ وكيف حدث هذا ؟

---

(١) وهو بصفة نوعية قربان شرادها (للموتى من الأسلاف) ويؤدى فى أيام تغير وجه القمر بمصاحبة تلاوة الفيدات .

فأخبرها بالقصة كاملة ، فاغتمت الزوجة البصيرة بالعواقب غما عظيما وقالت للبرهمى :

كل ما يراه المرء بنظرة متعجلة وما يفهمه بادراك قاصر ، وما يسمعه محرفا ، وما يبحث عنه دون أن يتحرى الدقة ، يجب ألا يقدم على عمله وإلا أصابه ما أصاب الحلاق . فقال البرهمى : وكيف كان ذلك ؟ فأجابت :

الحكاية الثانية

الحلاق الذى قتل النساك

يحكى أن ابن أحد التجار من قديم الزمان كان يعيش في مدينة ما ، وخسر ثروته وفقد أهله وتخلى عنه خلانه بعد أن ساء حظه وطحنه الفقر . ورعته مربيته العجوز التى عاش معها منذ طفولته وأقامت معه في جانب بيت متهدم . وكانت هذه المربية العجوز من الجوارى . وذات مساء أخذ يفكر فيما آل اليه حاله وتنهد طويلا بحرارة وقال لنفسه : وا أسفاه ! متى أتخلص من هذا الفقر الذى أعانيه ؟ وبينما هو يفكر استغرق في النوم عند حلول الليل . ورأى في أخريات السحر حلما . . رأى ثلاثة من النساك يحضرون اليه ويوقظونه ويقولون له : غدا أيها الصديق سوف نأتى لزيارتك في هيئتنا هذه . ولكننا في الواقع لسنا الا ثلاثة أكوام من الكنوز اختزنها أجدادك ، وعليك أن تقتلنا بهراوتك وعندئذ نتحول إلى دنانير . وعليك ألا تأخذك بنا شفقة أو رحمة وأنت تقوم بهذا العمل .

واستيقظ في الصباح وهو لا يزال يفكر في الحلم الذى رآه في منامه وقال للمربية : أماه ، عليك أن تتأهبي طوال اليوم للقيام بشعيرة مقدسة . وعليك أن تطهرى البيت للقيام بهذه الشعيرة وذلك بتلطيخه بروث البقر وما اليه . وسوف نقدم اليوم الى ثلاثة من البراهمة أفضل ما عندنا من طعام . أما أنا فسوف أنطلق لأحضر حلاقا .

وتم الأمر كما أراد وأقبل الحلاق ليشذب لحيته ويقص أظافره . وعندما انتهى من تهذيب لحيته كأحسن ما يكون جاء اليه الرجال الثلاثة الذين كان قد رآهم في الحلم . وما كادت عينا ابن التاجر تقعان على هؤلاء النساك حتى عاملهم بما أمر به . وإذا بهم يتحولون إلى ثلاثة أكوام من الدنانير الذهبية فأخذ ابن التاجر هذا المقدار الهائل من المال ونفح الحلاق بثلاثمائة دينار جعلا له لكي يصون سره . ولكن الحلاق عندما رأى صنيع ابن التاجر قفل راجعا الى داره ووصل به تفكيرة الى نتيجة متعجلة ، وقال لنفسه : وأنا أيضا سوف أقتل ثلاثة من النساك بهراوة وأحولهم الى ثلاثة أكوام من الذهب النضار .

وما أن وصل في تفكيره إلى هذا الحد حتى أخذ هراوة ووقف يترقب ، ولم يمض طويل وقت حتى أقبل ثلاثة من النساك يتسولون . ففاجأهم الحلاق وظل يضربهم بهراوته حتى قتلهم . وغني عن القول أنه لم يحصل على أى كنز ، وإنما أقبل شرطة الملك وقبضوا عليه وساقوه أمامهم وقتلوه على السفود .

[نهاية الحكايـة (٢)]

ولهذا أقول : كل ما يراه المرء بنظرة متعجلة وما يفهمه بادراك قاصر ، وما يسمعه محرفا ، وما يبحث عنه دون أن يتحرى الدقة . يجب ألا يقدم على عمله.

وهنا ينتهى السفر الخامس المسمى العمل الطائش .

نهاية الأسفار الخمسة

البنچاتنترا وكليلة ودمنة
دراسة مقارنة

لاتزال الحكاية الشعبية من أهم المواد الفولكلورية ، لأنها الامتداد الطبيعي والمباشر لبدايات الفكر الانسانى ، عندما كان يتوسل بالتشخيص والتمثيل . وظلت الحكاية الشعبية تساير هذا التطور على مدى التاريخ الانسانى ، ونهضت بوظائف متعددة . وحكاية الحيوان من أهم الأشكال الأدبية ، الشعبية والرسمية على السواء ، ففيها الجذور العريقة التى تعود إلى مرحلة ماقبل الفلسفة ، وفيها الرمز عندما يعز التصريح ، في ظروف خاصة . ولقد عرف الأدب العربى حلقات من حكايات الحيوان ، ظلت من روائع الابداع الأدبى في جميع العصور ، وهى حلقات كليلة ودمنة المنسوبة لابن المقفع . ولايستطيع من يترجم ، و حتى يعرض البنجاتنترا إلا أن يذكر كليلة ودمنة ، وأن يوازن بين المجموعتين والمشهور أن ابن المقفع نقل كتابه عن السنسكريتية عبر البهلوية .

ومهما يكن من أمر العلاقة ، المباشرة أو غير المباشرة ، بين المجموعتين ، فانهما كانتا الباعث على البحث في انتشار الحكايات الشعبية ، وظهور نظريات مختلفة ، تفسر مناهج هذا الانتشار وبواعثه ، من خلال التشابه والاختلاف بين العناصر المحورية للحكايات وانتهت هذه الجهود بنتيجتين كبيرتين : الأولى ظهور قواعد أساسية لتصنيف الحكايات الشعبية ، والثانية الاعتماد على الدراسة المقارنة بين المواد والعناصر الشعبية . وليس من غرضنا في هذه الدراسة أن نعرض لنظرية تيودور بنفى العالم اللغوى الألمانى المشهور (١٨٠٩ — ١٨٨١) ، الذى تخصص في السنسكرتيية ، والذى ترجم البنجاتنترا ، وانتهى من دراساته المقارنة إلى الأصل الهندى للحكايات الشعبية ، ولا أن نعرض لرأى أنتى أرنى (١٨٦٧ — ١٩٢٥) الذى اتفق فيه مع بنفى من حيث الأصل الهندى ، وإن

قال بوجود حكايات شعبية خاصة بشعوب أوروبا الغربية في الوقت نفسه ، مع تعمقه في مناهج انتشار الحكايات الشعبية من الشرق الى الغرب واتخاذها أشكالا محلية ، وحسبنا أن نسجل فقط أن هذا العالم الفنلندى هو الذى يرد اليه تطوير المنهج التاريخى الجغرافي في دراسة الحكايات الشعبية ، ويعد أول من وضع أساسا لتصنيف هذا الشكل من الحكايات .

وأيسر من هذا كله ، في نظرنا ، أن نوازن بين هاتين المجموعتين ، لا من حيث الأصل والفرع ، أو العطاء والأخذ ، ولكن من حيث الشكل والمضمون. ويفرض علينا هذا النظر أن نواجه ، أولا وقبل كل شيء ، ما قيل عن السبب في تأليف المجموعة الأولى ونقل المجموعة الثانية . . . وتحكى مقدمة البنجاتنترا السبب المباشر في تأليف هذه الحكايات ، وهو سبب يرتبط بالحكايات نفسها ارتباطا وثيقا . وخلاصته أن أحد الملوك رزق ثلاثة من الأبناء ، يجهلون مبادئ علم السياسة ، وكانوا في الوقت نفسه أغبياء يحتاجون إلى جهد خاص في التربية والتعليم . واستدعى الملك برهميا ، عرف بالحكمة والعلم ، إلى جانب القدرة على التربية والتعليم . وما كان من هذا البرهمى إلا أن توسل بحكاية الحيوان لكى تقوم بهذه الوظيفة على أيسر وجه . وسنرى بعد أثر الغاية من التأليف والوسيلة التى استخدمت لتحقيق هذه الغاية في الشكل والمضمون والسياق والصياغة جميعا .

أما كليلة ودمنة فقد ورد في مقدمته أن أحد الحكماء وضع هذا الكتاب لملك طاغية ، بعد أن عرف الملك للحكيم قدره ، وأمره بأن يؤلف له كتابا بليغا مذكورا ، يحفظ في خزائن الحكمة مع كتب الآباء والأجداد ، ويكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها ، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته وأن يكون « مشتملا على الجد والهزل واللهو والحكمة والفلسفة » . وقد صدع الفيلسوف بالأمر وألف كتاب كليلة ودمنة ، ثم « جعل كلامه على ألسن البهائم والسباع والطير » . والتوسل بالقصص في الاعتصام بالوسط الذهبي في السلوك تقليد أدبى عرفت به الطبقة الفارسية من كتاب « ألف ليلة وليلة[1] . »

(١) دائرة المعارف الاسلامية – الترجمة العربية – مادة « ألف ليلة وليلة » – أويستروب

ولقد كان صنيع بيدبا مع دبشليم قريبا من صنيع شهرزاد مع شهريار . وكانت غاية كل منهما التوسل بالقصص في منع الحاكم من تجاوز الاعتدال في سلوكه مع حاشيته ورعيته وأهل بيته .

وأهم ما يلفت النظر في الموازنة بين الكتابين من حيث الشكل أن كل حكاية في البنجاتنترا لها بداية ونهاية يستطيع القارئ أن يتبينها لأول وهلة بوضوح ويسر. أما في كليلة ودمنة فان القارئ لا يستطيع أن يتبين البداية والنهاية لكل حكاية إلا بقدر من العناء . يضاف إلى ذلك أن كل سفر من الأسفار يبدأ بمنظومة استهلال وفي ذلك احساس بالقيمة الأدبية للكتاب ، إلى جانب الوظيفة التربوية .

وعلى الرغم من أن المجموعتين تنزعان إلى الاطناب في السرد والوصف وضرب الأمثال ، الا أن البنجاتنترا يتوسل بالتكرار تأكيدا لوظيفته التربوية، ومؤلفه يعي أنه انما يخاطب أحداثا، لمّا ترشد عقولهم ، وأن هؤلاء الأحداث كانوا دون المستوى في التصور والادراك . وليس من شك في أن التكرار كان يستهدف التذكير ، إلى جانب المنهج القصصي نفسه في التجسيم والتشخيص . ويبدو التكرار في إبراز محور الحكاية أو الغرض الذى تعمل على الوفاء به . ولما كانت أمثال هذه الحكايات تعد في المقام الأول من موارد الأمثال فان التكرار يركز المضمون التصويرى للمثل .

ويختلف الجو الديني الذى ظهر فيه كل من الكتابين ، فان البنجاتنترا قد تكاملت حلقاته حتى استقر على صورته النهائية في جو ، تغلب عليه عقيدة تقوم على تعدد الآلهة ، وهذا ينعكس بالضرورة على الحكايات ، التى تتضمنه الأسفار الخمسة . مثال ذلك ما ورد في حكاية طائر البحر والبحر . فعندما اجتاح البحر بيض الطائر نادى جمعا من الطير وأبلغها بالكارثة التى حلت به بسبب فقد صغاره فقالت احدى الطيور :

«لا طاقة لنا بقتال البحر المحيط. والرأى عندى أن خير ما نفعله هو أن نشكوه كلنا إلى الجاروضا وبهذا نثيره ضده . ولاشك أنه سوف يفرج كربنا . » وما

أن استقر رأى الطيــور على هذا حتى انطلقت لترى الجاروضا ولكــن الرب نارابنه (فشنــو) كان قد استــدعاه للاشتراك في معركة نشبت بين الآلهة والشياطين .

أما كتاب كليلة ودمنة فقد ظهر في جو إسلامي يؤمن بالتوحيد وينكر الشرك ، فتحرج من ذكر أى خبر ينم عن تعدد الآلهة ولذلك نراه في هذه الحكاية بالذات يكتفى بأن يذكر العنقاء بدلا من « الجاروضا » وأن يشير إلى القوة الموجهة للبحر المحيط بعبارة وكيل البحر . وقد جاء في هذه الحكاية من حكايات كليلة ودمنة عندما شكا طائر البحر مما صنعه به وكيل البحر :
« فقالت له جماعة الطير : إن العنقاء هى سيدتنا وملكتنا فاذهب بنا إليها حتى نصيح بها ، فتظهر لنا ، فنشكو اليها ما نالك من وكيل البحر ، ونسألها أن تنتقم لنا فيه بقوة ملكها . ثم إنهن ذهبن إليها مع الطيطوى ، فاستغثنها ، وصحن بها فتراءت لهن فأخبرنها بقصتهن وسألنها أن تسير معهن إلى محاربــة وكيل البحر فأجابتهن إلى ذلك . . »

وغاية الغايات في الكتابين — كما أسلفنا — هى تربية الحاكم كيف يسوس نفسه ويسوس رعيته . ولقد عرف الهنود بالحكمة والاعتصام بالطاقة الروحية ولكن ملوكهم فطنوا إلى أن أمر الرعية لا يستقيم في جميع الأحوال ، إذا كانت الوسيلة من طبيعة الغاية ، ولذلك دخل في اعتبارهم العمل بوسائل فيها شيء من الحيلة والمخادعة . وهذا النهج في فن تدبير الملك موجود في البنجاتنترا وجوده في كليلة ودمنة ولكن الأخير ينفرد بتصوير مبالغ فيه لما ينبغى من الامتثال والخشوع للملك ، ونحن نجد الالحاح على تصوير ذلك في المقدمة التى أريد بها أن تعظم من شأن الكتاب وكاتبه والجهد الذى بذله في سبيل تأليفه . وبعد أن فرغ بيدبا الفيلسوف الهندى من تأليف كتابه توجه إلى الملك دبشليم « فلبس الثياب التى كان يلبسها إذا دخل على الملوك وهى المسوح السود ، وحمل الكتاب تلميذه . فلما دخل على الملك وثب الخلائق بأجمعهم ، وقام

الملك شاكرا فلما قرب من الملك كفّر له وسجد ، ولم يرفع رأسه ! » وكما اختلفت الأجواء الدينية التي تكاملت فيها المجموعتان ، فكذلك اختلفت الأجواء السياسية ، ويبدو من الموازنة بينهما أن حرية التعبير في وصف الملوك كانت في البنجاتنترا ظاهرة بيد أنها كانت مقيدة في كليلة ودمنة فقد ورد في سفر الأسد والثور من البنجاتنترا : « من الصعب أن تظفر بالحظوة لدى الملوك فهم كالجبال صعبة المرتقى ، قساة القلوب غلاظ الأكباد دائما بفطرتهم ويحيط بهم رجال أراذل ، وهم يتسقطون الزلات ، ومن شيمتهم الغدر ، لأن الملوك مترفون مثل الثعابين ومسربلون بعدّة الحرب ومتوحشون ويعملون بطريقة ملتوية ، ولهم مناخير ويمكن اكتساب قلوبهم بالكلمة الطيبة .. »

وورد في باب الأسد والثور من كتاب كليلة ودمنة تصوير فيه تحرّج ظاهر يدل على عدم القدرة على النقل الأمين للصورة السابقة وهو يروى .. « وانما شبه العلماء السلطان بالجبل الصعب المرتقى الذى فيه الثمار الطيبة والجواهر النفيسة والأدوية النافعة . وهو مع ذلك معدن السباع والنمور والذئاب وكل ضار مخوف ، فالارتقاء اليه شديد والمقام فيه أشد .. » وربما كان هذا الجو السياسى الذى يشيع الحرج في التصوير فارسيا غلب على النسخة البهلوية التي اعتمد عليها ابن المقفع ونقل عنها مباشرة .

ولقد اقترن هذا التصوير الجرىء للملك وما يدل عليه من حرية التعبير بالمبدأ الذى أسلفت الاشارة اليه في فن تدبير الملك وهو أن الغاية تبرّر الوسيلة. وما نظن أن هناك أدل من الشواهد الآتية التي وردت في نهاية السفر الأول من البنجاتنترا :

« انك تعرف ان الملوك ليسوا في حاجة إلى الاستمساك بالفضائل كما هو شائع بين الدهماء .... إن المملكة لا يمكن أن تحكم بمعايير الناس العاديين . لأن ما يعد في الناس رذائل (بصفة عامة) يمكن أن يعد في الملك من الفضائل وقد قيل أيضا : إن سلوك الملوك مثل سلوك البغى لا يثبت على

حال ، فالملك صادق وكاذب ، فظ ورقيق في الحديث ، متوحش وحنون في الوقت نفسه ، شحيح وكريم مبذر في الانفاق ، وإن كان يحصل على مبالغ كبيرة من مصادر متعددة » .

ومن اليسير أن يتحول هذا الجو من الحرية في التعبير والتصوير الى ما يشبه الاباحة في حكايات البنجاتنترا ، فنجد فيها مشاهد تخرج عن إطار الأخلاق المرعية ، وتقترب هذه المشاهد مما يشيع في بعض الحواضر ، نتيجة لظروف اجتماعية ، مثلما شاع في أدب المجون في بعض العصور . ومن الأمثلة على هذه الظاهرة أكثر من حكاية في البنجاتنترا مثل حكاية «النساج الديوث والقوادة» وحكاية « النجار القواد » . ومع خروج أمثال هذه الحكايات عن الأخلاق المرعية فانها تلح على اعمال الحيلة والمخادعة للتخلص من المآزق وتبرئة الذات من مواقف مزرية يظهر فيها الخاطئ متلبسا بخطيئته ، وفي هذا بعض الشبه بحكايات في ألف ليلة وليلة ونوادر شعبية مرددة في بعض الحواضر .

ومهما جهد الناقل في أن يكون أمينا في النقل ، فانه لا يستطيع أن يردد اسم حيوان لا وجود له في بيئته ، ولا يمكن أن يتصوره خيال من يقرأ له ، ولذلك برزت ظاهرة الاختلاف في تصور بعض الكائنات من عالم الحيوان بين مجموعتي البنجاتنترا وكليلة ودمنة ، ففي الأولى وردت حكاية البرهمي والنمس في حين وردت في الثانية حكاية الناسك وابن عرس ، ويبدو أن النمس لم يكن معروفا في بيئه ابن المقفع فاستبدل به ابن عرس ، وكذلك وردت في البنجاتنترا حكاية القرد والتمساح ، ووردت في كليلة ودمنة حكاية القرد والغيلم أى السلحفاة الذكر ، وأغلب الظن أن التمساح لم يكن له صورة واضحة في عالم ابن المقفع . ولقد كان المهم ، سواء أكان التحول قد تم في النسخة الفارسية أو في النسخة العربية ، أن يحتفظ الحيوان بنفس السمات والصفات التى تتلاءم وسياق العلاقات والأحداث . وسبق أن أشرنا الى بروز هذه الظاهرة في تتبع حكايات الحيوان عبر الزمان وعبر المكان ، وأثبتنا ما كان لها من أثر في مناهج الدارسين ونظرياتهم ، وحسبنا أن نسجل أن طاقة الخيال ، في أغلب الظن ، هى التى تحكمت في استبدال حيوان بغيره ، مع الاحتفاظ بالسمات والصفات .

وإذا اشتركت آحاد من جنس واحد في عالم الحيوان فان فلسفة الحكاية يعبر عنها بالأسماء التي تطلق على كل واحدة منها ، وهذا الاسم عبارة عن الصفةالتي تغلب على الكائن في سياق العلاقات والأحداث ، من ذلك أن البنجاتنترا تطلق على السمكات الثلاث التي واجهت موقفا عصيبا اسماء « بصيرة وبديهة وتوكل » تبعا لتصرف كل منها بازاء ذلك الموقف . وحافظت مجموعة كليلة ودمنة على هذه الخصيصة في تلك الحكاية فأطلقت على السمكات الثلاث الصفات التي غلبت على كل واحدة منها فهي على سبيل التفاضل : كيسة وأكيس منها وعاجزة . والواقع أن البنجاتنترا تكاد تلتزم منهج التشخيص في حيوانها ، فهي تميز بينها بالأسماء التي تشخصها ، بل وتخصصها بين غيرها من بنات جنسها ، ويدل هذا المنهج على أن إيراد حكاية الحيوان قصد منه أن يكون مرتبطا غاية الارتباط بالانسان . . ليس المقصود اقتطاع حدث أو موقف من عالم الحيوان ، يتسم بالواقعية ، ولكن المقصود هو تمثل العلاقة والموقف لتكون درسا نافعا في فنون التربية والسياسة . والأمثلة على ذلك أكثر من أن تستقضى في هذه الدراسة ويكفي أن نشير الى اطلاق اسم « معتز » على الأسد في حكاية الأسد والأرنب ، واسم « الزاحفة البطيئة » على القملة في حكاية « القملة والبرغوث » ، واسم « الصدفية » على السلحفاة في حكاية « الأوز والسلحفاة » ، وأسماء « خفيف الجناح » على الغراب و « المطوقة » على « الحمامة » و « الذهبي » على الفأر . . . . الخ . واذا كنا نلاحظ اختلاف الصفات التي تدل عليها هذه الأسماء فليس مرد ذلك الى السبب المعروف عند الجماعات البدائية من اطلاق أسماء تدل على صفات محببة أو مكروهة ، تبعا للاعتقاد في تأثير هذه الصفة على القرناءوالأرواح وما إليها ، ولكن فن التسمية في الحكاية الشعبية الهندية إنما يقصد إلى إبراز سمة مميزة أو صفة خاصة ، يحتاج اليها الخيال حينا ، والسياق أحيانا .

ومن وجوه الخلاف في فن التسمية أيضا بين المجموعتين ما يواجهه الذي يقوم بالموازنة في أول لحظة يبدأ فيها تتبع وجوه التشابه والاختلاف ، فانالنسخة العربية أطلقت اسمى كليلة ودمنة على ابنى آوى وهما الاسمان اللذان اشتهرت

بهما هذه النسخة في العالم كله وعلى مدى التاريخ بعد ظهورها ، في حين ورد الاسمان في البنجاتنترا على هذا النحو :

كرطاكه ودمنكه ومعنى الأول « ذو العواء المخيف » والثانى « المنتصر »، وبذلك لم تخرج المجموعة الهندية عن منهجها في فن التسمية . ومن الملاحظ أن الاسمين في المجموعة العربية فيهما تحريف للأصل السنسكريتى ، وإن لم يقصد الناقل الى المعنى . كما أن البنجاتنترا أطلقت على الثورين في السفر الأول اسمى فندكا وسميجفكا ومعناهما بشيء من التصرف «المبتهج» و « الطروب » . أما في كليلة ودمنة فقد ورد اسماهما شتربة وبندبة . . .

أما الكائنات الخارقة أو غير المنظورة فقد اختلف فيها منهج المجموعتين أيضا ، ولعل مرد هذا الاختلاف يعود الى علاقة هذه الكائنات بالعقيدة ، كما تعود الى طاقة التخيل أو استدعاء الصورة أو دلالة الكائن الخارق على قوة تمثل الخير أو الشر ، ومن هذا القبيل ما أوردته البنجاتنترا في حكاية البرهمى واللص والغول ، فقد صورت الغول كائنا شريرا مفترسا ، واستبدلت به مجموعة كليلة ودمنة شيطانا له نفس الصفات التى لاتخرجه عن المحور الرئيسى للحكاية .

ولا يسع الباحث وهو يقوم بالموازنة الا أن يسجل للمجموعة الهندية أسلوبها الشاعري ، الذي لم تلتزمه في مقدمات حكاياتها فقط ، وانما التزمته في السرد النثرى أيضا ، وعلى الرغم من أن الترجمة تعجز عن نقل جميع الخصائص والمقومات التى تتسم بها الشاعرية ، إلا أنها تعكس هذه السمة في أسلوب السرد والتصوير والتمثيل . ومع اعترافنا بقدرة ابن المقفع على التعبير الفنى فاننا نلاحظ افتقار النسخة العربية الى الكثير من تلك الشاعرية . ومع ذلك فان المجموعتين تسلكان في باب الأدب ، لابمعناه القديم ، ولكن بمعناه الحديث الذى يرى أن الأدب فن الكلمة أو فن القول . ولا يرجع ذلك الى الحكايات باعتبارها شكلا أدبيا ، ولا إلى تصوير كائنات من عالم الحيوان تصويرا يثير الخيال ، ولكن إلى الأسلوب الذى صيغت به تلك الحكايات في السرد والانتقال .. في الوصف والتصوير . . في التشخيص والتمثيل . والراجح أن الأسلوب كان مقصودا لغاية جمالية ، إلى جانب الغايات التعليمية ، ولكن هذا الأسلوب

أقوى في المجموعة الهندية وأدخل في الشاعرية منه في المجموعة العربية . ولقد دلّت الموازنة التى قام بها الدارسون منذ القرن الماضى أن هناك فارقا بين المجموعتين من حيث عرض الحكايات ، ففى البنجاتنترا حكايات لم ترد في كليلة ودمنة . ولقد سبق أن أشرنا الى تلك الحكايات التى لم تلتزم الاحتشام في الواقع والعلاقات ، ونحن نضيف اليها — على سبيل المثال — حكايات الناسك والمحتال . . والرجل العجوز والزوجة الشابة واللص . . والحلاق الذى قتل النّساك . . الخ . وفي كليلة ودمنة إضافات كثيرة لم ترد في المجموعة الهندية ، منها مقدمة الكتاب المنسوبة لعلى بن الشاه الفارسى وعرض الكتاب ترجمة عبدالله بن المقفع وحكاية الفحص عن أمر دمنة ، ولهذه الحكاية دلالة خاصة لأنها تساير الفلسفة الأخلاقية التى ترفض انتصار الشر ، مهما كانت الغاية البعيدة أو القريبة من وراء ذلك .ومن تلك الاضافات حكايات الناسك والضيف . . . والبطة ومالك الحزين . .الحمامة والثعلب ومالك الحزين . . برزويه المتطبب .

ولقد سبق أن سجل الدارسون في بحوثهم هذه الموازنة المستقصية لحكايات المجموعتين وأوردوا آراء بعض العلماء قبلهم ، وهى الآراء التى وازنت أيضا بين حكايات هاتين المجموعتين وبين الحـكايات التى وردت في « المهابهاراتا » و « فشنوسانا[1] » ، كما أنهم استخلصوا من المصنفات العربية روايات لها أهميتها في الكشف عن معرفة بعض البيئات العلمية المتأخرة في العالم الاسلامى بكتاب البنجاتنترا فقد نقل الدكتور عبداللطيف حمزة عـن البيرونى (المتوفي عام ١٠٤٨) قوله : « . . . وللهند فنون من العلم أخرى كثيرة ، وكتب لا تكاد تحصى ، ولكنى لم أحط بها علما ، وبودى أن كنت أتمكن من ترجمة « بنج تنتر » وهو المعروف عندنا بكتاب كليلة ودمنة ، فانه تردد بين الفارسيـة والهندية ، ثم العربية والفارسية على ألسنة قوم لايؤمن تغييرهم اياه ، كعبدالله بن المقفع في زيادته باب برزويه فيه ، قاصدا تشكيك ضعيفى العقائد في الدين ،

---

(١) د. عبداللطيف حمزة : ابن المقفع ، القاهرة عام ١٩٣٧ ، ص ١٩٦ — ١٩٧ .

وكسرهم للدعوة والى مذهب المانية . وإذا كان متهما فيما زاد ، لم يخل مثله فيما نقل [1] . »

وفي رواية البيرونى هذه ما يضيف باعثا جديدا على وجوه الخلاف بين المجموعتين ، وهذا الباعث هو شخصية عبدالله بن المقفع الذى ارتبط اسمه بمجموعة كليلة ودمنة ، والتى ترجمها عن البهلوية ، وهو فارسى الأصل ، ظهر في عصر انتقال ، اشتجر فيه الصراع بين أصول وثقافات . ولشخصية الناقل تأثيرها بلاشك في اختيار ما ينقله بصفة عامة ، وفي انتخاب عناصر منه بصفة خاصة ، وفي تفصيل الموجز ، وايجاز المفصل ، وفي الصدور عن مكانة هذه الشخصية وطبقتها وثقافتها ، ونوازع سلوكها . وربما أظهرت الدراسات ما أضفاه ابن المقفع على مختاراته ونقوله من تنقيح وتغيير . . من إضافه وحذف .. هذا إذا صحت نسبة الترجمة العربية المتداولة إلى هذا الكاتب الاسلامى .

وتأثير شخصية المترجم يتجاوز وضع اسم مكان مقابل اسم مكان آخر ، ويتجاوز استبدال حيوان بغيره ، ويتجاوز إيراد التفاصيل في سياق بعض الحكايات ، إلى الاختلاف الجوهرى في العناصر الثقافية والحضارية التى تحكمها بيئة جغرافية ، ومرحلة تاريخية ، وعلاقات اجتماعية ، لابد أن يضاف اليها جميعا شخصية الناقل ، وما تتسم به من خصوصية في التفكير والتعبير ونوازع السلوك جميعا ، مع الاعتراف بوجود حاقة فارسية وسطى استحدثت هى أيضا الكثير من وجوه التغيير والخلاف .

وهذه الموازنة العجلى بين هذين الأثرين الأدبيين اللذين اشتهرا في العالم وأثرا في آداب الشعوب ، لايمكن أن يتحقق فيها التفصيل المنشود . ولقد أريد بها أن تكون تعريفا لابد منه ، بعد الفراغ من نقل البنجاتنترا الى العربية . وليذكر الدارسون والقراء أن تصنيف حكايات الحيوان قد حفز اليه هذا الكتاب وأعان عليه الكتاب العربى « كليله ودمنه » ، وأن هذا التصنيف يستوعب ويتابع الحكايات التى تسجل من أفواه الآحاد العاديين ، أيا كان الشعب الذى ينتمون اليه ، وأيا كانت اللغة التى ينطقون بها ، ولم يبق إلا أن نضيف إلى جهود الجامعين والمصنفين وثائق مستخلصة من الحكايات الشعبية العربية الحية .

---

(١) المصدر السابق ، البيرونى : « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » ، طبعة ليدن سنة ١٨٨٧ ، ص ٧٦

الفهرس

السفر الأول

السفر الثاني

السفر الثالث	رقم الصفحة

السفر الرابع

السفر الخامس







